قضبان الفضيلة

محمد وجدي شاهين

قضبان الفضيلة

د.م. محمد وجدي شاهين

الإهـــــــداء

وعدتُّها يومًا.. أنني سأُهديها كتابي هذا.. وهأنا ذا أُوفي بِوَعدي، فالوعود لا يقتلها الزمن، الوعود لا يقتلها إلا الغدر.

هأنتِ اليوم تبدئين حياتكِ مع مَنِ اخترتِ بعد أن كتبتِ فصولًا كثيرة في كتاب الذكريات؛ لذا جعلتُ كتابي هذا.. لكِ هدية؛ لعلكِ تتعلمين به كيف تحافظين على مَن أردتِّهِ.. رَجُلَكِ بعد أن فرَّطتِّ بإرادتك فيمن أرادكِ امرأته!

بكِ كتبتُ هذا الكتاب، وإليكِ أَسَجِّل إهدائي.

محمد وجدي شاهين

تقديم

مَن تخيَّل أنَّ الحياة غير عادلة، فقد ظلم نفسه قبل أن يظلم الحياة، فالحياة عادلة في عطاياها التي لا تقف أبدًا على مدي قناعتنا بعدلها أو مقدار قبولنا أو رفْضنا لهذه العطايا التي لا ولن تنتهي إلا بنهاية الحياة ذاتها.

فالملاحظ أن الحياة دائمًا ما تعطينا الفرصة تِلْو الفرصة؛ لعلَّنا نفهم أنها لن تعطينا أبدًا ما نتمنَّاه، وأنها لن تجود علينا بما نتخيَّل أننا نستحقه منها؛ لأن عطاء الحياة مرهون فقط بأن تصل بنا الحياة إلى ما هو مقدور لنا.

أما مسألة قبولنا أو رفْضنا لقدَرنا، فهذه مسألة خاصة باختياراتنا نحن فقط، ولا تؤثِّر أبدًا على معطيات الحياة، وتصرفات القَدر، فابن آدم دائمًا ما يبحث عن مبررات لإخفاقاته، ومسببات لقراراته، ومرجعيات لسوء اختياراته، وعادةً ما يكون القدر هو أنسب مرجعية لكل إخفاقات ابن آدم التي وصل إليها باختياراته وقراراته.

ولأن الحياة هي عبارة عن رحلة لا يستطيع الإنسان أن يسير فيها وحيدًا أبدًا مهما حاول أن يقنع نفسه أنه يمكنه ذلك، فإن ابن آدم يجد نفسه منجذبًا دائمًا إلى نصفه الآخر الذي يستطيع معه وبه أن يستكمل نواقصه، ويغطي احتياجاته، كما يستطيع أيضًا أن يفرض عليه قوته سواء الفكرية أو البدنية أو حتى تلك الغريزية.

لهذا كان احتياج آدم إلى حواء واحتياج حواء إلى آدم هو احتياج فطري تفرضه عليهم طبيعة خلقهم، وكينونة احتياجاتهم الغريزية التي يستطيعان بها أن يستكملا رحلة الحياة بكل ما فيها مِن رفْض وقبول، وعِنْدٍ وتسامح، وقسوة وحنين، وعطاء ومنْع، وتلاقٍ وفِراق.

الحـــوار

لم تكن تدري أنها تمتلك كل هذا القدر مِن الاحتمال إلا عندما وجدتْ نفْسها في مواجه محتومة مع ما لم تكن تتخيل يومًا أنها سَتَمُرُّ به.

لم تعرف أنها بهذه القوة إلا عندما اختبرتْ قدراتها التي لم تعلم يومًا أنها تمتلكها إلا عندما اضطُرَّتْ إلى استدعائها عندما وجدتْ حياتها على المحكّ.

إننا جميعًا نمتلك داخلنا هذا الكنز مِن القدرات الكامنة التي لا تظهر إلا عندما لا يصبح أمامنا بُدٌّ مِن مواجهة قدرنا الذي يسير بنا إلى حيث قُدِّر لنا، لنجد أنفسنا في صراع حتميّ مع قدَر لا يعرف التراجع، أو عندما نجد أنفسنا في مواجهة مخاوف تتحوَّل أمامنا إلى حقائق لا يُجدي معها الهروب؛ حيث كل الطرق لا تؤدي إلا إلى حقيقة واحدة، وهي أنَّ كل مخاوفنا التي كنَّا نجبن مِن تخيُّلِها قد أصبحتْ للأسف واقعًا مضطَّرِين إلى أن نتعايش معه بالرغم مِن رفْضنا إيَّاه.

استيقظتْ صباح هذا اليوم وهي لا تعلم لماذا يراودها هذا الشعور الخانق بأن القادم ... قادم!

لسنوات طويلة كان يتملكها شعور بأن زوجها ليس هو نفس الرجل الذي بدأتْ معه حياتها، لسنوات طويلة كانت تتشكَّك في عطره عندما يضعه وهو في طريقه للخروج، تمامًا كما كانت تتملكها الشكوك عند عودته تفوح منه رائحة العطر، وكأنه قد خرج للتَّوِّ مِن غرفة نومه!

لسنوات طويلة كانت تشعر أن هناك أمرًا ما قد ألمَّ برجُلِها جعله لا يلتفت إلى تسريحة شعرها الجديدة وهو مَن كان يلاحظ أن هناك شَعرة قد سقطتْ على كتفها في فترة ما قبْل الزواج.

كانت تنظر إلى رجلها وهي تسأل نفسها كل يوم: ماذا حدث؟ مَن هذا الرجل الذي يسكن معنا في المنزل وكأنه نزيل في فندق لا نعلم بوجوده ولا نسمع صوته إلا إذا أراد شيئًا؟

كانت تسأل نفسها كل يوم ألف سؤال جميعها يصِلُون بها إلى سؤال واحد ليس له إجابة: ماذا حدث؟

هل ذهب الحب الذي كان بيننا يومًا ولم يعد يتبقى إلا العِشْرة كما يقولون؟ أم أنني لم أصبح له هذه الحبيبة التي طالما تغنَّى بحبها قبل أن ينالها؟ وهأنا اليوم لا أزيد عن أن أكون أم الأولاد التي ترعى له أولاده، وتهتم بأمورهم الصحية، وفروضهم الدراسية، ومتطلباتهم المنزلية.

هل كل ما فات مِن حب وعواطف وآهات كان مجرد وسيلة حتى يتحصل على الجسد الذي طالما أراده بشغف وقتَ كان مُحَرَّمًا عليه؟ واليوم بعد أن تملَّكه وأصبح له حلالًا تحوَّل عنه، وأصبح فيه مِن الزاهدين!

لماذا هذا التحوُّل؟ كيف حدث هذا؟ ومتى حدث؟

سنوات طويلة وهي تعيش وسط كل هذه التساؤلات، وهي تحاول جاهدة كل يوم أن تصل إلى تفسير يريحها، ويقتل داخلها هذا الشك الرهيب مِن أنَّ السبب ليس إلا امرأة أخرى.

كل يوم كانت تستيقظ مِن نومها على صوت بداخلها يدعوها لأن تفتِّش في أغراضه؛ لعلها تجد ما يؤكد لها شكوكها مِن أن هناك امرأة أخرى قد

سيطرتْ على عقل رجلها، فلم يعد يدرك أهمية وجودها في حياته، كما لم يعد يدرك أيضًا معنى وجوده في حياتها.

امرأة قد تملكتْ مِن قلب رجلها حتى ذهب الحب الذي جمعهما منذ أول لقاء، كما لو أنه قد استبدل قلبه بقلب جديد، ولم يعبأ حتى لأن يقوم بإعادة تحميل ذكرياتهم عليه.

امرأة قد سحرتْ عينيه، فلم يعد يرَى الحبيبة التي كانت تملأ عليه دنياه، وكأنها قد أصبحتِ اليوم شبحًا يعيش مع شبح.

كان بداخلها رغبة جامحة مملوءة بقدْر كبير مِن الغضب تدعوها لأن تبحث عمَّا يؤكد شكوكها التي تحولتْ مع الوقت ليقين لا يحتاج لأكثر مِن رسالة في (الموبايل)، أو شعرة على كتفه، أو قصاصة ورق في جيبه، أو رائحة عطر نسائي؛ حتى تقوم بهدم المعبد على رأس الجميع وهي أولُّهم.

وبالرغم مِن أن هذه الرغبة قد تملكتْها بشكل مخيف جعل من أحلامها كوابيس، ومِن حياتها فيلمَ رعب دائم لم يتم كتابة لقطة النهاية له بعد، إلا إنها لم تستطيع يومًا أن تواجه شكوكها بالقدر الكافي مِن الشجاعة التي تجعلها تتحقق مِن أسباب تغيُّر رجُلِها، فما كان منها إلا أن أكملتْ حياتها؛ لتحيا حياة لم تعد تنبض بأي حياة.

لقد عاشت حياتها كلها وهي تتجنب الدخول في هذه المواجهة، وكأنها لا تريد أن تتأكد شكوكها التي تتعذب بها، فقررتْ أن تستكمل حياتها يقتلها الشك بدلًا مِن أن تقتل الحقيقة قدرتها على استكمال الحياة التي اختارت استكمالها.

لقد عاشت حياتها وهي تخاف أن تصل إلى هذه اللحظة التي ستتأكد فيها مِن أن شكوكها لم تعد شكوكًا تحتمل ولو قدرًا بسيطًا مِن الخطأ تستمر به الحياة بينهما، قبل أن تصبح حقيقة مطلقة تتوقف عندها حياتها.

حتى كان هذا اليوم الذي تغيَّر فيه كل شيء، وتبَّدلتْ حياتها رأسًا على عَقِب، وذلك عندما احتدمتِ المواجهة بينها وبين رجُلها الذي أتاها ليخبرها أنه لن يستطيع أن يستكمل حياته في هذا البلد بعد كل هذه الأحداث السياسية، والتي أثرَّتْ على كل شيء حتى أنَّ دخْله مِن عمله لم يعد كافيًا لأنْ يغطي مصروفاتهم التي تزيد يومًا بعد يوم؛ لهذا فقد قرَّر أن يسافر وحده؛ لكي يؤمِّن لهذه العائلة مصدر الدخل الذي يمكِّنه مِن المحافظة على المستوي الأسري الذي يعيشون به.

لم تستطع أن تتمالك نفسها بعد الذي سمعتْه، لتتحول إلى قنبلة موقوتة، لم تكن تحتاج لأكثر مِن الشرارة التي تفجر بها كل مخزون الغضب بداخلها، فانفجرتْ:

- هي: إيه اللي إنتَ بتقوله ده؟ وإيه الحجج الفارغة دي؟ إنتَ فاكرني إيه؟ حمارة.. غبية.. مبفهمش؟! أنا عارفة وحاسَّة مِن زمان، ومِسْتَنِّيَة اليوم ده!
- هو: يوم إيه؟ إيه اللي إنتِ بتقوليه ده؟!
- هي: مِن زمان وأنا متأكدة إنك تعرف واحدة تانية، سنين وأنا بحاول أتغلب على شكوكي فيك وفي تصرفاتك، لكن خلاص مش قادرة، خلاص تعبتْ، ومش قادرة أستحمل أكتر مِن كدة.
- هو: تصرفات إيه وشكوك إيه؟ إيه اللي إنتِ بتقوليه ده؟ إنتِ مش عايشة معايا ولا فاهمة اللي بيحصل لنا! بقوللك شُغلي، تقوليلي واحدة تانية!

- هي: طبعًا هي دي الحِجَّة، مِن إمتى كان عندك مشاكل في شغلك؟ ولا مِن إمتى كان عندنا مشكلة في الفلوس؟ طبعًا لازم تقول كدة، ما أنا واحدة حمارة وحصدَّق، لكن خلاص، مش قادرة أكتر مِن كدة، إنتَ عايز واحدة ما بتحسِّش علشان تقدر تعيش معاك، كفاية ذُل بقى، أنا تعبت منك، ومش حأقدر أكمل أكتر مِن كدة.
- هو: إيه الهباب ده؟ حتفضلي لغاية إمتى مش حاسَّة بيَّ؟!
- هي: خلاص.. طالما أنا مش حاسَّة بيك روح للِّي حاسَّة بيك، سافر لها وسِبْني في حالي بقى، ما تربطش نفسك بواحدة ما بتحسِّش، اتفضَّل مع السلامة رحْلها ما دام هي اللي بتحِسّ بيك، ليه تكمِّل حياتك مع طوبة ما بتحسِّش، اتفضَّل مع ألف سلامة.

ولكن مثل هذه الأحاديث التي لا تحمل إلا الكثير مِن الدموع , فإنها للأسف يضيع فيها معاني الكلمات، خاصةً عندما يكون الصراخ هو اللغة الوحيدة التي يجيدها الطرفان.

خرج مِن الغرفة وهو يشعر بالوحدة الشديدة، بالعزلة التي يغلفها الاكتئاب ... فجأة وبدون أي مقدمات وجد نفسه كمن يسكن في غرفة وسط صحراء كل جدرانها مِن الرمال التي تتلاعب بها الرياح، فتذهب بكل أمل في أن يجد لوحدته نهاية.

ألقى بجسده على الكرسي وهو يحاول أن يفهم ماذا حدث، ولماذا تحوَّل الحديث إلى هذا الشكل الدرامي؟ بالرغم مِن أنه لم يزد عن الإفصاح عن مشكلته التي حاول جاهدًا أن يتكتمها وألا يجعلها تؤثر على زوجته أو عائلته، أو على إحساسهم بالأمان.

ظل يسأل نفسه السؤال الذي كانت كل إجاباته مؤلمة: لماذا لم يعد بإمكانها أن تفهمني؟! لماذا لم يعد بيننا حوار؟!

جلس على كرسيه وهو غارق في التفكير المظلم الذي يبدأ عادة مِن منطقة ضبابية الرؤية وسط الظلام، ولكنه لا يصل في أغلب الأحوال إلا إلى منطقة جديدة أكثر إظلامًا نفقد عندها الرغبة في الرؤية عندما تعتاد أعيننا على اللون الأسود، ليصبح بصيص النور أكثر إيلامًا لأعيننا مِن استمرار العتمة.

للحظات بدأ عقله في استرجاع شريط ذكرياته منذ أول لقاء لهما منذ سنين طويلة، منذ رأى هذه الفتاة المرحة المنطلقة التي تبعث البهجة في كل مَن حولها، بدأ في تذكُّر كيف كانت البسمة هي لغتها، والضحكة هي سلاحها في التواصل، بدأ يتذكر كيف خطفتْ قلبه بعفويتها وبساطتها، بالرغم مِن أن كل مَن حوله كانوا يقولون عنها إنها طيبة لدرجة الهبل، إلا إنه لم يكن يرى منها إلا عفويتها وبساطتها التي ملكتْ قلبه، وجعلتْه يرى فيها فتاة أحلامه.

لقد تزوجها وهو يعلم أنها طيبة للدرجة التي تجعل الكثير مِن الناس يرون طيبتها طِيبَة مرضيَّة تصل إلى درجة السذاجة، إلا إنه كان – وقتها – يرى أن هذا أحد أهم مزاياها.

تزوَّجها وهو يعلم تمام العلم في قرارة نفسه أنها قد تكون سطحية التفكير، ولكن قلبها يملؤه الحب الذي يجعلها تشعر بما يجب أن تفهمه.

تزوجها وهو يعلم أنها قد تفتقد إلى المنطق في الحكم على الأشياء، ولكنها تتمتع بنقاء الروح الذي يتلاشى معه علم المنطق، ليحل محله الصفاء النفسي الذي يمكننا مِن الحكم على الأشياء وفق إحساسنا، لا وفق منطق الآخرين.

نعم تزوجها وهو يعلم منها كل هذا، ولكنه كان يصدق أن ما يراه الآخرون عيبًا ليس إلا أحد أكبر المزايا التي جعلتْه يتزوج بها، لقد شعر وقتها أن الحياة ستكون أسهل مع امرأة بهذه الدرجة مِن البساطة والعفوية والانطلاق؛

حيث ستملأ حياته بالبهجة التي ستساعده على تحمُّل أعباء مسئولياته الأسريَّة.

إنه هذا الفخ الذي نقع فيه جميعًا عندما نتصور أن الشخص الذي سنرتبط به في بداية علاقة يملؤها الحب والشاعرية والرومانسية سيظل هو نفس الشخص بعد أن تتطور هذه العلاقة في مراحلها المختلفة، لتصل في النهاية إلى مرحلة الزواج، والأولاد، والأسرة، والالتزامات، والمسئوليات، والإخفاقات، والنجاحات.

عندما تصل هذه العلاقة التي تبدأ بإعلان الحب غير المشروط إلى مرحلة إثبات فاعلية هذا الحب، وقدرته على التصدي إلى انفعالاتنا وخلافاتنا، فَوَقْتُها فقط نعرف مقدار الخطأ الذي وقعنا فيه عندما اعتبرنا أن مرحلة ما قبل الزواج هي مرحلة تهدف فقط إلى الوصول لمرحلة الزواج، وليستْ نواة لتأسيس هذا الزواج.

إنه الخطأ الذي يقع فيه الطرفان عندما يعمد كل منهما إلى إظهار الشخصية الرومانسية التي تتقبل الآخر بدون حوار، لتقبل المرأة أن تكون الصدر الحنون الذي يستطيع الرجل أن يلقي برأسه عليه، وهو يحل مشكلاته دون أي مداخلة منها، اللهم إلا بقبول رأيه، والتأكيد على مساندتها له، وثقتها في حكمته وقدرته على حل مشكلاتهم.

أما الرجل فإنه في أغلب الأحيان تستهويه هذه الشخصية التي لا تعارض فكره، وتقبل منه كل رأي، فلا يحاول استثارتها فكريًّا لتدخل معه في حوار؛ لأنه يكون أكثر اهتمامًا بإثارتها عاطفيًّا، ليجد منها الأنثى التي يستطيع أن يأخذ منها بعض المشاعر التي تهدئ مِن جموحه العاطفي، وتطفئ رغبته، حتى يستطيع أن يصل بها ومعها إلى حيث رغب هو، ورغبتْ هي في الوصول إليه في مرحلة ما بعد الزواج.

إن العقل البشري بطبيعته يستهويه وضع أي صورة يراها أو يكوِّنها داخل إطار افتراضي يحدد أبعاد هذه الصورة، فيقبلها طالما كانت ضمن هذا الإطار الذي وضعه وحدَّد معالمه بنفسه ولنفسه منذ وقعتْ عيناه على هذه الصورة.

ولكن المشكلة الحقيقية تكمن دائمًا في استسلامنا لفكرة أن هذا الإطار الافتراضي – الذي قامت عقولنا بوضع الصورة داخله – قد أصبح جزءًا أصيلًا مِن الصورة لا تكتمل إلا به، فتستميت عقولنا بعد ذلك في الدفاع عن الإطار لا عن الصورة، وذلك لإثبات صحة نظرتنا للأمور، بغض النظر عن كل الحقائق والإثباتات التي تؤكد أن الإطار الذي وضعناه لهذه الصورة غير مناسب لها، وأنه لا بد لنا إنْ نحن أردنا الحفاظ على جمال هذه الصورة إما أن نستبدل الإطار بما يتناسب مع الصورة، أو أن نستبدل الصورة ذاتها، إنْ كان كل ما يعنينا هو فقط إثبات صحة وجهة نظرنا، حتى لو كان الثمن هو انهيار العلاقة كلها.

لقد كانت كل مشكلته معها أنه لم يكن ينتظر منها أن تسانده في مشكلاته بأكثر مِن موافقتها على رأيه، وهي توفر له الصدر الذي اعتاد أن يريح عليه رأسه وهو يفكر في حل مشكلاته منفردًا، لقد كانت كل مشكلته معها أنه قد حصرها داخل إطار الصورة التي رآها قبل الزواج، والتي عملتْ هي على تأكيدها مِن أنها لا تهتم بالتفاصيل، وأن الحوار بينهما سينتهي في معظم الأحوال بموافقتها على ما يقول، حيث أصبح لزامًا عليه أن يفكر وأن يأتي بالحلول التي ستوافق هي عليها، بعد أن تطمئنه أنها تثق فيه وفي قدراته وحكمته، وأنها ستكون دومًا بجانبه.

لقد أصبح الحوار بينهما عزيزًا جدًّا؛ إذ أصبح ينتهي قبل أن يبدأ، عندما فقد هو الرغبة في أن يتكلم، وهو يعلم مسبقًا أنها لن تعطيه رأيًا، بل ستوافقه على رأيه.

أما هي فلم تعد تجد ما تحدِّثه فيه بعد أن انطفأتْ جذوة الحب بينهما بفعل المسئوليات التي باعدتْ بين القلبين، وقرَّبتْ بين شخصين لم يعد يربطهما إلا العمل على بناء هذه الأسرة، واستمرار هذا الكيان وفق المسئوليات التي أخذها كل طرف لنفسه وبنفسه، حتى أصبحتْ مسئولية كل طرف منهما تجاه الأسرة أهم مِن مسئوليته تجاه حبهما الذي به بدأتْ علاقتهما في أول الأمر.

عندما يهدأ الحب بين المحبين، تصبح الموضوعات التي يمكن أن يتحدثا فيها شديدة الرتابة، وتصيبهم بالملل عندما يتحول كل طرف إلى مجرد أذن تسمع، لا عقلٍ يحلل ويفكر ويشارك.

عندما يهدأ الحب بين المحبين، نجد المرأة وقد تحوَّل كل حديثها عن يومياتها، وجارتها، وأختها، وأمه، والأولاد، والمدارس... إلى آخره، بينما لا يجد الرجل مِن الأساس موضوعًا ليفتحه بعد أن يصبح كل المطلوب منه هو أن يستمع فقط لما تقوله حواء، وأن تكون ردوده هي فقط إثبات لأنه لايزال يستمع لحكايات حواء التي قد تصيبه بالملل الذي لا يملك إلا أن يتعايش معه.

إن آدم عادة ما يستمع إلى حديث حواء عند عودته إلى المنزل وهو شارد الذهن، مشغول بهمومه ومشكلاته التي يفكر في حلولها منفردًا؛ لأنه لم يعد يرى مِن امرأته إلا هذه الصورة التي تكونتْ داخل عقله الباطن في مرحلة ما قبل الزواج، فلم يعد ينتظر منها أي مشاركة في حل مشكلاته بالتبعية.

بينما نجد حواء وهي تنتظر منه أن يستمع إليها، ويشاركها الاهتمام بما تقوله، وبإعطاء الرأي الذي سترفضه هي في كل الأحوال، حتى تترك باب الحوار مفتوحًا؛ لأنها في النهاية تعلم أن الأمور تسير، وأن كل هذه المشكلات ليست إلا أمورًا عادية تحدث كل يوم، وأنها لا تمثل إلا موضوعات تمكِّنها مِن فتْح باب الحديث مع رجلها ليس إلا.

لقد استمرَّتِ الحياة بينهما داخل هذا الإطار الذي وضعه كل منهما للآخر، فهو قد رضي أن يواجه تحديات حياتهما وحده بعد أن اقتنع أنها لن تستطيع أن تساعده ولو بالرأي، وخاصةً بعد أن تعمَّق لديه هذا الإحساس الداخلي بأنها بالفعل سطحية التفكير، لا يهمها في الدنيا إلا أن تسأل عن ماذا سنأكل، أو أن تحكي له عن جارتها وأفعالها، أو الأولاد وشقاوتهم، وكأنها لا يعنيها أو لا تريد أن تري كم المعاناة التي يعيشها، وحجم التحديات التي يمر بها مِن أجل أن يوفر الحياة الكريمة لهذه الأسرة الصغيرة.

عندما يغلق باب الحوار بين شخصين فإن التواصل بينهما يتلاشى مع الوقت، خاصةً إذا أصبح مفهوم الحوار بينهما هو الخناق.. الشجار.. الصراخ.

ولكن الواقع يثبت أنه هو مَن فصَلها عن واقعه، وأبعدها عن دائرة مشكلاته وأموره الخاصة باختياره، فلم يصبح لديها أي وسيلة تواصل إلا أن تدخله مضطرة في دائرة واقعها، حتى ولو كانت هذه الدائرة قد أكدتْ إحساسه بالوحدة الفكرية، بل وزادتْ مسافة البُعد بينهما، وعمقتِ انفصالهما، ولكن يبدو أنه للأسف لم يكن هناك أي طريق آخر يمكن أن يسلكوه إلا هذا الطريق الذي يسيرون فيه سَوِيًّا بعد أن أعطى كل منهما ظهره للآخر متوحدًا مع فكره وقناعته.

إنه الحوار! عندما نفتقد الحوار، فإننا نفقد آليات التواصل مع الآخر، ونبدأ في العيش وسط جزر منعزلة لا يوجد عليها غيرنا، فنتخيل ردة فِعل مَن أمامنا، ونتخيَّل سِير الحوار، ونتخيَّل رفْضنا وقبولنا، ممَّا يُدخلنا في مشكلة أكبر متمثلةً في عدم قدرتنا على التحاور إذا بدأ الحوار، وهذه هي أكبر مشكلات آدم وحواء.

إنها تلك التابوهات التي نخلقها ونعيش بها وهي تتملكنا حتى تصبح إطارًا يفرض نفسه على كل الصور التي نمتلكها، ليحدد أبعادها، ويلون أطرافها، حتى يطغى الإطار على اللوحة فتصبح اللوحة جزءًا مِن الإطار بدلًا مِن أن يكون الإطار إضافة للوحة.

سنين طويلة عاشها مع زوجته ومحبوبته، وقد اعتاد على ألا يشركها في حياته بسبب هذه الصورة التي تكونتْ لديه، غافلًا أنها لم تكن تفعل هذا إلا بدافع الانبهار بشخصيته التي لم تدرك حينها تفاصيلها ورتوشها، فلم تعِ أن الثمن سيكون باهظًا هكذا.

كانت تصدق أن هذا الرجل هو الشخص المناسب لكي تكمل معه حياتها، فاستسلمتْ لفكرة أنه هو الرجل المسئول الحكيم الذي كانت تطرب لكلماته، فلم تكن ترفضها حتى وإنِ اعترضتْ عليها، إلا إنها كانت دائمًا تقْبل ما يقبله، كما أنها كانت تستطيع وقتها أن تدفعه إلى قبول ما تقبله عندما تتحول إلى الأنثى التي كان يشتهيها، ومَن منَّا لم يشتهِ يومًا أنثاه؟!

تزوجها وهو يعلم أن أقصى ما يمكن أن يأخذه منها إذا ما ألَمَّتْ به مشكلة، أو تعقَّدتْ أمور حياته، هو في أن توافقه على ما سيقرره؛ لأنها لم تكن تشترك معه في التقرير، ولكنها كانت تشاركه القرار بالموافقة الضمنية فقط.

تزوجها وهو يعلم أنه تزوج أنثى كانت تلهب مشاعره، وامرأة كانت تشعره برجولته عندما كانت تضع ثقتها كلها فيه وهي توافقه على أفكاره وكلماته وأفعاله.

تزوجها وهو يعلم أن دورها في حياته لن يزيد عن كونها أنثاه التي قد تصبح أم أولاده، فدقَّق الاختيار حتى يحصل لأولاده على أم مسئولة تستطيع تربيتهم كما يتخيل، ونسي أنه كان يبحث في الأساس عن شريكة لحياته تشاركه همومه قبل فرحه، وتشترك معه في اتخاذ القرار لا في تنفيذه فقط.

لقد بدأ الانفصال بينهما مباشرة بعد انتهاء نشوة الزواج؛ حيث تشكلتِ الصورة التي يعيشان بها إلى يومنا هذا، وها هما يعانيان آثارها، ويتعذبان بما لا يقبلانه، ولكنهما لا يستطيعان تغييره بعد أن انعدمتْ بينهما كل وسائل الحوار.

أما هي فقد كان الإطار الذي وضعتْ فيه صورته أصغر بكثير مِن مساحة الصورة نفسها، حتى أفسد الإطار معالم هذه الصورة. لقد عاشت مرحلة ما قبل الزواج وهي تغرقه بالرومانسية والأمل والمرح متخيلةً أن الحياة ستسير دومًا هكذا، وأن المشكلات لن تحل إلا بهذه الرومانسية وبالحب الذي يظلل قلبيهما.

عاشت هذه المرحلة وقد اعتقدتْ أن كل مشكلاتهما ستنتهي بمجرد أن تنظر إلى عينيه، وهي تغرقه بنظرات الحب التي ستصيب قلبه، فيسقط في قبضتها، ويقبل منها كل ما يرضيها، فأغفلتْ حقيقة أن لكل مرحلة احتياجات تتبدل للأسف بتعاقب المراحل.. فهكذا هي الحياة للأسف، لا ولم ولن تسير على وتيرة واحدة أبدًا.

مرَّتْ به كل هذه الذكريات، ورأى في لحظة كل ما حاول جاهدًا ألا يراه طوال سني زواجهما، فشعر لأول مرة أنه قد أخطأ عندما لم يعطِها الفرصة لتثبت عكس الصورة التي تكونتْ لديه عندما كان غارقًا في رومانسية العلاقة، ولم يكن هناك مجال لاختبار قدراتها كإنسان؛ لأن اهتمامها قد انصبَّ في الأساس على اختبار قوة عواطفهما التي ستصل بهما إلى حيث يريدان.

قام مِن كرسيِّه، وتحرَّك متجهًا إلى الغرفة؛ حيث جلستْ تبكي كالطفل وقد أخذوا منه لعبته، ومنعوه مِن الصراخ أو حتى المطالبة برجوعها، فلم تجد أمامها إلا أن تبكي في صمت موجع؛ لعلها تستطيع أن تفرغ ما بها مِن طاقة حزن مدمِّر.

دخل عليها ونظر في عينيها، فلم يستطع أن يرى إلا قطرة كبيرة مِن الدموع غطَّتْ كل حدقتها، فلم يعد يظهر منها إلا صورة سراب لا ينبئ عن حقيقة، ولا يعطي إشارة إلا إلى وهم.

اقترب منها، وضمَّها إلى صدره، فشعر برعشتها بين ضلوعه، كالطير لم يعد يقوى على الطيران، فاستسلم لقبضة اليد التي أطبقتْ عليه في انتظار أن تعتصره وتنهي حياته، فتحرره مِن إحساسه بالعجز عن أن يطير ويحلق كما اعتاد.

ضمَّها بشدة إليه حتى تستطيع أن تستمع لنبضات قلبه؛ لعلها تعلم مقدار الحزن الذي يتملكه، والخوف الذي يعيشه مِن غدٍ لا يعلم بما سيأتيه.

كان في أشد الحاجة إلى أن يسمع منها كلمة تقوّيه على خوفه، ولكنها لم تكن تقوى على أن تنطق؛ لأنها كانت هي الأخرى في أمسِّ الحاجة لأن ترى منه ما يطمئنها إلى أن رجُلها لا يزال هو رجلها، وأنه لم ولن يشاركها فيه إمرأة أخرى.

التصق جسداهما حتى ذابا في بعضهما في شعور لم يجرباه مِن قبل، سكتتْ أصواتهما، وخيَّم الصمت على المكان، فلم يعودا يسمعان إلا نبض قلبيهما يهمسان بمكنون حزنهما الذي لم يستطيعا طيلة عمرهما معًا أن يبوحا به.

تكلَّم قلباهما إلى بعضهما، وباحا بأسرار خوفهما لأول مرة في حوار طويل بين نبضات قلبين، أحدهما يشعر بالخوف مِن الغد، والآخر يشعر بانعدام الأمان، فكان الحوار الذي كان يجب أن يبدأ منذ زمن، ولكنهما انشغلا عن تحاورهما بما تخيل كل منهما أنه مسئوليته تجاه الأسرة، متناسيَيْن مسئولياتهما تجاه حبهما.

- نظر إلى عينيها، وقال لها: أحبك.
- دمعتْ عيناها وهي تقول له: وأنا ماليش غيرك.

لم يكملا حديث العقل، ولكنهما تركا قلبيهما يبوحان بمكنون آلامهما عندما دخل جسدهما في صراع، ليصل بهما إلى مرحلة الهدوء النفسي والسلام العاطفي الذي يهدئ مِن ثورتهما، ولكن هذه المرة كان الصراع غير كل مرة؛ لأن كلًّا منهما كان ينتظر أن يبدأ الآخر الحوار الذي انتظراه لسنوات طويلة... فمتى سيبدأ الحوار؟

التفاحة

ماذا تريد حواء؟ هل هناك إنسان على كوكب الأرض يستطيع أن يخبر عمَّا تريد حواء؟

أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يضاف إلى المستحيلات الثلاثة، لتصبح المستحيلات أربعة: الغول، والعنقاء، والخلّ الوفي، ومعرفة ماذا يدور في عقل حواء.

عندما يشتد بنا الصداع، ونصبح في حيرة مِن أمرنا عن سبب هذا الصداع الذي لا ينفع معه دواء، ولا تستقيم معه حياة، فإن أحسن شيء يمكن عمله هو أن نقوم بربْط دماغنا مع تناول حبتين بنادول، وأن نتجه إلى السرير لنسبح في بحر النوم.

هذا هو ما حدث معي بعد مشادَّة طبيعية لا بديهية تدور كل يوم بين أي آدم وأي حواء حول الرجل الذي يتصور نفسه رجلًا، والسِّتِّ التي قررتْ أنها لن تصبح ضعيفة بعد اليوم، فتطلق التحدي الذي اعتاد عليه كل الرجال:

- لو كنت راجل بجد.. اتفضَّل وريني حتعمل إيه ...!!

إنه هذا الحديث الذي لا ينتهي بين الرجل والمرأة، والذي ينتهي في المعتاد بالمرأة وهي تخرج مِن الغرفة تتمتم بكلمات أعتقد أنها شتيمة باللغة الفينيقية القديمة، والرجل يمسك بدماغه وهو يتحسبن على هذه المرأة التي لا تستطيع أن تقدِّر تعبه ومجهوده، فيمسك بدماغه ليشتكي الصداع، ويلقي برأسه على المخدة في محاولة منه للنوم؛ لعل الصداع يختفي، ولكن

الصداع للأسف لا يختفي، لقد خرج فقط مِن الغرفة، ولكن صوته لا زال يأتي خافتًا بهذه اللغة الفينيقية القديمة بكلمات لا يفهمها، فلا يجد حلًّا إلا أن يغلق باب الغرفة، ويحاول النوم هربًا مِن الصداع، وحتى لا يشغل باله بالبحث عن معاني هذه الكلمات الفينيقية التي لو فهمها فإنه لن يستطيع أبدًا أن يركن إلى المقولة التي كانت دومًا تهدِّئ مِن غضبه بأنهن ناقصات عقل ودين.

كان هذا هو حالي عندما استسلمتُ للنوم في إحدى هذه المرات، وبعد مشادَّة معتادة؛ حيث سمعتُ العديد مِن هذه الكلمات غير المفهومة، مثل: طب تتنيل على الليبي جابيتوو، ولكنني قررتُ ألا أتجوجل لأفهم معاني هذه الكلمات، وأن أحاول النوم حيث أستطيع أن أعيش في أحلامي مع الواقع الذي طالما أردتُّه وحلمتُ به، لا الواقع الذي أحياه بكل تفاصيله وأوجاعه، فَنِمْتُ.

وبطبيعة الحال عندما ننام ونحن على حالة ما.. سواء مِن الرضا أو عدمه، فإن الأحلام تبدأ بمهاجمتنا بناءً على حالتنا التي نِمْنا عليها، بحيث تبدأ مِن كونها أحلامًا بسيطة تجسِّد واقعنا الذي نعيشه أو الذي نتمناه، وتنتهي بكونها كوابيس تجسِّد حالنا الذي لا نرضاه، وواقعنا الذي نحاول الهرب منه، فكان الحلم الذي أخبرني عن واقعي الذي لا أرضاه، كما أنني لا أستطيع أيضًا الهرب منه للأسف.

لا أعلم لماذا رأيتُني بشخصي أعيش تجربة أبينا آدم أمرح وألهو في الجنة مع حوائي، نأكل ممَّا نشتهيه، ونطلب فتجاب طلباتنا، ونتمنَّى فنجد ما نتمنَّاه؟

وجدتني على شاكلة أبي آدم، أعيش في الجنة أنا وحوائي فقط، وجنتنا كلها ملكنا – ولا حدّ تالتنا على رأي الفنان فريد الأطرش – ويا له مِن إحساس عندما تشعر أن الدنيا كلها ملكك أنت وامرأتك ولا أحد غيركما!

يا له مِن إحساس عندما تشعر أنك تستطيع أن تلبي كل طلباتك وأوامر امرأتك بمجرد التمني.

رأيتني وأنا أجلس وبجانبي حوَّائي وهي تقول لي:

- أدومتي.. عايزة مِن المانجة دي.
- بس كدة.. إنتِ تُؤمري يا حياتي.. مانجة.. فتقع المانجة في يدي، وأقدِّمها لها.
- إيه ده يا دودو؟ هو أنا حاكلها إزاي كدة؟ قشرهالي أحسن توسَّخ ورق الشجر اللي أنا لابساه ده.
- بس كدة؟ عينية.. مانجة متقشرة، فتقع في يدي مانجة متقشرة جاهزة، وأقوم بوضعها في فمها قطعة قطعة.

إحساس غير طبيعي عندما شعرتُ أنني آدم في الجنة، وأنني أستطيع أن أفعل أي شيء تريده حوائي بمجرد الطلب، كان كل ما تفعله هي أن تتمنى ما تريده، وكل ما أفعله أنا هو أن أطلب ما تريده هي، فيأتيني ما طلبته؛ لأحقق لها ما تتمناه.

إنه بالفعل إحساس جميل، وطبَّعا حياة جميلة، وراحة بال لا توصف، لا تحدث فقط إلا في الأحلام.

فليس أجمل ولا أحلى مِن حواء يبتغيها آدم، تجلس لتتدلل عليه وتتمنى ليأتي لها بما تتمناه، حتى ينال كل مبتغاه مِن السعادة.

يا ألله، نعم.. كانت هذه هي الجنة التي رأيتُها في حلمي، ولكن مِن المؤكد أن هذه هي الجنة التي سندخلها يومًا ما لنجد كل ما نشتهيه يأتينا بمجرد تمنّينا له، اللهم لا تحرمنا الجنة يا رب!

المهم أنني عشتُ في حلمي أوقاتًا مِن السعادة التي لا توصف مع حوائي التي كانت تطلب أي شيء تتمناه، وكنت أحققه لها فقط بأن أصدر أمرًا فيأتيني مبتغاها على طبق مِن ذهب، ولكن الحلم الجميل السعيد لم يدُمْ طويلًا.

في لحظة وجدتُّ حوَّائي تنظر إليَّ وهي تقول بمنتهى الجدية:

- حواء : أنا عايزة تفاحة.
- فرددتُّ عليها بمنتهى الحب: عينية يا حبيبتي.. تفاحة.
- حواء : لأ بقى.. هو إيه ده؟
- أدم : فيه إيه يا حبيبتي بس؟ ما أنا طلبتلك التفاحة أهوه!
- حواء : لأ مش كدة، اتحرك شوية، ما أنا ممكن أطلب اللي أنا عايزاه وحيجيني لغاية عندي برضه!
- أدم : طب ليه بس التعب بس يا وحوحتي؟ ما هو اللي إحنا عايزينه بييجي لغاية عندنا ومِن غير ما نتحرك مِن مكاننا!
- حواء : لأ يا أدومتي، أنا عايزة أحس إنك بتتعب علشاني، أنا عايزة أحسّ إني معايا راجل مش طلابة بالكهربا!
- أدم : يادي النيلة، ياستي ما أنا بجيبلك أهو كل اللي إنتِ عايزاه، ولا هو يعني تعب وخلاص؟!
- حواء : لأ مليش دعوة، قوم إنت هاتلي التفاحة اللي أنا عايزاها، مليش دعوة!
- أدم : يا حياتي الشجرة بعيدة في الآخر.. طب أجيبلك برقوق أهوه جنبنا.
- حواء : لأ.. تفاح يا أدومتي.
- أدم : طب حأقولك.. خدي السفندييايا دي دلوقتي، وأبقى أجيبلك التفاحة بعد شوية لما أقوم أتمشَّى.
- حواء : أنا قلت لأ، أنا عايزة تفاحة.. ودلوقتي.

- أدم : هو إيه تنشيف الدماغ ده؟ طب مش حقوم دلوقتي يا حوا، واسْتنِّي شوية، يا إما اطلبي اللي إنتِ عايزاه بنفسك.
- حواء : بقى كدة! عمومًا أنا أقدر أطلب اللي أنا عايزاه فعلًا، وحايجيلي على فكرة، وإنتَ كمان ابقى اطلب اللي إنتَ عايزُه، وشوف حايجيلك إزاي يا سبع.
- أدم : الله.. الله.. ليه كده بس ياوحوحتي؟ ده إنتِ حبيبتي، ده أنا لو عليَّ حأجيبلك الشجرة كلها لحد عندك مش تفاحة واحدة بس.
- حواء : لأ إنتَ ماعدتِّش بتحبني زي الأول، إنتَ بقيت مستهتر بيَّ وبطلباتي، وعايز كل حاجة تجيلك على الجاهز.
- أدم : أبدًا يا حياتي، بس طالما عندنا الأوبشن ده فليه مانستخدمهوش؟
- حواء : يا أدومتي يا حبيبي، أنا عايزة أحس إني مع راجل حاميني وحاضنني، وبيتعب عشاني، مش عايشة مع جنِّي المصباح اللي كل ما أطلب طلب يقوم مصقف بإيديه ويندَهْ على اللي أنا عايزاه فيجيني، دي حاجة مقرفة جدًّا، أنا كدة مش حاسَّة إنك بتتعب عشاني.
- أدم : لا حول ولا قوة إلا بالله، صحيح الإنسان مَيملاش عينه إلا التراب.
- حواء : بتقول إيه؟!
- أدم : لا أبدًا يا حبيبتي، دي كانت شرقة وراحت.
- حواء : شرقة بالفينيقية، ماشي يا دمدوم حعدِّيها، قوم بقى هات التفاحة.
- أدم : حاضر.. ربنا على المفتري.
- حواء : بتقول حاجة؟!
- أدم : أبدًا.. بقول حاضر.. لو ملقيتش حشْتري.
- حواء : أوكيه يا دمدومتي، ماتغبْش عليَّ.

لا أعلم لماذا استسلم أبونا آدم لطلب أمِّنا حواء عندما طلبتْ منه التفاحة المحرمة؟

لا أعلم كيف استطاعت حواء أن تقنع آدم بأن يفعل ما تريده وأن تجعله يخالف عهده مع الله سبحانه وتعالى؟

ولكن السؤال الأكثر أهمية ليس عن استسلام آدم لطلب حواء، بل يبقى السؤال الأكثر تعقيدًا هو في كيفية استسلام حواء نفسها لهذه الرغبة، وهي تعلم أن العقاب واقع لا محالة.

أنا هنا لاأناقش قضية دينية أو مسألة إيمانية لأن القرآن يخبرنا أن الله قد نهاهما سويًّا عن أن يقربا هذه الشجرة، ولم يكن النهي لآدم فقط، بل لكليهما. ولكنني فقط أتعرض للفكرة الإنسانية السائدة من أن حواء هي من أخرجت أدم من الجنة.

إذا كانت حواء تعلم مغبة طلبها، فكيف استسلمتْ لشهوة التفاحة؟ هذا هو السؤال!

لماذا وقعت حواء في هذا الفخ لتطلب تفاحة، فقط تفاحة بعينها دون باقي النعم التي حولها، لتفقد معها الجنة بكل ما فيها مِن نعيم؟

قد أتفهم موقف آدم – مِن منظور حسِّيّ بشري خالص – حيث إنه لم يكن يوجد حوله إلا حواء واحدة تلبي احتياجاته الفسيولوجية، فكان لزامًا عليه دومًا أن يحاول بشكل أو بآخر أن يسترضيها، وهو ما قد يوضح – وإن كان لا يبرر – سبب خطأ أي آدم بقبول طلب حواء واستسلامه لشهوة دنيوية، وذلك مِن منظور بشري خالص، ولكن يبقى دومًا السؤال المحير:

لماذا وافقتْ حواء على أن تقايض جنتها وجنة آدم بتفاحة مثلها مثل أي فاكهة أخرى؟

بل إنني أعتقد أنه كان هناك أيضًا تفاح مماثل على شجرة أخرى مشابهة، ولكن حواء أرادت هذه التفاحة بعينها مِن هذه الشجرة خصيصًا في هذا التوقيت تحديدًا، كنوع مِن الإثبات العيني والمادي والمعنوي بأن آدم يفضِّلها على الجنة وما فيها، حتى وإن أخبرتْنا السير والروايات عن وسوسة إبليس لهما سويًا بأن هذه الشجرة هي شجرة الخلد، وهو ما لا ننكره مِن أصول وعلوم الدين، ولا نناقشه من الأساس، ولكنني هنا أتحدث مِن منظور حسيّ بشري خالص كما أسلفت، ليبقى دومًا ذلك السؤال البشري ذو المدلول الحسي الخالص عن كيفية استسلام حواء وآدم لوسوسة إبليس، بينما هما يعيشان بالفعل في الجنة، ويأكلان مِن نعيمها، فما الذي جعلهما يتشككان في عطاء الخالق ووعده الذي يعيشانه فعليًّا، ويحكِّمان عقليهما في كلام مستقبلي ليس له أي ضمان؟ خاصة وأنه كان معلوم لهما يقينًا أن هذا المخلوق هو العدو الذي لا ولن يريد لهما صلاحًا أبدًا.

أعتقد – ولا زال الكلام من منظوري البشري الحسي الخالص – أن حواء لم تستجب لإبليس بدافع تصديق وعده بالخلود، لعلمها المسبق بالعداء الذي نصبه إبليس لآدم وبَنِيه، ولكن هل يمكن تخيل أنها قد استسلمتْ لرغبتها الدفينة في معرفة مقدار حب آدم لها، واستعداده للتضحية بكل نفيس وغالٍ في سبيل إرضائها، وتحقيق كل متطلباتها بغض النظر عن فداحة الثمن، لهذا وجدتْ مِن الخلود حجة تمكنها مِن الوصول إلى هدفها، خاصةً في ظل عدم وجود أي ثمن آخر يمكن لآدم أن يقدمه لها كإثبات لحبه لها إلا الجنة ذاتها للأسف.

والعجيب في الأمر أن أمنا حواء قد تركتْ لبنات جنسها هذا الإرث الثقافي مِن حب المغامرة بكل شيء وبأي شيء ... فقط مِن أجل التأكد مِن قيمتها عند آدم، ومِن استعداده لأن يترك الدنيا وما فيها مِن أجل إرضائها؛ حتى يثبت لها أنها وحدها تساوي عنده الدنيا بكل ما فيها.

إنها هذه النزعة الأنثوية التي تجعل حواء تقبل المقامرة والمغامرة بكل شيء مِن أجل إثبات أفضليتها في حياة آدم، حتى ولو كان الثمن هو آدم نفسه!

الاختلاف!

يخطئ كل مَن يتصور أن عقل آدم يماثل عقل حواء في التكوين، حتى ولو أثبت علم التشريح ذلك، فالتشابه الشكلي لا يعني على الإطلاق الشبه في الفاعلية التشغيلية؛ لأن الطريقة التي يعمل بها عقل آدم تختلف تمامًا وكلية عن الطريقة التي يعمل بها عقل حواء.

إن مَن ينظر إلى الطريقة التي يفكر بها آدم ويدير بها حياته يتأكد أن عقل آدم هو عبارة عن صندوق كبير كصندوق ألعاب الأطفال الذي يحتوي في داخله مجموعة ضخمة مِن المكعبات الصغيرة التي يتمُّ استخدامها بشكل منفصل تمامًا عن بعضها البعض، فعندما يذهب آدم إلى العمل، فإنه يبدأ في فتح مكعب العمل داخل عقله والبحث عن الأمور المتعلقة فقط بالعمل، بينما تظل كافة المكعبات المتعلقة بكل نواحي الحياة الأخرى مغلقة ومرتَّبة داخل الصندوق الكبير الذي يحويها جميعًا حتى يتمَّ فتْحها كلٌّ في حينه.

والأمر لن يختلف عندما يذهب للعب الورق مع أصحابه، أو يجلس لمشاهدة مباراة في التليفزيون، أو عندما يساعد الأولاد في عمل مشروع خاص بالدراسة، أو عندما يقرر أن يأخذ العائلة إلى نزهة يوم عطلة، فتظهر حماسته أثناء عرض الاقتراحات، وكأنها أول رحلة يقوم بها في حياته ينسى معها وبها أي شيء آخر.

فنجد الرجل دائمًا أشد حماسة وأكثر مرحًا عند مناقشة فكرة جديدة تستهويه، بينما نجد حواء وقد انشغل عقلها بالترتيب لهذا الأمر الذي أصبح

يستقبل ألف سؤال وسؤال لم يمرّ أحدها على عقل آدم الذي يعيش لحظتها داخل مكعب النشوة بالفكرة الجديدة فقط.

هكذا هو آدم، وهكذا هي طبيعة تكوين عقله الذي يشبه طبق السلطة الخضراء الطازجة؛ حيث تجتمع كل المكونات بشكل منفصل تمامًا عن بعضها البعض، لتكوّن في مجموعها طبقًا شهيًّا لا نشعر بحلاوته إلا إذا تناولناه مجتمعًا مع بعض (الدريسينج).

ولكن تبقى مشكلة آدم الكبرى دائمًا في أن فساد عنصر واحد فقط، يستتبعه فساد الطبق كله، وهذه للأسف هي ميزة وعيب عقل آدم في ذات الوقت.

أما عقل حواء، فهو على النقيض تمامًا مِن عقل آدم، حيث يشبه كأس عصير كوكتيل الفواكه، وقد اختلطتْ فيه كل المكونات، ما نعرفها وما لا نعرفها، ما نتوقعها وما لا نتوقعها، ما نريدها وما لا نريدها، كل المكونات قد تمَّ خلْطها سَوِيًّا بِنِسَب مختلفة، وبمكونات مختلفة، وبإضافات مختلفة، ليتمَّ تقديمها لنا في شكل كوب مِن عصير الكوكتيل الذي إما أن نعجب بطعمه وشكله وألوانه ومظهره، بغض النظر عن فهْمنا أو قبولنا لمكوناته، أو ألا نعجب به مِن الأساس، ونبدأ في البحث عن كوب كوكتيل آخر.

وعلى عكس عقل آدم، فإن عقل حواء الكوكتيلي يعمل كوحدة واحدة غير منفصلة، ولا يفسده أبدًا فساد إحدى مكوناته؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدرك مكونات هذا الكوكتيل مِن الأساس.

فالعجيب في عقل حواء أنه يعمل على النقيض تمامًا مِن عقل آدم؛ بحيث إن فساد أي عنصر مِن عناصر هذا الكوكتيل لا يعني فساد الكوكتيل نفسه؛ لأنه في النهاية ما نستطعمه ونتذوقه هو طعم الكوكتيل بغض النظر

عن مكوناته، بل إنه قد يكون مِن المستحيل عمليًّا أن نستطعم أي مكون مِن مكوِّنات الكوكتيل بشكل منفصل مهما أوتينا مِن قدرات تحليلية معملية فذة.

وبينما تستطيع حواء أن ترى مِن آدم كل مواقفه بشكل منفصل تمامًا واضح وضوح الشمس، مهما حاول آدم أن يتذاكى ويستتر ويخفي تصرفاته، إلا إن حواء تستطيع أن ترى آدم بكل تفاصيله وبكل مكوناته؛ حيث إنها تستطيع أن ترى الطماطم بجوار الخيار بجوار الجرجير بجوار البصل، بل وتستطيع أن تميز كلًّا منهم بمنتهى الدقة قبل أن تقرر إعجابها بطبق السلطة.

وعلى العكس، فإن آدم لا يمكنه أبدًا إلا أن يبدي إعجابه بكوب الكوكتيل الذي أمامه كما هو، بغض النظر عن جهْله بمكوناته التي لا ولن يعلمها مهما حاول واجتهد، ليس عن ضعف قدراته التحليلية، ولكن لأنه منطقيًّا لا يمكن أبدًا أن نعلم مكونات الكوكتيل بعد خلطه، وإن كان يمكن لآدم بطبيعة الحال اللجوء إلى التوقعات والاجتهادات والآمال والأمنيات في أن تناسب مكونات كوكتيل حواء توقعاته.

فإن كان عقل آدم هو كصندوق ألعاب الأطفال الذي يحوي كل الألعاب داخله التي لا ولن يمكن بحال مِن الأحوال استخدامها كلها مرة واحدة؛ لأن كلًّا منها يعمل بشكل مستقل ومنفصل، فإن عقل حواء هو أشبه بلوحة الاتصالات الإلكترونية التي تحتوي على ملايين الخلايا المتصلة ببعضها البعض في دائرة مغلقة، بحيث إنه إذا بدأت أي خلية منهم في العمل، فإنها تقوم تلقائيًّا بإعطاء إشارة العمل لباقي الخلايا التي تليها.

إن كل خلية داخل عقل حواء تحتوي على هذا الحساس (مركز الاستشعار) الذي نجده كنوع مِن الكماليات في السيارات الحديثة، والذي يخبرك عن

وجود ما قد تصطدم به بمجرد أن تحرك عصا المحرك، فإذا بك تسمع صوت ينبئك بوجود شيء ما قد يعيق حركتك، حتى وإن لم تكن تراه، إلا إن هذا الحساس دائمًا ما يطلق هذا الصوت بمجرد أن يستشعر نيتك للتحرك.. بيب.. بيييب بيييييب.

والمثير في هذا الأمر أن هذا الصوت يبدأ منخفضًا قبل أن يأخذ في التصاعد التدريجي كلما اقتربتَ مِن منطقة الخطر، هل جربتَ مرةً قيادة سيارة محاطة بكم لانهائي مِن هذا الحساس؟

هل جربتَ يومًا هذا الإحساس بأن أي حدث صغير يمر بك يرسم في مخيلتك آلاف الصور والتوقعات لما سيحدث غدًا وبعد غد والأسبوع التالي والعام القادم بمجرد أن تبدأ التفكير وقبل اتخاذ أي قرار؟ مأساة بكل المقاييس!

الأمر لا يحتاج إلا لأجزاء مِن الثانية حتى يتحول عقل حواء إلى متصفح جوجل الذي يعطي ملايين الروابط بمجرد البدء في البحث عن كلمة أو إشارة أو همسة أو لفتة، فنجدها وقد بدأتْ في تحليل المعطيات، ومراجعة الحسابات خلال أجزاء مِن أجزاء الثانية، وإعطاء الإنذار تلو الإنذار قبل أن يدرك آدم أنها تفكر، بل قبل أن تبدأ حواء في التحدث مع آدم مِن الأساس!

مسكينة حقًّا حواء عندما نتخيل كم الإنذارات التي يتلقاها عقلها بمجرد أن تبدأ في تناول أي موضوع مهما صغر، لتقوم أجهزة الاستشعار لديها بتحليل كل شيء وأي شيء يمكن أن يخطر ببالها يكون على علاقة بهذا الموضوع، وهو ما يجعل عقلها يعمل كإدارات الرقابة الإدارية التي تفتش عن الخبايا، وتجتهد في البحث عن غير المقصود قبل المقصود.

في لحظة يتحول عقل حواء إلى متصفح جوجل الذي يعطي ملايين الروابط بمجرد البدْء في البحث عن كلمة أو إشارة أو همسة أو لفتة، فنجدها وقد بدأتْ في تحليل المعطيات ومراجعة الحسابات خلال أجزاء مِن أجزاء الثانية، وإعطاء الإنذار تلو الإنذار قبل أن يدرك آدم أنها تفكر، بل قبل أن تبدأ حواء في التحدث مع آدم مِن الأساس!

ولكن لأن عقل آدم هو عقل أحادي التفكير، لا يرى مِن أي أمر إلا ما هو موجود فقط داخل الصندوق الخاص به، والذي يتجه نحوه بمجرد الاحتياج له، فإن آدم يتعجب جدًّا عندما يجد اتصالًا مِن حواء لتطلب منه المرور على ورشة صيانة الأجهزة المنزلية في طريق عودته مِن العمل لإحضار الخلاط الذي أرسله للإصلاح منذ أسبوع، ولم يأتِ به إلى الآن، وهو لا يدري ما الذي ذكَّرها بهذا الموضوع الآن، وما الذي جعل هذا الأمر مِن الأهمية بحيث تتصل وتؤكد طلبها بأن يحضره اليوم، وإن كان الأمر بهذه الأهمية فلماذا لم تكلف السائق بهذا الأمر؟ أو لماذا لم تتصل وقت خروجه مِن العمل حيث سيكون للاتصال معنًى وأثرٌ أكثر إيجابية.

هكذا قد يفكر آدم عندما تبدأ حواء في التواصل معه، وفتْح موضوعات محددة في أوقات غريبة جدًّا بالنسبة له، وهو لا يعلم لماذا يتم فتح هذا الموضوع تحديدًا الآن، وما الذي جعلها تتذكر هذا الأمر في هذا الوقت غير مهتمة بكونه منشغلًا بأمر ما قد لا يمكنه مِن تنفيذ طلبها.

ولكن يبدو أن حواء في قرارة نفسها تتمنى أن ينسى آدم أو يتناسى طلبها حتى يصبح طلبها – مجرد الطلب في حد ذاته – وسيلة تواصل يشعر معها آدم ببدء مسلسل النكد الذي يبدأ بالتساؤلات والافتراضات، وتخيُّل العواقب، وينتهي في المعتاد إما بالإضراب عن الكلام، أو بتصادم الكلمات مع ارتفاع في نبرة الحديث التي تصل إلى ما يشبه الصراخ المصحوب عادة بأصوات

وكلمات تنبئ المارَّة في الشارع أن هناك معركة كلامية قاربتْ على التحوُّل إلى موقعة حربية.

ولكن إذا علم آدم حقيقة الأمر مِن أن حواء لم تكن تفكر أساسًا في ردة فعله؛ لأنها لم تكن تفكر حرفيًّا في طلبها الذي طلبتْه منه، لشعر آدم بالكثير مِن الراحة، وعرف كيف يمكن التعامل مع حواء، وإن كنتُ لا أجزم أن هناك طريقة واضحة المعالم للتعامل مع حواء؛ لأن لكل حواء كُتَيِّبَ تعليماتٍ خاصٍّ بها يحتوي على مكونات هذا الكوكتيل الذي لا يمكن أن يتشابه أبدًا مع أي كوكتيل آخر، تمامًا مثل بصمة الأصابع التي لم ولن تتشابه منذ بدء الخلق مهما زادت أعداد البشرية، لأنه هكذا خلقها العزيز القدير متفردة في ذاتها، لا تتشابه أبدًا مع أي كائن ما كان، كما أنه مِن المؤكد أنه لا يمكن أبدًا استنساخها أيضًا.

إن حواء عندما قامت بالاتصال بآدم، لم تتصل لأنها تذكرتْ هذا الأمر تحديدًا، ولكن القصة بدأت عندما استيقظتْ صباح هذا اليوم، وأثناء تحضيرها كوب القهوة المعتاد بدأتْ في التفكير في الأولاد، وأن اليوم هو ميعاد الدرس الأسبوعي؛ حيث سيجلس الولد والمدرس في حجرة الصالون، وهو ما يستدعي منها تصليح جهاز التكييف، فقامت بالاتصال بشركة الصيانة، واتَّفقتْ معهم على إرسال السائق ليأتي بهم قبل وقت الظهيرة.

وبعدها بدأتْ في التفكير فيما ستقدمه للمدرس، وأنه يجب عليها شراء بعض الحلويات والعصائر، ولكن لأن الأسبوع الماضي حدثتْ مشادة بينها وبين آدم بخصوص المصروف، وعدم قدرتها على السيطرة على مصروفات البيت التي تتزايد يومًا بعد يوم، فقد قررتْ أن تقوم بعمل بعض العصائر وإعداد الحلويات في البيت بدلًا مِن شرائها حتى تُشعِر آدم بدورها في تحمل مسئولية البيت معه، وحتى لا يحدث مشادَّة كالتي حدثتِ الأسبوع الماضي،

فتذكرتْ أمر الخلاط الذي تم إرساله الأسبوع الماضي لشركة الصيانة، ولم يأتِ به آدم حتى الآن، فكان الاتصال ليتِمَّ تذكيره بما عليه عمله.

إن اتصال حواء لم يكن يعني أبدًا عدم تقديرها لعمل آدم وانشغاله، بل كان – مِن وجهة نظرها بالطبع – قمة التقدير لتعب آدم، وتحمُّله لمسئولية البيت، وإثبات مشاركتها له حتى وإن لم يرَ آدم كل ذلك بسبب طبيعة عقله أحادي التفكير.

لقد كان اتصالها يعني أنها لا تريد أن تدخل في صراع مثل الأسبوع الماضي، وأنها تقدِّر تعبه ومجهوده، بل وإنها تشاركه همومه، وها هي تقوم بتقليص المصروفات عن طريق قيامها بإعداد العصائر والحلويات في البيت بدلًا مِن شرائها.

ولكن بطبيعة الحال لأن آدم بمجرد أن تبدأ حواء في طلب شيء فإنه مباشرة يبدأ في فتْح صندوق الطلبات في عقله؛ حيث يتذكر فقط كيف أنها تعودتْ على طلب أشياء محددة في أوقات معينة، ولا يعنيها إن كان مشغولًا من عدمه، فيبدأ عقله مباشرة في التذمر، بحيث يرفض أن يتحدث إليها إلا ببضع كلمات لا توضح إلا تذمره مِن طلباتها، والتي تتحول عند حواء إلى عدم رغبته في التحدث معها؛ لأنه لم يعد يحبها، أو لأنه قد أصبح مشغولًا بأحد آخر!

- حواء : متنساش وإنتَ جاي تعدِّي على الصيانة تجيب الخلاط معاك بعد الشغل، ده بقاله أسبوع وأنا محتاجاه ضروري.
- آدم : إن شاء الله.
- حواء : اوعى تنسى.. أنا محتاجاه ضروري مِن فضلك.
- أدم : يا ستي قولتلك إن شاء الله مش حنسَى.
- حواء : ما أنا عارفة إن شاء الله بتاعتك دي، هو أنا عبيطة عنك!

- أدم : لا حول ولا قوة إلا بالله!
- حواء : أيوه، أول ما تزنق تستشيخ.
- أدم : أيوه... بدال ما أكفر، لا إله إلا الله!
- حواء : هو إنتَ بتتلكك؟ أنا محتاجة الخلاط ضروري علشان الولاد عندهم درس النهاردة، وعايزة أعمل حاجة أقدمها للمدرس.
- أدم : ياستي خلاص.. حأبقى أعدِّي وأجيبه، ولو أني مش فاهم ليه متبعتيش السواق بدال ما هو متلقَّح عندك؟
- حواء : ما هو إنتَ ولا إنتَ هنا أساسًا! السواق مش متلقح عندي ولا حاجة، بعتُّه يجيب عمال الصيانة علشان يصلحوا التكييف اللي بقاله أسبوع بايظ، ولا عايزني يعني أقعَّد المدرس في البلكونة؟
- أدم : خلاص يا ستي أبوس إيديكي بقى اعتقيني، حعَدِّي والله وأجيب لك الخلاط، سيبيني أخلَّص شغلي بقى!
- حواء : هو أنا ما أعرفش أتكلم معاك أبدًا، أووووف! دي حاجة تقرف! باي.

طبعًا آدم لم يفهم في الأساس أن حواء عندما اتصلتْ وطلبتْ منه ما طلبتْ فإنها لم تكن تعني أبدًا في الأساس بطلب إحضار الخلاط، ولكنها كانت تقصد أن تفتح الموضوع حتى يسألها آدم لماذا تحتاجه، فتحكي له عن الدرس، فيتطرق الحديث إلى أنه ظلمها في حديثه الأسبوع الماضي عندما اتَّهمها أنها لا تهتم لمعاناته، وأنها تثبت له الآن أنها بالفعل تساعده في توفير المصروف عن طريق تحضير العصائر والحلويات في المنزل بدلًا مِن شرائها.

طبعا لا يمكن لآدم أن يتخيل كل هذا الحوار الذي كان يدور في رأس حواء أثناء مكالمة تليفونية مدتها لم تتجاوز الدقيقتين، ولكن أحداثها التي تدور في رأس حواء مدتها شهور طويلة.

لهذا أعود وأتساءل جديًّا الآن: ماذا كان يدور في رأس أمّنا حواء عندما طلبتْ مِن أبينا آدم أن يحضر لها التفاحة؟ ما الأحداث التي مرَّتْ بعقلها قبل أن تطلب هذا الطلب الذي تعلم تمام العلم ودون أي مجال لأي نوع مِن الالتباس أن طلبها هذا سيكلفهم الجنة ونعيمها؟ هل حدث مِن آدم ما جعلها تتشكك في حبه لها؟ أم أنه حِس المقامرة الذي ولدت به فجعلها تقامر بكل ما في أيديهم مِن الجنة ونعيمها مِن أجل أن تتحقق مِن أن شكوكها ليست إلا شكوكًا، وأن آدم سيضحّي حقًّا بالجنة وما فيها مِن أجل إرضائها؟

هل يمكن القول أن آدم هو المسكين لاضطراره التعايش مع عقل حواء الذي يحوي كل هذه التعقيدات والتفصيلات؟ أم أن حواء هي المسكينة لأن عليها التعايش مع كل هذه الإنذارات التي تحيل حياتها إلى جحيم حقيقي تملؤه أحداث الأمس التي لا تفارقها مهما مرَّ عليها مِن الوقت وهي تزرع الشكوك في كل ما يدور حولها ليتولد الخوف مِن الغد الذي يجعلها تُقبِل على المقامرة بكل شيء مِن أجل شيء واحد يدور بعقلها لا ولن يعلمه أبدًا آدم، ولكنه مضطر إلى أن يتعايش مع كل هذا طالما أراد أن يكون له حواء.

مَن مِنَّا هو المسكين حقًّا؟ سؤال لن أستطيع الإجابة عنه، وسأترك الحكم للقارئ ليقرر كل منكم ماذا؟ وكيف يرى ما يرى؟

القدَر

ليلة الميلاد

لم يكن يعلم يوم قرر الارتباط بها أن حياته ستنقلب رأسًا على عقب، وأن كل مخططاته سوف تبوء بالفشل خلال هذه الفترة القصيرة جدًّا مِن بداية علاقتهما، وكأن الدهر كان له بالمرصاد.

جلس يتذكر هذا اليوم الذي قابلها فيه لأول مرة في موقع عملهما، ورآها وهي تتعامل مع كل مَن حولها مِن الرجال وكأنها رجل مفتول العضلات يهابه الجميع، ويخشون ثورته، ويتفادون الصدام معه؛ لأن الجميع كانوا يعلمون أنها إمرأة بألف رجل، أما هو فقد كان متأكدًا أن وراء هذه الشخصية الذكورية التي تظهرها أنثى مفعمة بالأنوثة، لا تحتاج لأكثر مِن رجل حقيقي يستطيع إن امتلك قلبها أن يفتح باب هذا القفص الذي حَبستْ فيه أنوثتها ليحررها، فينطلقا سَوِيًّا إلى حيث الجنة التي يريدها كل آدم مع حوائه، ولا تتمنَّاها حواء إلا في وجود آدمها.

تذكَّر يوم جلسا سَوِيًّا في مكتبها وهما يتناقشان في أحد أمور العمل، وإذا بالحديث يتطرق إلى بعض الأمور الشخصية التي لم يكن يتصور يومًا أنها ستتحدث معه فيها، إلا إنها انطلقتْ وتكلمتْ، وقامت بفتح الموضوع تلو الآخر حتى أخذهما الوقت، ولم يستطيعا أن ينهيا حديثهما الذي بدأاه، وكأنهما كانا في انتظار هذه الفرصة ليبدأ الحديث بينهما إلى حيث لا نهاية.

للحظة شعر أنه لا يجد ما يقوله عندما وقفتْ لتغادر، وكأن حديثهما قد استهلك كل مخزون الكلمات داخله، فلم يُبقِ كلمة كي تقال!

للحظة تمنَّى لو أنه يستطيع أن يوقف عقارب الساعة حتى يجد بعض الكلمات التي تمكنه مِن أن يطيل اللقاء ولو لبعض الدقائق، ولكن عقارب الساعة لم تكن لتتوقف لتنتظر الكلمات التي تبخرتْ مِن عقله، فلم يعد يجد ما يقوله.

أشاحت بيدها مودعة وهي تغادر المكتب، فشعر بدقات قلبه وهي تتصاعد محدثةً أصواتًا كتلك التي تصدر عن الغلاية قبيل لحظات مِن الانفجار.

لم يرِدْها أن تغادر، كما أنه لم يرِدْ لهذا اللقاء أن ينتهي، فأطلق يده كالرمح؛ لعلها تستطيع أن توقفها ولو لبعض دقائق أخرى.

لمستْ يده يدها في لحظة وداع مرَّتْ عليهما وكأنها عمر مضى بكل ما فيه مِن لحظات ترقُّب لعمر آتٍ، ولكنه لم يكن يحتاج إلى أكثر مِن هذه اللمسة لتعيد شحن بطاريات لسانه التي تمَّ تفريغها عندما لوَّحتْ له مغادرة، فإذا به يستجمع كل ما بقي له مِن قوة وهو يخبرها أنهم يجب أن يكملا هذا الحديث؛ لأنه لم يستمتع يومًا مثلما استمتع معها بهذه اللحظات.

ابتسمت وهي تخبره على استحياء أنها قد استمتعت أيضًا بحديثه، وأنها لم تكن تعرف أنه يتمتع بهذه الشخصية المرحة؛ لأنها تصورتْه دائمًا شخصية جادة قليل الضحك نظرًا لقسوته وشدَّته في عمله التي يخشاها الجميع.

نظر إليها مبتسمًا متسائلًا وهو يشيح بعينيه حتى لا تلتقي عيناهما إذا ما رفضتْ طلبه بأن يتقابلا اليوم مساءً إذا لم تكن مرتبطة بشيء، ولكنها فاجأتْه بالموافقة الفورية، وكأنها كانت في انتظار طلبه لتجيبه، أو كأنها كانت هي مَن دفعتْه ليطلب منها اللقاء، فسبقتْ إجابتها طلبه.

هل هو مَن أراد أن يطلب لقاءَها؟ أم أنها هي مَن دفعتْه ليبادر بطلبه أو على الأقل سمحتْ له أن يتشجع ويطلب منها ما لم يكن يتصور يومًا أنه

سيستطيع أن يطلبه؟ الأمر المؤكد أنه لم يعلم الإجابة؛ لأنه لم يسأل نفسه وقتها هذا السؤال.

وتقابلا، وجلسا يتحدثان في كل شيء يمر بخاطرهما، وكأنهما صديقان افترقا منذ زمن بعيد، ولكن لا يزال تجْمعهما ذكريات محفورة داخل عقلهما وقلبهما.

جلس أمامها وهو منبهر بجمالها الأنثوي الذي تخيَّله كثيرًا، ولكنه لم يره إلا اليوم فقط، ليؤكد له أن كل ما تخيَّله عن شخصيتها التي كانت تتعمد إخفاءَها هو حقيقة يثبتها هذا الفستان الأسود الضيق الذي أحاط بكل تفاصيل جسدها، فجعله صورة حية لما تعنيه كلمة أنثى بكل ما تحويه هذه الكلمة مِن معانٍ وتفاصيل وتخيلات.

جلس أمامها كالطفل الرضيع الذي تلقَّى أول هدية له في حياته، فجلس وهو يحاول أن يستكشف هديته، وهو لا يعلم إن كان يتوجب عليه أن يبدي فرحته بها، أم أن يحاول استكشاف مَواطن الجمال فيها.

أما هي فقد جلستْ تنصت لكل حركة يأتي بها، كل لفتة، كل همسة، بل إنها كانت تنصت إلى كل لحظة صمت تمرُّ بهما، لعلها تستطيع أن تستكشف هذا الرجل الذي حارتْ فيه وفي شخصيته مِن قبل أن تسمح لهما الظروف أن يطلقا العنان ليبوحا بمكنون مشاعرهما.

تحدَّث وتحدَّث، ولم يتوقف عن الحديث وهو يرى علامات الإعجاب بحديثه تملأ وجهها الذي كان يضيء كالقمر ليلة تمامه.

ظلَّ يتحدث وكأن بركانًا مِن الكلمات قد انفجر بداخله، ولم يعد هناك مَن يستطيع إيقافه خاصةً أنها كانت تجلس أمامه وهي تُبدي كل علامات الانبهار بكل كلمة يقولها، حتى تأكد لديه الإحساس أنها هي.. هي!

وانقضى أول لقاء لهما سَويًّا، ولكن تفاصيله ظلَّتْ عالقة بذاكرتهما، وكأنه ذكرى ليلة الميلاد التي تأتينا كل عام لتذكرنا بأننا وُلِدنا في هذا اليوم، وأننا نستحق أن نحتفل ويحتفل كل الناس مِن حولنا بهذه الليلة التي تمَّ الإعلان فيها عن قدومنا للحياة.

لقد كانت هذه الليلة هي ليلة ميلادهما التي لن يستطيع الزمان أن يمحوها مهما أتتْ ليالٍ أخرى؛ لأنه لا شيء يعادل ليلة الميلاد.

وتعددتِ اللقاءات في العمل، حيث كانا يتعمدان اختلاق الأسباب لكي يجتمعا، وكأنهما يتناقشان في أمور العمل، ولكن أمور العمل لم تكن إلا مدخلًا للحديث الذي لم يريدا إلا أن يبدأاه أيًّا كان الموضوع، وأيًّا كان الكلام الذي سيقال؛ لأنهما كانا يتحينان الفرصة لكي يجلسا إلى بعضهما البعض فقط.

ثم بدأتِ اللقاءات في مواقف السيارات؛ حيث اعتادا ألا يغادرا حتى يتأكد كل منهما أن الآخر قد غادر، فكانا يقضيان الكثير مِن الوقت داخل موقف السيارات وهما يتحادثان ويتعازمان مَن سَيخرج أولًا.

ورويدًا رويدًا تطوَّر الأمر، ليصبح هناك لقاءات أخرى بعد العمل، ثم اللقاءات التي أصبحتْ تلي لقاءات ما بعد العمل.

تعددت اللقاءات التي كانت تُقَرِّب مِن قلبيهما أكثر ممَّا قرَّبتْ مِن جسديهما؛ لأنهما لم يكونا منشغلين وقتها بلقاء الجسد بقدْر انشغالهما بتلاقي أرواحهما، وتقابل عقولهما حتى تشبع عيون كل منهما مِن الآخر، وتمتلئ آذانهما بالكلمات التي كانت تكتب سطورًا في قصة حب لم يقصدا يومًا كلمة واحدة منها، لأنهما لم يكونا أبدًا مهتمَّيْن بما تعنيه الكلمات بقدْر ما كانا مهتمَّيْن بإطلاق ما في صدورهما مِن هذه الكلمات لتتجمع معًا وهي تكتب

قصة حبهما في سطور بقيتْ محفورة داخل قلوبهما وعقولهما لا ولم ولن يمحوها انتهاء القصة نفسها حتى بعد أنِ انتهتْ.

حتى كان هذا اليوم الذي جلسا فيه في الحديقة يرقبان النجوم التي تتلألأ في السماء؛ لعلها ترسل لهما العلامات والإشارات التي تخبرهما أن ما تخفيه صدورهما قد فضحتْه عيونهما، لم يقاوما حبهما أكثر منِ ذلك، بل استسلما لإشارات النجوم، وسمحا لقلبيهما أن يتكلما ليبوحا بما عجز لسانهما عن النطق به:

- هو: عايز أقولك حاجة بس خايف.
- هي: وأنا عايزة أسمع منك حاجة برضه بس خايفة.
- هو : خايفة مِن إيه؟
- هي : خايفة أتوجِع مِن اللي إنت خايف تقوله!
- هو : شكلك عارفة أنا خايف مِن إيه.
- هي : شكلك خايف تقول إنت خايف مِن إيه.

نظرا سَوِيًا إلى السماء ليرقبا النجوم؛ لعلها تدلهما على طريقة ليكسرا بها حاجز الخوف الذي منعهما للحظات مِن أن يبوحا بما في قلبهما.

ظلَّا يحدقان في النجوم وهما يستجديان المَدد الذي سيعبر بهما هذا الحاجز مِن الخوف، ولم تخيب النجوم رجاءهما، فأرسلتْ لهما المَدد الذي أخرج الكلمات مِن أعماق قلبهما ووضعها على شفتيهما، فنطقتا:

- هو : لو قولتلِك بحبِك.. حتصدقيني؟
- هي : لو قولتلَك إني مصدقاك.. حتصدقني؟

دمعتْ عيناه فرحًا وهو ينظر إليها محاولًا أن يوقف عقارب الساعة عند هذه اللحظة التي انتظرها طويلاً حتى أتتْه مقبله ، فلم يعد يريد مِن الحياة

أكثر مِن ذلك؛ لأنه لا يوجد في الحياة شيء ذو قيمة أكثر مِن هذه الكلمات التي قالتْها لتؤكد له أن إحساسه كان صادقًا، وأنها هي المرأة التي طالما حلم بها، لا لتكون شريكته في الحياة، بل لتكون هي له كل الحياة التي لن يشاركه فيها أحد.

لم ينطقا كلمة واحدة بعدها.. نظر إلى عينيها، ومدَّ يده، فأمسك بيدها ليطبع عليها قبلة أفرغ بها كل مخزون المشاعر والأحاسيس داخله، فلم يعد في احتياج لأن يقول كلمة واحدة أخرى بعد ذلك.

قبَّل يدها قبلة طويلة، ونظر في عينيها وهو يحاول أن يسيطر على دموعه التي كانت تتصارع مع جفنيه حتى تطلق سراحها فرحًا، ولكن جفونه كانت لدموعه بالمرصاد، فحبستْها حتى منحتْه بعض الوقت لينسحب ويجلس وحده، لتنطلق دموعه معبرةً عن فرحته التي انتظرها طويلًا حتى أتتْه في هذه الليلة، إنها ليلة ليست ككل ليلة، إنها ليلة الميلاد.

يوم الميلاد

في اليوم التالي، دخل إلى مكتبه وهو يبحث عنها في كل مكان حتى وجدها، فوقف يرقبها، وينظر إليها طويلًا ليراها كما لم يرها مِن قبل ... تقابلت أعينهما، وتصافحتْ نظراتهما، ولكن لم ينطقا كلمة واحدة، واكتفيا بهذه النظرات المصحوبة بهذه الابتسامة العريضة التي تنبئ كل مَن ينظر لهما أن السعادة هي كائن حي يقطن هذا المكتب ... لقد كانا هما السعادة تمشي على قدمين.

وفور انتهاء موعد العمل خرج مسرعًا إلى موقف السيارات، ووقف أمام سيارتها حتى أقبلتْ، فاستجمع قوته وهو يطلب منها أن يتقابلا ولو لساعة مِن الزمان.. نظرتْ له ولم تجِبْه، ولكنها تحركت إلى سيارتها وهي تقول إنها في أشد الاحتياج الآن لكوب مِن القهوة، وأنها سَتَمُرُّ على المقهى القريب مِن العمل، فيومها كان فعلًا غير كل يوم.

وصلتْ ... جلستْ ... انتظرتْ حتى لحقها، وجلس أمامها محاولًا أن يجد بداية لحديثه، ولكنها لم تتركه لحيرته، وبادرتْ هي بالكلام وكأنها كانت تعرف مقدار حيرته:

- هي: ها... كنا بنقول إيه بقى إمبارح؟
- هو: إمبارح! إحنا قلنا حاجة إمبارح؟ فكريني كدة!
- هي : والله! بقى كده! أوكيه، أنا غلطانة.
- هو : إنتِ عمرك ما تغلطي، أنا حبيبتي لا يمكن تغلط أبدًا.
- هي : آه.. حبيبتك بقى!
- هو : يبقى إنتِ مش مصدقاني، أنا اتخيلت إنك قولتِ إنك مصدقاني.
- هي : مصدقاك بس.. خايفة.
- هو : إنتِ كمان خايفة! إيه الشوطة اللي ماشية في البلد اليومين دُول؟

- هي : يا ريت تكون شوطة ولها نهاية ولو بعيدة، بس أنا بجد خايفة ومش عارفة إذا كان لخوفي ده آخر.
- هو : خايفة مني للدرجة دي؟
- هي : لا، أنا خايفة مني أنا!
- هو : يعني إيه؟ مش فاهم، في إيه؟ أنا مش فاهم!
- هي : أنا مش خايفة مِن اللي جاي، أنا خايفة مِن اللي بعد اللي جاي، أنا مش خايفة مِن حبَّك ليَّ، أنا خايفة إني أنا اللي أحبك.
- هو : يااااه! للدرجة دي أنا بخوِّف قوي؟!
- هي : للأسف كل نهايات الحب عذاب، وأنا مش حِمْل عذاب علشان كدة كنت قافلة على قلبي، وعايشة مبسوطة حتى وأنا بسْمَع الناس وهي بتقول عليَّ إني مسترجلة.
- هو : مش مسترجلة قوي يعني، هو بس فيه نُص راجل بتخليه يظهر وقت ما تحتاجي، لكن ما يمنعش إن فيه برضه نُص ست، يالهوييييي.. ده اللي إنتِ حبساه وبتموِّتي نفْسك علشان تخفيه وتخليه ما يظهرش؟!
- هي : إنتَ واخد بالك يعني، والله إنك مش ساهل أبدًا.
- هو : أنا بقي نفْسي أموِّت النُص الراجل اللي معذبني في الشغل ده، وعلى طول حاطط نِقره مِن نِقري، نفسي على طول أشوف النُص الست اللي منوَّر قدامي ده.
- هي : أنا بقى مابخافش غير مِن النُص الست ده؛ لأنه النُص الضعيف اللي مابيجيش مِن وراه غير التعب والوجع.
- هو : يااااه... ده الظاهر إن فيه قصص كتير أنا ما أعرفهاش.

طلب منها أن يقابلها لمدة ساعة، فإذا بالوقت يمر حتى أصبحت الساعة ساعات كثيرة، وهما لا يدريان كم مرَّ عليهما مِن الوقت أثناء حديثهما عن حياتهما التي سبقتْ لحظة لقائهما، عن حياتهما التي سبقت لحظة الميلاد.

أخذهما الحديث وهما يفتحان قلبيهما ليخرِجا كل ما في داخل صدورهما، حتى ظنَّ كلٌّ منهما أنه يعلم عن الآخر أكثر ممَّا يعلم هو عن نفسه.

استراحا لهذا الحديث، واستراحا أكثر لشعورهما بالراحة ولإحساسهما أنهما قد أخذا سَوِيًّا طريق البداية.

وعندما شعرا كلاهما أنهما قد تجاوزا سَوِيًّا حمى البداية المليئة بالكثير مِن الجهل بالآخر، الأمر الذي يجعلنا دائمًا في حالة مِن استباق الأحداث حتى نستطيع أن نجيب عن التساؤلات الكثيرة التي بداخلنا، والتي لا نملك لها إجابات مقنعة كافية في أغلب الأحيان.

عندما شعرا أنهما قد تجاوزا هذه المرحلة المليئة بالمطبات التي تبطئ السير، وإن كانت لا تعيقه، حينها فقط استشعرا أنه لا بد لهما مِن أن يتحدثا عن الغد، وأن يرسما سَوِيًّا الصورة التي يمكن أن تجمعهما.

طلب منها اللقاء، وقد انتوى كلٌّ منهما أن يجعلا مِن لقائهما هذا هو يوم ميلاد حبهما، وبالرغم مِن أنهما لم يفصحا عن نواياهما، ولكن يبدو أن كلًّا منهما كان على علم مسبق بما يدور في عقل الآخر، فالتقيا ليسجلا بلقائهما هذا يوم ميلاد حبهما.

العهد

ذهبتْ إلى حيث اتفقا على اللقاء، وجلستْ في انتظاره وهو من لم يتأخر أبدًا على ميعادها من قبل، ولكن يبدو أن اليوم كان مختلفًا في كل شيء.. نظرتْ له بشيء مِن الحزم الذكوري الذي تمتلكه ولا تنكره، وهي تقول:

- هي : معاك ورقة وقلم؟
- هو : خير، حتعملي لي اختبار تحديد الشخصية ولا إيه؟
- هي : عايزة ورقة وقلم مِن فضلك.
- هو : حاضر حاضر... اتفضلي.
- هي : أنا محتاجة أعرفك، محتاجة أطَّمِّن لك، محتاجة أشوفك بعينية مش بِوداني، ومش عوزاك تستعجلني.
- هو : حقك طبعًا.
- هي : خلِّيني أكمل كلامي، أنا ما صدقت إني قدرت أبدأ الكلام.

(أطرق صامتًا).

- هي : خلينا نتفق على الحاجات اللي ممكن تساعدنا نفهم بعض ونكتبها علشان لو في يوم نسينا نلاقي حاجة نرجعلها تفكِّرنا.
- هو : آه.. فهمت، وماله، خلينا نعمل ميثاق شرف، مفيهاش حاجة.

أَخرَج مِن حقيبته ورقة وقلمًا، وهو يظن أن الأمر ليس إلا مزحة سيضحكان عليها بعد قليل، وهما يتناقشان حول تفاصيل علاقتهما، ولكنه لم يتخيل أن الأمر سيصل لأن يكون في صورة عقد واشتراطات سَيَتِمُّ وضعها كأساسيات لضمان إنجاح العلاقة بينهما.

استمع لها وهي تضع الشرط تلو الشرط، وقد بدأتْ ملامح وجهه في التغير عندما رأى الأمر وهو يصير أكثر جدية مِن العقود التي يبرمها كل يوم في

عمله، فلم يكن يتبقى لها إلا أن تطالبه بتسجيل هذه الاتفاقية في الشهر العقاري كميثاق لهذه العلاقة التي لم تبدأ بعد إلا وقد تمَّ وضع الشروط وكتابة الاشتراطات لما يجب على الطرفين أن يعملا بها، وعدم مخالفتها مهما كان حجم الضغوط أو الظروف التي سيتعرضان لها في المستقبل.

كان صوتها محتدًّا وهي تطلب منه أنه مهما حدث بينهما فلا مكان للكذب تحت أي ظرف مِن الظروف، مهما كان الأمر، ومهما كان حجم الخطأ، بل ومهما كانت العواقب، فإنه لا يجب أن يكذبا على بعضهما البعض؛ لأن الكذب مهما كان متقَنًا فإنه سينكشف يومًا ما، وحتى ذلك اليوم الذي ستنكشف فيه هذه الكذبة، فإنهما سيعيشان حياة غير حقيقية لن يستطيعا استكمالها يوم تنكشف حقيقتها.

كان صوتها يخبر عن تجربة شديدة المرارة جعلتها ترجوه أن يفعل المستحيل؛ حتى لا يعيشا في كذبة لن تنتهي إلا بألم الحقيقة التي تزداد حدَّتها كلما تأخر كشْفها ومواجهتها لتصبح كنصل الرمح الذي يقتل بمجرد رؤيته، وحتى قبل أن يمسَّ جسد القتيل.

أخبرته أنه يتوجب عليه أن يصبر عليها، وأن يعطيها الفرصة لكي تتعرف عليه، وتختبر طباعه، وتتمرس على طبائعه قبل أن يطلب منها أن تقول له إنها تحبه.

طلبتْ منه أن يظل يحبها، ويبرهن لها على حبه مهما طال الوقت؛ ليسمع الكلمة التي طالما حلم بها، وتخيَّل كيف ستقولها، وكيف سيتلقاها، إلا إنها صدمتْه عندما أخبرتْه أن هذه الكلمة التي هي حلم كل عاشق لن تكون سهلة المنال؛ لأنه لن يسمعها، بل سيجدها وهي تنطلق، فتصيب قلبه كالرصاصة التي يطلقها قناص محترف، فلا يعود هناك أي مجال بعدها لأنْ ينجو مِن إصابتها وقتَ أطلقتْ رصاصة حبها التي ستصيب قلبه قبل أذنيه.

طلبت منه ألا يتوقف عن حبها، ولا عن إظهار حبه له مهما طال بها الأمر لتعلن له حبها، لأنها تحتاج لأنْ تستشعر حبه كل دقيقة حتى تتأكد مِن أن حبها له هو يقين سيجعلها تتغلب على كل مخاوفها قبل أن تقول له... أحبك.

كان يجلس أمامها كالمسحور، فلم يستطيع أن يشيح بنظره عنها وهو يطرب إلى صوتها مأخوذًا بتعبيراتها، منجذبًا إلى حركاتها، بالرغم مِن أن عقله لم يقنع بكلامها الذي لم يأتِ على هواه، إلا إن قلبه لم يكن منشغلًا بفهم ما تقول بقدر ما كان معنيًّا بتعابير وجهها، وحركات جسدها التي كانت تُنْبِئ عن مخاوفها التي ظلَّلَتْ كالغيام على قلبيهما، فلم تترك أي مجال لبارقة مِن الضوء لكي يمرَّ حتى تنقشع هذه الغمامة بكل ما تحمله مِن إحباطات لم تصل بهما لدرجة اليأس، ولكنها حملَتْ إنذارًا واضحًا جليًّا بأنه يتوجب عليهما أن يحسبا حسابات القادم قبل الإقدام عليه.

أكملتْ كلامها وهي تتحدث عمَّا يتوجب عليه قبوله حتى يستطيع الحصول على حبها كاملًا غير منقوصٍ بعد أن يتغلَّبا سَوِيًّا على مخاوفها التي تسيطر على عقلها، فلا تجعله يفكر إلا في عذاب ما بعد الحب، وهو ما يمنع قلبها مِن أن ينطلق معه إلى حيث يحلمان.

كان كلامها ثقيلًا عليه، ولكنه لم يحاول أن يقاطعها أو يبدي أي قدْر من الاعتراض؛ لعل هدوءَه يبثُّ فيها بعض الاطمئنان، ويهدِّئ قليلًا مِن روعها؛ لأنه قد أحسَّ بمعاناتها مع كل كلمة قالتْها.

لم يشعر بأنها تحاول أن تفرض شخصيتها ومتطلباتها عليه، بل على العكس، فقد شعر بأنها كانت تحاول أن تحتمي به مِن مخاوفها، وأنها كانت تحاول أن تجد فيه السَّنَد الذي يمكن أن تلجأ إليه لتقاوم هذا الصراع الذي يدور بين عقلها وقلبها، فكان لها ما تريد، كان لها السَّنَد.

واصلتْ كلامها بدون أن تنتظر منه ردًّا؛ لأنه لم يعطِها أي إحساس أنه سَيَرُدُّ عليها، أو أنه حتى يفكر في ردٍّ وهو يستمع إليها كمَن يشاهد برنامجًا تليفزيونيًّا لا يملك أن يعلِّق على ما يدور فيه، ولا يملك أن يغيِّر مِن سير الحوار به مهما كان اعتراضه على مضمونه، وكأنه يعلم أن الحق الوحيد المتاح له هو في أن يغلق التليفزيون، وهذا هو ما لمْ ولن يريده أبدًا بطبيعة الحال، فقد كان على استعداد لأن يقضي حياته كلها مستمعًا مشاهدًا لما لا يرضاه منها دون أن يفكر ولو للحظة في أن يُخرجها مِن حياته أو يَخرج هو مِن حياتها.

واصلت كلامها كما واصل هو استماعه:

- يجب أن تعدني أن أي شيء بيننا سيبقي دومًا بيننا، وأنك لن تسمح لأي أحد مهما كان أن يتدخل في أي أمر يخصنا؛ لأنه لا أحد سَيَهْتَمُّ لأمورنا مثلنا، فحياتنا هي ملك لنا نحن الإثنين فقط، ولا أحد مهما كانت قرابته مِنَّا سيتفهم لتفاصيل حياتنا مثلنا؛ لأنهم لم يعيشوا معنا تفاصيل حياتنا ليعلموا ما نعلمه، فلا تسمح لأحد مهما كان أن يتدخل في أي أمر يخصنا حتى ولو كان والدي أو والدتي، فأنت ستكون لي كل شيء يوم ستصبح حبيبي، فلا تتخيل أنه سيكون هناك مَن هو أقرب لي منك، وتأكَّد مِن أنه لن يكون هناك مَن هو أقرب لك مِنِّي أبدًا.

سرحتْ قليلًا، فتوقفتْ عن الكلام لبرهة، وكأنها تحاول أن تتذكر شيئًا ما، أو كأنها قد تذكَّرتْ بالفعل شيئًا جعلها تتوقف عن الكلام حتى تعيد ترتيب أوراقها مِن جديد قبل أن تسترسل في الكلام مجددًا، بينما هو لا يزال كما هو، ينظر إليها مستمعًا مشدوهًا معجبًا منتظرًا.

توقفتْ هي للحظات، وفكرتْ وراجعتْ أفكارها قبل أن تسترسل مرة أخري في الكلام، بينما هو لا يزال.. هو.. هو!

أكملتْ:

- يجب أن تعلم أننا لن نستطيع إعلان علاقتنا إلا عندما أستطيع أنا عبور هذه المرحلة معك، وأن أستطيع أن أتغلب على كل مخاوفي، وأن أقتنع أنك أنت رجُلي الذي سأكمل معه حياتي، وحتى ذلك الحين لن يعلم أحد بما بيننا، كما أننا لن نستطيع أن نتقابل علانية بعد اليوم في مكان عام، سأختار أنا الأماكن التي نستطيع أن نتقابل فيها؛ لأنني لا أريد أن أكون تحت أي نوع مِن أنواع الضغوط وأنا أتخذ هذا القرار، وخاصةً ضغط العلاقة والتزاماتها، وكلام الناس ونظراتهم، وأرجو أن تساعدني في ذلك.

لمْ تعطِه الفرصة ليجيبها إلى طلبها بأن يساعدها لكي تتحرر مِن الضغوط خلال المرحلة القادمة، بل أكملتْ حديثها وكأنَّ موافقته أصبحتْ موجودة ضمنيًّا على كل ما تقول، بالرغم مِن أنه لم ينطق بكلمة واحدة.

أكملتْ:

- يجب علينا دومًا أن نسمي الأشياء بمسمَّياتها، فأنا لستُ امرأتك، وأنتَ لستَ رجُلي، بل نحن سَويًّا نكون زوجًا مِن المحبين، لكلٍّ منَّا شخصيته وكيانه الخاص، وأنا لن أكون تابعة لك في يوم مِن الأيام، ولكننا معًا سنكون تابعين للكيان الذي سينشأ عن علاقتنا، وهي العلاقة التي لن تعطي لأي طرف الحق في أن يسيطر على حياة الطرف الآخر، سنتشارك الحديث، ونتبادل الآراء، ونعطي الأفكار، ولكن كلًّا مِنَّا سَيَتَّخِذُ قراره في النهاية، ويتحمَّل نتائجه طالما أننا تشاركْنا الرأي.

كان كل ما مرَّ برأسه وهو يسمعها تتحدث أنها قد مرتْ بتجربة قاسية جدًّا جعلتْها ترى الرجل في صورة هذا الكائن المستبد المسيطر الذي يهوى التحكم

في امرأته، وجعْلها تابعةً له حتى يشعر أكثر برجولته كلما أفرطتْ هي في إظهار أنوثتها.

جلس أمامها يستمع لما تقوله، بينما عقله يحاول أن يتخيل كيف كانت قصتها، وكم كانت معاناتها التي جعلتْها بهذا التخوف والتربص بالرجل الذي قد ترتبط به لتضع كل هذه الشروط التي يصعب على أي رجل – يحترم رجولته – أن يقبلها، ولكن الأمر يختلف تمامًا لمن كان عاشقًا مُحِبًّا؛ لأن الحب يلبسنا نظارة تجعلنا نرى ما خلف الكلمات، فلا نغضب لما قد يغضب منه الآخرون.

إنها هذه النظارة التي تخلق دومًا الأعذار لمن نحب، فتجعلنا نقبل منهم ما لا نقبله مِن أحد سِوَاهم، طالما كنا نرتدي هذه النظارة، وخاصةً في مراحل الحب الأولى.

لم يجادلها ولم يناقشها فيما تقول، وكأنه قد أقنع نفسه أنه لن يستطيع أن يرى إلا بهذه النظارة التي تجعله يرى الأشياء بعينها هي.

إنها هذه النظارة التي إخطار هو أن يرتديها؛ حتى لا يشعر أنه مجبَر على قبول كلام يرفضه، وهو يقنع نفسه أنه هو من أراد أن يرى الأشياء بهذه الطريقة، وأن كل ما تقوله إنما هو انعكاس لما يدور داخله، أقنع نفسه أنها لديها الحق في كل شيء قالتْه، وأنها لديها مِن الأعذار التي لا يعلمها ما يعطيها الحق في تخوفها وفرْض شروطها.

نظر إلى عينيها، وابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول لها:

- هو : أنا موافق على كل كلمة قولتِيها وكل طلب طلبتِه مِني، بس لي طلب واحد بس.
- هي : إيه ده؟ يعني ده شرطك علشان تقبل كلامي؟

- هو : شرط! بتتكلمي بجد!
- هي : أيوه بتكلِّم بجد، يعني أنا لو ماقبلتش طلبك مش حتقبل كلامي؟

(نظر إليها نظرة اسهلال) وهي تكمل كلامها:

- هي : عمومًا، أنا لو أقدر على طلبك، أكيد حعمله.
- هو : أنا بقى حاعمل كل اللي إنتِ عايزاه، سواء قبلْته أو ما قبلتوش، سواء قدرت عليه أو كان صعب عليَّ، أنا حعمِلّك كل اللي إنتِ عايزاه ما دام ده اللي إنتِ عايزاه.
- هي (بابتسامة عريضة) : طيب قوللي كنت عايز إيه؟
- هو : أبدًا، أنا مش عايز غير إني أشوف دايمًا النص الست، مش عايز أشوف النص الراجل ده أبدًا.
- هي : ده يتوقف عليك إنتَ، أنا عمري ما بقصد أكون ناشفة مع اللي قدامي، لكن لما بلاقي أي حد بيحاول يستغل إني ست، ويتصور إني ضعيفة، غصبٍ عني بأعامله بالطريقة اللي توقَّفه عند حده، وتوقَّف استغلاله لأنوثتي.
- هو : يعني أنا زي أي حد؟
- هي : لغاية دلوقتي.. آه.

(ينظر إليها متعجِّبًا)...!

- هي : لازم تعرف إننا لسة بنحاول نبني علاقتنا، ولازم حيكون فيه حاجات كتير بيننا مش حنتفق عليها، بس مع الوقت إنتَ لوحدك حتعرف إيه اللي بيطلع النص الراجل اللي مش عاجبك ده، وحتعرف إزاي تخفيه خالص مِن حياتنا.
- هو : وأنا موافق على التحدي ده.
- هي : مِن أولها حتبدأها بتحدي!

- هو : ما هو ده فعلًا تحدي، بس أنا قبلْته، وأنا حاعرف إزاي أتخلص مِن النص اللي مش عاجبني.
- هي : لما نشوف.
- هو : بس لازم تعرفي إن أي راجل جواه طفل صغير بيتحكم في تصرفاته بشكل عصبي جدًّا، وساعة ما تلاقيني إتعصبْت متحاوليش تتحديني، مجرد كلمة حلوة منك، مجرد لمسة حنينة منك، مجرد ابتسامة حتلاقيني اتبدلت في لحظة، وبقيت إنسان تاني خالص.
- هي : آه، إنت عايز واحدة تفصيل بقى!
- هو : يعني إيه؟
- هي : يعني إيه اللي حيحصل لو أنا كمان اتعصبت في نفس الوقت، وماكنتش قادرة أبتسم أو أقول كلمة حلوة، إيه اللي حيحصل في الحالة دي؟ حتبقى خناقة على كدة؟
- هو : خلينا نتفق على إننا دايمًا ندِّي الأعذار لبعض، ولو لقينا نفسنا إحنا الاتنين متعصبين نبطَّل كلام شوية، أو حتى تسيبيني أمشي ساعتها، لكن بشرط.
- هي : اللي هو إيه؟
- هو : أهم حاجة إننا ما ننامش إلا وإحنا متصالحين، مش مهم مين عمل إيه، مش مهم مين يبدأ، المهم إن أي واحد فينا يبدأ وننهي الزعل في نفس الليلة لإن الزعل بيجيب زعل.
- هي : اتفقنا، اكتب بقى الشرط ده كمان في الورقة.
- هو : أديني بكتب أهو، هل لديكِ أقوال أخرى؟
- هي (ضحكة عالية) : لا يا فندم.
- هو : وأُقفِل المحضر في ساعته، ووقعتْ حبيبتي على أقوالها.
- هي : مِن أولها حتوديني النيابة، أُمَّال بعد كام شهر حتوديني على فين؟!

- هو : على الجنة إن شاء الله، جنة حبنا.
- هي : فِجل حبنا.. هاهاها!!!!.

ضحكا كما لم يضحكا مِن قبل، وتبادلا النظرات المليئة بالكلمات التي لم ينطقها لسانهما، ولكن سمعها قلباهما، وطربا لها، حتى تذكَّرا أن الوقت قد حلَّق بهما إلى حيث يجب أن ينتهي اللقاء، كما لو أنها السندريلا التي يجب أن تغادر قبل دقات منتصف الليل؛ حتى لا يحلَّ عليها غضب الساحرة.

طلبتْ منه أن تغادر، فنظر لها وكأنه يستعطفها أن تبقى، إلا إن وقت الرحيل كان قد حان، فلم يجدا مفرًّا إلا أن يستجيبا لدقات الساعة، وعندما همَّتْ بالرحيل أمسك بيدها، وأخبرها أنه يود أن يطلب منها شيئًا واحدًا أخيرًا قبل أن تغادر، فاستسلمتْ ليده، وكأنها كانت في انتظار طلبه هذا.

أخرج مِن حقيبته هدية، وأعطاها إياها وهو يخبرها أنه عندما تأخَّر عليها في أول اللقاء فإنه كان يبحث عن شيء يهديها إياه؛ اعترافًا منه بهذه النعمة التي مَنَّ بها الله عليه.

فتحتِ الهدية فوجدتْ قلادة ذهبية لم تكن هي الأغلى ثمنًا فيما تملكه، ولكنها كانت ولا زالت الأغلى قيمة؛ لأنها هدية يوم الميلاد الأولى التي أشعرتْها أنها تحتفل بيوم ميلادها مع حبيبها الذي تمنَّت على الله أن يكون هو الرجل الذي انتظرتْه. ولكن يبدو أن القدَر كان له رأي آخر.

التغيير

لأن البدايات دائمًا ما تكون محمومة منتشية فإنها دائمًا ما تكون ممتلئة بالحماسة التي تتولد مِن فرحتنا بما هو جديد، وعدم تقديرنا لما قد تؤول إليه الأحداث عندما تخمد حمى البداية، ونبدأ في مواجهة المقدور، والتعامل مع أشياء معلومة لنا يقينًا؛ لأنها تحدث كل يوم لكل مَن حولنا، بل ونشارك فيها إما بدور الناصح، أو بدور المعترض، أو حتى بدور المتفرج.

ولكن يبدو أنه عندما نكون نحن في دائرة الأحداث فإننا نتعمد أن ننسى كل هذه الدروس التي مرت بنا ، قانعين أنفسنا أننا لن نكون أبدًا مثل الآخرين، وأننا قادرون على التعامل مع الظروف مِن حولنا مهما كانت قسوتها، وكأن الحياة ستتوقف عن إعطاء الدروس، أو كأن القدر لن يستطيع أن ينال مِن عزيمتنا على استكمال ما بدأناه كما نال مِن كل الآخرين.

أخذتْهما حمى البداية، فلم يهتما إلا أن يعيشا اللحظة التي يجتمعان فيها بكل تفاصيلها، وهما يحاولان أن يملأا قلبيهما وعيونهما مِن بعضهما البعض، رافضين الخوض في أي تفاصيل قد تؤدي بهما إلى أي نوع مِن أنواع الصراعات التي قد يتولد عنها لحظات غضب تَذهَب بفرحة لحظة اللقاء.

كان كل لقاء لهما هو بمثابة أول لقاء بكل ما فيه مِن اشتياق ورغبة في الاستزادة مِن الآخر، واستعداداً للتنازل عن كل الأنا مِن أجل نظرة أو بسمة أو كلمة مِن الآخر تؤكد لكليهما أن معنى السعادة هي في أن يكونا معًا، وأن الغد لا يأتي إلا عندما تأتي لحظة لقائهما.

يا ألله! هل هذا هو الحب؟ هل هذا حقًّا هو الحب الذي يجعلنا لا نرى مِن أوقاتنا إلا تلك اللحظة التي نجتمع فيها مع مَن نحب لتتوقف كل مراكز التفكير في عقولنا، وتُمحَى ذاكرتنا، وكأن عقولنا قد أصيبت بالشلل فلمْ تعد

تقوَى على التفكير، فلا نجد مفرًّا مِن أن نستسلم لقلوبنا تفعل بنا ما تشاء في غياب تام لعقولنا، واشتداد رغبتنا في الاستسلام لأحكام القلوب التي تعمد لأن تنسينا أوجاعنا؛ حتى لا نعود نتذكر إلا لحظات السعادة التي مرَّتْ بنا وكأنه لم يكن هناك لحظات صراع ولوعة وشجار وعتاب، وكأن كل أيامنا هي حب في حب فقط.

هكذا تفكر القلوب دائمًا عندما تدفعنا لأن نعلن استسلامنا لغزو الحب، رافعين الرايات البيضاء التي تعلن أننا قد قبِلنا أن نقع أسرى لمن أحببنا، وأن حياتنا لم تعد تنبض بالحياة إلا وقت لقاء الحبيب فقط، لنعيش في لحظات اللقاء غير مهتمين بما قد يحدث بعد أن تحلَّ لحظات الفراق محل حميمية اللقاء، أو بعد أن تهدأ فورة الحب التي طالما ألهبتْ قلوبنا وقت أعلنَّا استسلام قلوبنا لغزو الحب، قابلين أن يصبح كلٌّ مِنَّا أسيرًا بإرادته لهذا الغازي المستبد الذي يعصف بقلوبنا بدون رحمة، والذي تزداد سطوته كلما زادت معاناتنا، وانهَمَرتْ دموعنا، وكأن الحب لا يعيش إلا على معاناة المحبين.

انتهى اللقاء بهدية وميثاق ووعد، قدَّم لها أول هدية وهو يخبرها أنه لو استطاع أن يحضر لها الدنيا ويطويها ليجعلها في هذه العلبة الصغيرة، ما تأخَّر لحظة عن ذلك.

أما هي فقد صدَّقتْ كلامه، أو كأنها أرادت أن تصدِّق كلامه بأنه حقًّا لن يتأخر أبدًا عنها – طالما كان قادرًا – ففتحتِ الهدية، وارتدتِ القلادة، ووضعتْها على صدرها كإعلان رسمي بأن اليوم هو يوم البداية.

احتفظ هو بالورقة التي كتبا فيها ميثاق علاقتهما، وكأنها عهود الزواج التي سيلتزمان بها طالما استمرتِ الحياة بينهما، ليكون هذا الميثاق هو المرجعية التي ستحافظ على علاقتهما قوية ضد أي عاصفة قد تهب على حياتهما التي

لم تبدأ بعد، فلم يعلما إن كانت ستقوى حقًّا على مواجهة العواصف التي ستمرُّ عليهما، أم أن صاري سفينتهما سينكسر عند أول موجة عاتية تهجم على سفينة حبهما، فتهرب مِن أيديهما دفة القيادة، وتصبح السفينة كالريشة في مهب الريح، لتذهب بها أصغر نسمة هواء إلى حيث الهاوية.

وقبل أن يغادرا طلبتْ منه أن يعدها أنه مهما حدث بينهما، ومهما واجها مِن صعاب، ودارتْ بينهما المشكلات، فإنهما يجب أن يبقيا معًا، وألا يسمحا لأي مشكلة لأن تسيطر على حياتهما؛ لأن السبيل الوحيد لقتْل أي مشكلة هو في تجاوزها بأسرع وقت قبل أن يتولد عنها العديد مِن المشكلات الأخرى التي قد تكون أصغر منها حجمًا، ولكنها تصبح مع الوقت أكبر أثرًا.

استمرَّتِ اللقاءات بينهما لأيام وأسابيع، بل وشهور وهما لا يتحدثان إلا عن هذه اللحظة التي يعيشانها سَوِيًّا، ويقطعان الوعود لبعضهما البعض بأن كلًّا منهما سيبذل أقصى جهده؛ لكي يسعد الطرف الآخر.

شهور طويلة مضتْ عليهما وهما يتقابلان صباحًا وظهرًا وعصرًا ومساءً؛ ليتحدثا عن حبهما، وما الذي فعَله هذا الحب فيهما، وكيف أن كلًّا منهما قد تغيَّر كثيرًا مِن وقت أن دخل الطرف الآخر إلى حياته.

يبدو أن كل قصص الحب تبدأ عادةً بهذه البداية الروتينية التي طالما قرأنا عنها، أو شاهدناها في الأفلام ونحن نضحك على هذه السذاجة، غير متخيلين أبدًا أن هناك مَن يستطيع أن يقضي كل هذه الأوقات ليتحدث عن حبه ولوعته، وما أحدثه الحب مِن تغيرات في حياته، وكيف أصبح الطرف الآخر في لحظة هو كل الحب حتى إنه أصبح هو الحياة ذاتها.

ولكن وكالمعتاد، فإننا بمجرد أن نقع نحن في الحب، فإننا نقطع على أنفسنا الوعود بالسعادة والتفهم والاحتضان، ونحن نؤكد لبعضنا البعض أن

قصة حبنا لن تكون أبدًا مثل مَن سبقونا، وأننا سَوِيًّا سنقف أمام كل الظروف متحدِّين كل الصعاب؛ لأن حبنا أقوى مِن المقدور.

هكذا يجعلنا الحب نصدق في أنفسنا ما يضحكنا مِن الآخرين، حيث كنا نرى فيه منتهى السذاجة من الآخرين، فإذا بنا بعد أن نقع في الحب نصبح نحن أكثر سذاجة مِن السذاجة نفسها.

إنها البداية المحمومة لكل قصص الحب التي تجعل المحبين يتخيلان أنهما يختلفان عن كل مَن سبقهما، وأن قصة حبهما ستكون علامة في تاريخ المحبين، فيقطعان الوعود بأنه لن يوجد أبدًا ما يفرق بينهما، وكأنهما قد اطَّلعا على المقدور، فتأكَّدا أن حبهما أقوى مِن القدر، وأن القسمة والنصيب هي فقط الحجة التي يستعملها الضعفاء ليبرروا بها فشلهم في الحفاظ على حبهم.

إنها حمى البدايات التي ترسم على شفاهنا هذه الابتسامة البلهاء ونحن نقرأ عنها في كتاب، أو نشاهدها في فيلم سينمائي، متخيلين أن هذه الرومانسية لا مكان لها في الواقع؛ لأنها ليست إلا صنيع خيال كاتب محترف يعرف كيف وأين يجد مثل هذه الأفكار الرومانسية التي تحيا وتزدهر فقط في خياله، أما دراما الواقع فإنها لا تترك في الغالب مجالًا لهذه الرومانسية لتحيا وسطنا، وتعصف بقلوبنا.

ولكن المفارقة تحدث فعلًا عندما نقع نحن في الحب، فننسى أو نتناسى كل ما ضحكنا عليه مِن قبل، ونبدأ في السعي وراء هذه اللحظات الرومانسية الروائية التي طالما ضحكنا عليها، ولم نصدقها حتى نصل إلى هذه اللحظة التي نجد أنفسنا ونحن نعيشها بكل تفاصيلها.

نعم إنه هو هذا الغازي المستبد، إنه الحب!

وتكررتِ اللقاءات، وتعددتِ المناسبات التي امتلأت بالهدايا والورد ولحظات السعادة، لتشكل حاضرهما الذي لن يمكن أن ينتزعه القدر بكل قسوته مِن ذاكرة قلوبهما، حتى وإن قُدِّرَ لهما الفراق؛ لأنهما لم يستشعرا الحب حقًّا إلا سَوِيًّا.

ولكن مَن مِنَّا يمكنه أن يصمد أمام القدر؟ إن القدر قرَّر أن يقول كلمته.

يبدو أن حظنا مِن السعادة مرهون دومًا بقدرتنا على تحمل ضربات القدر الموجعة، واستعدادنا لقبول اختياراته حتى نستطيع أن نتعايش مع هذه الاختيارات مهما تعارضتْ مع اختياراتنا، ويا له مِن اختبار قاسٍ حقًّا أن تتعارض اختياراتنا مع اختيارات القدر، فنجد أنفسنا مضطَّرين لقبولها حتى بعد أن يتأكد لنا أنَّ رفْضنا لن يغيِّر منها شيئًا.

تبدلتِ الأوضاع، ولم تعد الأمور تسير كما خطَّطا لها، تحوَّلتْ كل الألوان فجأة إلى اللون الأسود، فلم يعد بإمكانهما أن يريا ألوان الورود التي ملأتْ حجرتهما لشهور مضتْ، كما لم يعد اليوم يحتوي على ساعات مِن النهار بعد أن أصبح الليل هو الذي يلون حياتهما.

فجأة وبدون مقدمات تحطَّمتْ أحلامهما على صخرة واقع لم يكونا يتوقعانه يومًا، وذلك عندما اِنهار عمله، ولم يعد قادرًا على الوفاء بأي مِن الالتزامات التي قطعها على نفسه.

بدأتِ الأمور في التحول الدرامي، فلم يعد هناك مجال لأن تستمر أحاديث الحب ولغة العشاق التي شغلتْ كل أوقاتهما منذ زمن قريب، لتتبدل الأحاديث، وتختلف النبرات بعد أن تبين لهما أن الحب لا يعيش إلا في سعة وبراح، فأصبحتِ اللقاءات مليئة بالشد والجذب بعد أن وجدا أنفسهما في مواجهة ضارية مع قدَر لا يرحم مَن لا يقبله، ولا حتى مَن يقبله.

اختفت أحاديث العشق والغرام، وأصبح كلُّ كلامه يدور حول الظروف التي يمرُّ بها، والتي تجعله غير قادر على تنفيذ وعوده لها، بينما أصبح كلُّ كلامها يدور حول تعبها مِن هذه الظروف، وأنها تحتاج إليه ليكون رجلها الذي انتظرتْه لكي يقهر كل هذه الظروف مهما كانت حتى يستطيعا أن يكونا سَوِيًّا، ووقتها فقط سيستطيعان معًا عبور كل هذه الظروف.

لم يعد يستطيع أن يجلس أمامها متفرجًا مشاهِدًا معجبًا بكلامها كما كان يجلس في اللقاءات الأولى، بل بدا الأمر مختلفًا تمامًا بعد أن تبدلتِ الأمور لتسير عكس مخططهما.

لم يعد يقوى على إظهار تفهُّمه لها بعد أن أصبح في أمسِّ الاحتياج لمن يتفهَّم ظروفه، وأن يرى منها تجاوبًا وتقديم التنازلات مِن أجل أن يقفا سَوِيًّا أمام رغبة القدر الذي يسعى حثيثًا لأن يفرق بينهما.

أصبحتِ اللقاءات أشد سخونة وأكثر احتدادًا، حتى أصبحتْ هذه اللقاءات التي كانا ينتظرانها بفارغ الصبر مِن قَبْل تشكِّل اليوم عبئًا عليهما؛ إذ لم يعد هناك كلام جديد يقال في كل لقاء إلا بإعادة الشكوى مِن الظروف، وطلب التفهُّم، والصبر على المقدور حتى تتغير هذه الظروف.

ومع الوقت تباعدتِ اللقاءات بعد أن أصبح اللقاء لا يحمل إلا التململ مِن الظروف التي لم يعد لها أي حلّ إلا انتظار حدوث معجزة تغيِّر مِن قدرهما الذي لم يعد باستطاعتهما أن يتقبلاه.

وبدأت هي في التغير التدريجي وكأنها كانت تعده لتقبل الأمر الذي انْتَوَتْهُ، فلم تعد تهتم لنفسها وقت اللقاء، وكأنها تتعمد ألا تتجمل أمامه وهي التي اعتادت الذهاب إلى الكوافير مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد، فأصبحتِ الآن لا تعرف طريق الكوافير إلا إذا تطلَّب عملها ذلك.

بدأ هو في ملاحظة تغيرها، وأنها لم تعد هي.. هي! تغيرتِ الأحاديث أثناء اللقاء، فلم يعد يسوق المبررات كما اعتاد مِن قبل؛ لأنه كان منشغلًا بتغير الظروف التي تمنعه مِن أن يكون مع مَن لم يعرف الحب إلا معها.

أما هي فقد كانت تعمد إلى أن ترسل له الإشارات إلى أنها لم تعد كما كانت، وأنها في طريقها إلى تغيير مسار حياتها بعيدًا عنه.

لم يعد يهتم بكل مشكلات عمله التي يعيشها والتي هي السبب في كل هذا التغيير؛ لأنه كان مهمومًا بتَغيُّرها الذي أصبح هو شغله الشاغل؛ لأنه لم يكن يتصور حياته مِن دونها بعد أن أصبحتْ هي كل الحياة بالنسبة له.

حتى كان صباح يوم جمعة، حيث كانت عادة ما تتصل به بعد صلاة الجمعة؛ لأنها اعتادت الاستيقاظ المتأخر يوم الجمعة طوال فترة الصفاء التي عاشاها معًا، إلا إنه في هذا اليوم استيقظ هو مبكرًا كعادته، ولا يعلم لماذا قام بالاتصال بها في ذلك اليوم، كما لا تعلم هي لماذا أجابت اتصاله.

قال لها:

- صباح الخير، صاحية بدري يعني!
- أصلي قلت أروح للكوافير.
- يااااه! صحيتِي بدري يوم الجمعة علشان تروحي للكوافير.. يااااه.. ده الظاهر إن عندك مناسبة كبيرة قوي النهاردة!
- مناسبة! ليه؟ هو أنت أول مرة تشوفني بأروح للكوافير؟
- الحقيقة أنا بقالي شهور ماشفتكيش وإنتِ جاية مِن عند الكوافير، فافتكرت إنك مقطعاه أو حاجة.
- لأ، بس بيتهيألي إن مفيش حاجة حلوة في حياتنا بقى لنا مدة تخليني أروح للكوافير.

- وإيه بقى اللي جدَّ النهاردة؟
- أبدًا، بس أنا قلت أغيَّر شوية، يمكن الدنيا تتغير لما إحنا نتغير.
- طيب، حشوفك إمتى؟
- مش عارفة، خليني أكلمك بعد ما أخلص ونرتب.
- طيب متتأخريش عليَّ علشان ألحق الصلاة.
- لأ.. حكلِّمك بعد الصلاة علشان أكون لحقت أخلص.
- يااااه، ده إنتِ شكلك حتعملي عمليات تجميل مش حتعملي شعرك بس! عمومًا، حأستنَّى إتصالك.

ومرَّتْ عليه الساعات وكأنها سنون طويلة وهو ينتظر اتصالها قبل الصلاة وأثناء الصلاة وبعد الصلاة، حتى مرَّتْ ساعة بعد انتهائه مِن الصلاة، فلم يستطع الصبر حتى تقوم هي بالاتصال كما وعدته، فقام بالاتصال لعله يفهم ماذا يحدث مِن حوله، ولكنها لم تُجِبْ، فعاود الاتصال مرة وثنتين وعشر، ولكن كان الرد دائمًا.. أن لا رد.

وبعد نحو ساعتين مِن الانتظار جاءه الاتصال المنتظر:

- سُورِي.. بس أصْلي كنت سايبة الموبايل في الشنطة لأني مقدرش أتكلم وأنا بأعمل شَعري.
- يااااااه! مِن الساعة عشرة للساعة تلاتة! غريبة قوي!
- أصلي عملت ضوافري الأول، وبعدين قصيت شَعري وغيَّرت لونه، أهو قلت لنفسي، فرصة أعمل تغيير كلي.
- عمومًا إنتِ حلوة في كل الأحوال.
- إنتَ لسة فاكر الكلام الحلو أهو!
- طب حشوفك إمتى؟

- مش عارفة، أُصلي معزومة على الغدا مع ناس أصحاب بابا ومش عارفة حخلَّص إمتى؟
- يعني كل ده علشان ناس أصحاب بابا! ده الظاهر إن العريس شخصية مهمة قوي.
- عريس إيه وكلام فارغ إيه! أنا مش محتاجة أكذب عليك، لو فيه عريس حقول لك ومش حستنَّى حفلة التكديب دي.
- عمومًا استمتعي بوقتك، أصل أنا مبقيتش قادر أخرَّجك وأفسَّحك زي زمان، فيمكن دي فرصة تغيري زي ما قلتِ.

في لحظة لم تقصدها – أو قد تكون قصدتْها – جعلته يشعر بحجم مشكلته التي تصوَّر هو لشهور طويلة أنها مشكلة مادية، ولكنه الآن فقط قد علم أن المشكلة تجاوزتِ الأمور المالية إلى أمور احتياجية.

الآن فقط علم أنه لم يعد قادرًا على أن يوفي باحتياجاتها كامرأة تحتاج إلى أن تشعر بأنوثتها عندما تتزين مِن أجل رجُلها وهو يدعوها للخروج لتناول العشاء؛ لكي يباهي بجمالها وزينتها وملبسها كل مَن حوله، الآن فقط شعر بأنه لم يعد بالنسبة لها الرجل الذي كانت تتزين مِن أجل الخروج معه حتى يحسده الناس مِن حوله على أنه الرجل لهذه الفاتنة.

المشكلة دائمًا تكمن في تصور آدم أن المشكلة المادية التي تواجهه لابد أن تصبح بالتبعية مشكلة حواء، ولكنه لا يدري أن مشكلة حواء تختلف تمامًا عمَّا يتصور، فحواء بمجرد أن اختارت الاحتماء بآدم فإنها لا تلقي بالًا لكل هذه الأمور المادية؛ لأنها وقتها تكون على قناعة أنها بجوار رجلٍ مسئولٍ عنها وعن حياتهما سَوِيًّا، ويستطيع حلَّ كل هذه المشكلات مهما تعاظمت.

وقتها تشعر حواء أن دورها ينحصر دائمًا في الوقوف إلى جانب رجُلها وتشجيعه على اجتياز هذه الأزمة التي تصدق هي أكثر منه أنها أزمة مؤقتة

لا بد لها أن تمر؛ لأنها بجوار الرجل الذي يعرف كيف يقهر أيًّا مِن هذه الظروف طالما أراد أن يصبح رجُلها.

ولكن في هذه الأثناء تكون حواء في أمسّ الاحتياج لأن يستمر آدم في إعادة شحْن بطاريات أحاسيسها مهما عظمتْ مشكلاته وغلبتْه مصاعب الحياة، وان يستمر في إشعارها أنها هي حواء التي اختارها منذ زمن، وأنها لا زالت هي تلك الأنثى التي تلهب مشاعره، والتي يريد دائمًا أن يباهي بها الناس مِن حوله.

هذه هي المشكلة التي يغفلها آدم أثناء انغماسه في مشكلاته المادية، فينسى أن حواء ليست إلا امرأة يحركها قلبها قبل عقلها، وأنها لن تستطيع أبدًا أن تظل تساند رجُلها الذي اختارته ليكون لها السند في الحياة والرفيق في الدرب إن لم يستطع أن يجعلها تشعر أنها هي حواء التي اختارها لتكون له السكن إذا ما عصفتْ به الحياة، بل وفوق هذا أن يظل يُشعرها أنها هي هي.. وأنها هي هذه الفاتنة التي شغلتْ قلبه مهما طالتِ السنون.

غرق في المشكلات، فلم يعد يرى احتياج امرأته لأن يُشعرها أنها هذه المرأة التي كان يسهر الليالي يناجيها وهو يحدِّثها على الهاتف حتى طلوع الفجر.

أخذته المشكلات، فلم يعد يدري أن احتياجها له يفوق احتياجه هو لها بمراحل.

مرَّ الوقت عليه طويلًا كئيبًا وهو في انتظار اتصال منها لتخبره عن ميعاد لقائهما، ولكن الاتصال لم يأتِ حتى المساء، فلم يستطع أن يصبر أكثر مِن هذا، فحاول الاتصال بها مرات ومرات لتكون الإجابة دائماً.. أن لا إجابة.

الفراق

تأكدَّ له أنها تبدلتْ، وأن هناك ما يشغل بالها الآن، إن لم يكن قد تجاوزتْ انشغال البال إلى مرحلة تبدُّل الأحوال، ولكنه ظلَّ يحاول الاتصال بها حتى ردَّت عليه بعد أكثر مِن ست ساعات منذ آخر اتصال, فبدأها بالقول:

- أيوة!
- هو إيه اللي أيوة؟
- خير!
- أنا قلتلك إني معزومة على الغدا مع ناس أصحاب بابا، عايزني ازاي أرد عليك!
- يااااه! كنتِ بتعرفي تردّي زمان، كنتِ بتعرفي تبعدي بالتليفون وتردّي عليَّ، ولَّا الظاهر إن كل حاجة اتغيَّرِتْ، وإن زمان مبقاش خلاص زي زمان.
- واضح إنك مش ملاحظ إنك فعلًا اتغيرت، وإننا ما بقناش زي زمان.
- زي ما تكوني مش عايشة معايا، أو زي ما أكون بتكلم مع واحدة لسة عارفها النهاردة!
- حترجع تقوللي الظروف والمشاكل، أنا زهقت ومش قادرة خلاص.
- قوليلي كدة بقى، قوليلي إنك رتبتِ أمورك مع اللي جاهز يدفع ويشيل.
- احترم نفسك مِن فضلك، أنا مش واحدة مِن الشارع علشان تقوللي الكلام الفارغ ده.. مع السلامة.

تخاصما كثيرًا مِن قبل، ولكنهما كانا قد تعاهدا على ألا يطول بينهما الخصام لأكثر مِن ساعات قليلة؛ حيث كانا دائمًا ما ينهيان الخصام بينهما قبل بزوغ نهار يوم جديد حسبما تعاهدا وكتبا ذلك في هذه الورقة التي احتفظ بها

كميثاق شرف حبهما، ولكن هذه المرة كان الخصام أكبر مِن طاقتهما فلم يبادر أحد منهما بالاتصال؛ لأن الجرح كان أكبر مِن أن يداوَى بالكلمات.

استمرَّ الخصام بينهما أيامًا وليالي طويلة، مرَّتْ عليه وكأنها سنون طويلة؛ لأنه لم يكن يدري هل الألم الذي يشعر به هو ألم الفراق؟ أم ألم الخيانة؟ أم أنه ألم المعاناة مِن يد القدر التي حطَّمتْ كل آماله؟

أسبوع مِن الخصام مرَّ عليهما، لم يحاولا مجرد الاتصال ببعضهما البعض، وكأنهما يتدربان على البعاد الذي أصبح أقرب الافتراضات على أرض الواقع، ولكن كل هذا الشك لم يمنعه مِن أن يعاود الاتصال لمعرفة ماذا يحدث.

ردَّتْ عليه بمجرد أن اتَّصل بها، وكأنها كانت في شوق لكي تسمع صوته، فلم تعطِه الفرصة لكي يبدأ الحديث الذي رسمه في مخيلته قبل الاتصال.

نزل صوتها الهادئ على قلبه بالسَكِينة التي جعلتْه ينسى ثورته وكل ظنونه التي أحالت حياته إلى جحيم مِن الشك في خيانتها له، معتقدًا أنها بالفعل قد ارتبطتْ بشخص آخر، إلا إنه لم يعد يدري ما يقول إلا أن يطلب منها اللقاء، فكان له ما طلب، وكأنها كانت في انتظار طلبه لتحقق أمنيتها الأخيرة في أن تلقاه، فيبدو أن الحب كان لا يزال متمكنًا مِن قلبيهما مهما باعد بينهما الخصام، ومهما كان جرح الكلمات عميقًا.

تقابلا في الحديقة التي شهدتْ أول اعتراف لهما بالحب، وكأنهما كانا لا يزالان في محاولتهما لأن يستجديا النجوم؛ لكي تقف معهما هذه الليلة كما وقفتْ معهما ليلة أول اعتراف بينهما بالحب.

حاول أن يستجمع كل ما لديه مِن دبلوماسية حتى لا يلفظ بكلمة تنهي اللقاء قبل بدايته.

نظر لها وهو يستجمع قواه ليخبرها بعذابه مِن بعدها، وأنها قد تركتْه وهو في أشد الاحتياج لها، وأخبرها أنه يحارب الظروف التي عصفتْ بحبهما فقط مِن أجل أن يكونا معًا كما تعاهدا مِن قبل، وأنها إن قررتِ الفراق، فإنه سيفقد القوة التي يحتاجها لكي يكمل مشواره؛ لأن وجودها في حياته هو الذي يعطيه القوة لكي يقاوم، بل إن وجودها في حياته هو السبب الذي مِن أجله يعيش، ويحاول أن ينتصر في معركته مع القدر الذي لم يرحم حبهما.

كانت نظراتها له هذه المرة مختلفة عن المرات السابقة، فقد كانت نظرات مليئة بالشوق الذي ينتابنا عند وداع الحبيب قبيل ركوبه الطائرة مغادرًا، كانت نظراتها له تنبِئُه أن اليوم هو يوم آخَر غير كل الأيام الماضية.

استمعتْ إليه بدون أن تصغي لما يقوله؛ لأنها كانت مشغولة بما تريد هي أن تقوله، وكأنها أرادت ألا تتأثر بكلامه؛ حتى تستطيع أن تخبره بما تريد مِن هذا اللقاء الذي انتظره هو ليكون السبيل لأن يتمكَّنا سَوِيًّا مِن مواجهة هذا الواقع الأليم، في حين انتظرتْه هي ليكون هو السبيل لأن تصارحه بحقيقة الواقع الذي يجب عليه أن يواجهه.

لم تجِبْ على أي مِن كلامه، وكأنه لم يقل شيئًا مِن الأساس، بدأتْ كلامها مِن حيث قد رتبتْ أفكارها مِن قبل أن تلقاه وهي تقول له أنها لن تستطيع أن تنتظر أكثر مِن ذلك؛ لأنها تقع تحت ضغوط هائلة مِن أهلها، وأنها على قناعة أن ظروفه هذه لن تتغير قريبًا؛ لأنه سيحتاج وقتًا طويلًا حتى يتمكن مِن تعديل هذه الظروف التي تقف عائقًا بينهما وبين تحقيق حلمهما، وأنها كامرأة لها احتياجات لن يستطيع أبدًا في ظل هذه الظروف أن يوفيها.

أصابه كلامها بنوع غريب مِن الصمت الذي لم يستطيع معه أن يحرك لسانه، وكأنه قد أصابه الخرس، ولكنه حاول وجاهد حتى استطاع أن ينطق بصوت خافت سمعتْه بالكاد وهو يسألها إن كان هناك شخص آخر،

فأنكرتْ، ولكنها أكدتْ له أن هناك عروضًا كثيرة بالفعل، ولكنها كانت ترفضهم جميعًا مِن قبل، ولكنها لم تعد تستطيع أن ترفض الآن بدون أسباب؛ لأن أهلها لن يتقبلوا هذا الرفض غير المبرر بعد الآن، بل إنهم قد بدءوا يتشككون في حقيقة الأمر.

نظر إلى النجوم نظرة أخيرة؛ لعله يهتدي بها إلى أي بارقة أمل في الحفاظ على حب حياته، إلا إنه لم يجد نجمًا واحدًا في السماء كي يهديه السبيل، فلم يطل النظر، ولم يأخذ وقتًا ليتمنى لها التوفيق في حياتها، ولكنه طلب منها وهو يستحلفها بحبهما أن تعطيه فرصة أخيرة؛ حتى يتمكن مِن تعديل الأمور في أقرب فرصة ممكنة، لم يطلب منها الانتظار، ولكنه طلب منها أن تخبره قبل أن تسارع بالموافقة على أي شخص؛ لعل وعسى تكون ظروفه قد تعدَّلت.

الغريب في الأمر أنها رفضتْ طلبه، متحججة بأنها لا تحتاج إلى أخْذ إذن منه قبل أن تبدأ حياتها، فإن لم يستطع هو أن يغير مِن ظروفه ليكون رجُلها فلا مجال على الإطلاق لكي تتصل به لتستأذِن في الارتباط بشخص آخر، وطلبتْ منه أن يخبرها عندما تتعدل ظروفه، فإن كانت لم ترتبط بعد فإنها ستكون حقًّا سعيدة لتستكمل حياتها معه، ولكنه يجب ألا ينتظر منها أي شيء؛ لأنها لم يعد بإمكانها الارتباط حتى ولو بِوَعد معه.

نظر لها وهو يعيد سؤاله مرة أخرى إن كانت بالفعل قد بدأتْ علاقتها بشخص آخر، فأنكرتْ بشدة واحتداد وهي تعيد نفس كلامها مِن أنها ليستْ بهذه الأخلاق التي تسمح لها بالاستمرار في مقابلته إن هي ارتبطتْ بالفعل بشخص آخر، ولكنه بسرعة سألها أن تقسم على المصحف الذي أخرجه للتَّوّ، فلم تتردد في أن تضع يدها على المصحف وهي تقسم له أنها لم ترتبط بأي شخص غيره، كما أنها لم تتقابل مع أي أحد سواه.

مدَّتْ يدها لتسلم عليه، فلم يرفع يده، وكأنها قد التصقتْ بجانب جسده، فلم يعد يستطيع تحريكها، فلم تنتظر طويلًا، ولكنها ربتتْ بيدها على كتفه وهي تطلب منه أن يأخذ باله مِن نفسه.

البعض سَيَتصور أن القصة قد انتهتْ عند هذا الحد، والبعض سيعطي لحواء كل العذر إن هي حكَّمتْ عقلها فوق قلبها حتى لا تنجرف وراء حب لا تعلم كيف ستكون نهايته في ظل هذه الظروف التي اعترف آدم نفسه بعدم قدرته على تغييرها، كما أن البعض الآخر سيتعاطف مع آدم الذي لم يستسلم لآخر لحظة، وقَّدم التنازلات تلو الأخرى، وهو يتغلب على شكوكه في أنها قد بدأتْ بالفعل علاقة جديدة، ولكن هذا لم يمنعه مِن أن يقدم حبه لها على كرامته، ويذهب لها ليطلب منها أن تبقى على حبهما.

قد يتصور البعض أن القصة قد انتهتْ عند هذه النهاية التقليدية لمعظم قصص الحب، ولكن العجيب والمؤسف في الأمر أن كل الأحداث السابقة كانت مجرد التمهيد لقصة ستبدأ الآن فقط!

الخيانة

مرَّتْ عليه الأيام بطيئة.. ثقيلة.. كئيبة، وهو يحاول جاهدًا أن يعدِّل مِن أوضاعه، وأن يجد حلًّا لهذه الظروف التي لم يعد يستطيع أن يتحملها أكثر مِن ذلك، ويبدو أن القدر كان يعلم طاقة احتماله التي تنتهي عند نقطة الانفجار، فبدأ القدر في إظهار بعض الرحمة؛ حيث بدأتْ أمور عمله في التحسن البسيط التدريجي الذي يعطي بعض الأمل لمن يمتلك اليقين في أنه دائمًا ما يكون هناك أمل.

ووسط انشغاله بهموم أعماله وحل مشكلاته التي تراكمتْ عليه حتى دفع قلبه ثمنًا لها، حدث أنه ولمدة ثلاثة أيام متتالية كان يصحو كل يوم على حلم عجيب جدًّا، حيث كان يراها كل يوم وهي تخرج مِن باب طائرة لتجد أمها في استقبالها وهي تعطيها طفلًا رضيعًا، وتطلب منها أن ترضعه، وبصحبتها شخص اتَّضحتْ له كامل تفاصيل وجهه بكل دقة لدرجة تمكِّنه مِن معرفته إن صادف ولاقاه، ولكن الغريب في هذا الحلم أنها لم تكن تستطيع إرضاع هذا الطفل، فكان هذا الشخص يقوم بإرغامها والضغط على صدرها حتى تقوم بإرضاعه.

تكرر الحلم ثلاث ليالٍ متصلة، حتى كانت الليلة الأخيرة هي ليلة يوم الجمعة ليستيقظ على نفس الحلم بكل تفاصيله المزعجة، فانتفض باحثًا عن تفسير لهذا الحلم العجيب الذي كان ينغص عليه منامه، كما كان يعكر عليه صحوه.

فتح كتب التفاسير على الإنترنت، وبدأ في البحث عن التفسير؛ لأنه تيقن أن ما يراه كل يوم ليس إلا إشارة ربانية لما ستواجهه حبيبته في المستقبل القريب.

جلس في انتظار بزوغ أول ضوء للنهار حيث حاول الاتصال بها، ولكنها بطبيعة الحال لم ترد، فما كان منه إلا أن قام بإرسال رسالة يخبرها فيها أنه قد رأى حلمًا موجعًا لها لمدة ثلاثة أيام متصلة، وأنه كان يستيقظ كل يوم وقت صلاة الفجر على هذا الحلم، ممَّا جعله متأكدًا أن هذا الحلم ليس إلا إشارة ربانية تجعله يطلب منها ألا تسافر أيًّا كان السبب؛ لأن قدرها سيبدأ لحظة نزولها مِن على سلم الطائرة.

جلس ينظر إلى الهاتف كل نصف ساعة في انتظار اتصال أو حتى رد منها على رسالته، ولكن هيهات.. هيهات.

وأخيرًا جاءته رسالة منها بعد عدة أيام تطلب منه أن يخبرها عن هذا الحلم، وهي تتهكم على كونه أصبح مِن أولياء الله الصالحين الذين يرون المنامات، ويصدِّقون أنها ستحْدث، ولكنه لم يعبأ باستهزائها؛ لأنه كان مهتمًّا في الأساس بأن يمنعها بأي شكل مِن ملاقاة قدرها الذي أصبح يصدق حقًّا أنها ستتأذى منه.

لقد كانت كل التفاسير تؤكد له أنه عندما تعطي أم لابنتها وليدًا ليس بابنها لترضعه فهذا يعني أنها تسوقها إلى اتخاذ قرار مصيري خاطئ يدمر لها حياتها، كما أن هذا الرجل الذي كان يضغط على صدرها ليس إلا زوج المستقبل الذي سيسيء معاملتها، ويضطرها إلى تقديم التنازلات التي ستحيل حياتها معه إلى جحيم.

لم يهتم بكل لغة الاستهزاء في رسالتها، وأرسل لها يطلب مقابلتها، لم تمانع، بل أنها قد قامت مباشرة بتحديد الوقت والميعاد لمقابلتهما، وكأنها كانت متشوقة لتسمع هذه القصة المسلية، أو قد يكون قد أخذها الحنين لرؤيته، وسماع صوته، والعيش في لحظات مِن الماضي الذي تفتقده، ولكن المؤكد أنها كانت تودُّ سماع أخباره والاطمئنان على أن أموره تسير إلى الأحسن.

تقابلا بعد عدة أيام أخرى، وجلسا في المقهى الذي اعتادا أن يتقابلا فيه، ولمدة عشر دقائق لم ينطقا بكلمة واحدة، وكأن كلًّا منهما يملأ عيونه مِن الآخَر قبل أن يسترسلا في الكلام الذي قد ينتهي بهما إلى النهاية المحتومة.

سألتْه عن أخبار عمله، فأخبرها أن الأمور قد بدأتْ في التحسن التدريجي، وأنه يعتقد أنه على الطريق الصحيح الآن؛ لكي يعود إلى سابق عهده، وأنه قد تحصَّل على مشروع جديد فتح له باب الأمل في أن يبدأ مِن جديد.

نظرتْ له بشيء مِن التعجب وهي تتساءل إن كان وجودها في حياته كان هو السبب في سوء الحظ الذي صادفه، وإن كان مِن الممكن أن حظه قد تحسَّن عندما خرجتْ هي مِن حياته، ولكنه ردَّ على تعجبها بابتسامة صافية وهو يقول لها أنه لو كانت هي سوء الحظ ذاته، فإنه يتمنى أن يقضي حياته كلها مع هذا الحظ السيئ على أن يتبدل حظه بدونها.

وفجأة تنبَّه أن هناك خاتم خطوبة في يدها اليمني، فسألها إن كانت قد أتمَّتْ خطبتها بالفعل، فاحتدَّتْ عليه وهي تنكر سؤاله، وتؤكد له أنها أخبرتْه مِن قبل أنها ليستْ مِن هذا النوع مِن النساء، وأنها إن كانت قد ارتبطت برجل آخر فكيف يمكن لها أن تأتي وتجلس معه! ثم أخبرتْه أن هذا الخاتم ليس إلا هدية مِن أمها، أحضرتْه لها في محاولة منها لأن تخرجها مِن جو الكآبة الذي يسيطر على حياتها، وأنه إن كان هذا هو خاتم خطوبة كما يدعي، فما أسهل أن تخلعه قبل أن تلقاه بدلًا مِن كل هذه الاستجوابات والشكوك التي تُشعرها بأنها فتاة لعوب سيئة الأخلاق.

لم يُعَلِّق، ولم يتوقف عند ردها الذي لم يقنعه على الإطلاق، كما لم يقتنع بكل قصصها التي كانت تتحجج بها مِن قبل منذ يوم ذهابها إلى الكوافير، وكأنه لم يردْ أن يصدِّق شكوكه، أو كأنه أراد أن يصدق أن ما يدور في رأسه ليس إلا شكوكًا حتى يُبقِي على أمل الرجوع إليها بالرغم مِن هذه الشكوك.

لم يعلِّق ولم يتوقف، بل بادر مباشرة بإخبارها بالحلم الذي راوده، وكيف أنه يخاف عليها مِن تفسير هذا الحلم الذي لا ينبئ بأي خير على الإطلاق، ولكنها كانت تتعامل مع الموضوع بِرُمَّتِه بشيء مِن الاستهتار والاستهزاء بتحوُّله إلى طريق الأحلام والمنامات وتفسير الأحلام، وتصديقه أنه قد أصبح مِن ذوي الكرامات.

تكلمتْ، وتكلمتْ، وقالتْ كلامًا كثيرًا جدًّا، ولكنه لم يكن يريد أن يسمعها بقدر ما كان يريد فقط أن يراها وهي تتحدث؛ لأن كلامها كان حقًّا موجعًا مؤلمًا، بل محبطًا، إلا إنه ظلَّ ينصت إليها وهو لا يسمع كلمة واحدة ممَّا تقول، حتى وجد دموعه وقد غلبتْه، وبدأتْ تفلت شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد باستطاعته أن يوقف نزيف عينيه أكثر مِن ذلك.

إحساس فظيع حقًّا عندما نجد أنفسنا مضطرين – بدافع الحب – أن نستمع لكلمات تؤذينا مِمن نُحِب، إحساس فظيع عندما نشعر أن حبنا يجبرنا على تقديم التنازلات، وقبول ما لا يمكن أبدًا أن نقبله إلا فقط مِن الحبيب، وبِاسْم الحب.

ضعفتْ أمام دموعه التي لم ترها مِن قبل، فبدأتْ لهجتها في التلطف، وبدأتْ في التحكم في نصفها الذكوري الذي أطلقتْ له العنان منذ تقابلا في الحديقة ليقود مرحلة إنهاء العلاقة بينهما، إلا أن دموعه التي استشعرت منها ضعفه اليوم جعلتْها تضعف أمام صدق مشاعره، وتتأكد مِن حجم معاناته في بُعدها...

لم تجد بدًّا مِن أن تعطي بعض المساحة لنصفها الأنثوي لكي يحاول أن يحتوي انهياره الذي لم تكن تتوقعه على الإطلاق، ولم تأخذه بعين الاعتبار في كل السيناريوهات التي وضعتْها قبل أن تلقاه.

انتهى اللقاء بينهما بدون أي اتفاق على أي شيء، لم يتفقا على أن يعودا كما كانا مِن قبل، كما لم يتفقا أيضًا على إستكمال طريق الفراق الذي أعلنتْه هي منذ شهور قليلة ماضية، بالرغم مِن أنها بدأتْه وحدها قبل ذلك بكثير.

اتصل بها في اليوم التالي ليعتذر عن لحظات الضعف التي مر بها ويطلب لقاءها مرة أخرى حتى يستكملا حديثهما الذي قطعتْه دموعه، فلم تمانع مجددًا، وقابلتْه لتعظم لديه الأمل أنه لا زال هناك أمل في أن يكون هناك بعض الأمل.

سألتْه عن أحواله، وعن مشروعه الجديد، وعن ظروفه المادية، وإن كانت قد تحسَّنتْ أم أنه لا زال يعاني قسوة هذه الظروف، فأجابها بكل التفاصيل الممكنة متخيلًا أن سؤالها اليوم هو باب أمل فتحتْه للتَّوّ ليعودا لبعضهما.

بدأت الحماسة تظهر على صوته وهو يشرح لها تفاصيل عمله الجديد الذي بدأ في التحسن التدريجي حينما اعتقد أنها بانتظار سماع إجابته حتى تخبره بقرارها بالعودة إليه لاستكمال حياتهما معًا، ولكن دومًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

بمجرد أن انتهى مِن الرد على تساؤلاتها، وبمجرد أخبرها عن أمور عمله التي هي آخذةً في التحسن التدريجي، فإذا بها تتمنى له التوفيق في حياته المقبلة، وأن يبقى دوًما على اتصال بها؛ لأنها يهمها أن تطمئن عليه وعلى أخباره، كما ولو كانت صديقًا يطمئن على صديقه بعد طول غياب.

لم يقنع بكلامها ولم يرضَ بكونها تتلاعب به لهذه الدرجة، فصرخ فيها أنهما لن يكونا أبدًا أصدقاء، وأنه لن يستطيع، بل لن يقبل أن يراها مع شخص آخر أيًّا كان، وخاصة هذا الشخص الذي رآه في منامه؛ لأنه يعلم كم العذاب الذي ستتعرض إليه إن هي أكملتْ هذا المشوار، ولكنها يبدو أنها لم تعد

تهتم بما يقبله أو ما لا يقبله، كما لم تعد تهتم بأحلامه التي تهددها بما ينتظرها مِن تصرفات القدر، لقد كانت مقتنعة تمامًا أن كل ما يقوله ليس إلا محاولات منه ليثنيها عن قرارها الذي لا يزال يصدق أنها اتخذته، ويشك في أنها قد نفَّذته بالفعل؛ لذا أنهتِ اللقاء تمامًا، كما أنهتْ آخر لقاء بينهما في الحديقة، ليكون هذا اللقاء هو بداية النهاية.

ومرَّ أكثر مِن شهر مِن البُعاد والابتعاد، وقد تقطعتْ بهما كل سبل الاتصال والتواصل، فلم يعد يبقى لهما إلا ذكرياتهما، وبعض الصور التي بقيت في هاتف كلٍّ منهما، والتي حاول كثيرًا أن يمحوها، ولكن يده لم تطاوعه أن تمحو آخر ما تبقَّى له مِن حب عمره.

وأثناء جلوسه في عمله الذي أصبح يقضي به كل وقته محاولًا استعادة توازنه، فإذا باتصال يأتيه مِن صديق قديم ليسأل عنه وعن أحواله، بعد أن سمع مِن بعض الأصدقاء ما حلَّ به، ويخبره عن استعداده لمساعدته قدر المستطاع.

كانت فرحته بتلقي اتصال صديقه كبيرة، ولكنها تجاوزْت حدود الفرحة إلى براح السعادة الملهمة بعد أن وجده يعرض عليه مساعدته والوقوف معه، الأمر الذي لم يجده مِن أقرب الناس حوله وقت كان في شدته.

تطرَّق الحديث بينهما إلى طبيعة عمله والعملاء الذي يمكنه تقديم خدماته إليهم، فإذا بصديقه يخبره عن شخص يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة جدًّا في مجال عمله.

بدأ الصديق في إنعاش ذاكرته محاولًا تعريفه بهذا الشخص عن طريق ذِكْر بعض الأصدقاء المشتركين، وحتى يقوم بتقصير المسافة طلب منه أن يدخل على صفحته على الفيس بوك، وسيجد صور خطوبته التي كانت منذ ثلاثة

أشهر، ومِن المؤكد أنه سيجد صور الحضور، حيث يستطيع أن يحدد الأصدقاء المشتركين بينهم.

ولأن القدر يعرف جيدًا كيف يستطيع أن ينفذ مقدراته مهما حاولنا الابتعاد عن طريقها أو تفاديها، سواءً بقصد أو بدون قصد، فقد قام القدر بترتيب كل شيء حتى يستطيع أن يعلم أن حبيبته هي مَن كانت حفلة خطبتها منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر على هذا الشخص الذي أخبره عنه صديقه.

بمجرد أن انتهى مِن مكالمته مع صديقه سارع بالدخول على صفحة الفيس بوك لهذا الرجل، ليجده هو نفس الرجل الذي رآه في حلمه الأول، وقد وضع صورة حفل خطوبته على حبيبته في صدر صفحته مُزَيَّلًا بتاريخ الخطوبة، حيث بدأ في تلقي التهاني والأمنيات الطيبة مِن الأهل والأصدقاء، والأدهى أنه قد وجد حبيبته وهي ترد على كل المهنئين على صفحة خطيبها كأي إثنين محبين، مُعَبِّرةً عن شكرها وامتنانها لكل مَن باركوا لهما خطبتهما.

تملَّكه إحساس شديد جدًّا بالخيانة، وكأنه قد غُرِس في منتصف ظهره خنجر مسموم لا تستطيع يده أن تصل إليه لكي تُخرجه.

تملَّكه إحساس فظيع بالغدر والخيانة، يصاحبه إحساس أفظع بالعجز.

عاود الاتصال بصديقه مرة أخرى، وفتح الموضوع تلو الموضوع قبل أن يصل إلى الموضوع الذي أراد أن يتحدث معه بخصوصه، وكأن صديقه كان ينتظر فقط أن يتمَّ فتح الموضوع حتى يستطيع أن يُخرِج ما بداخله وهو يؤكد له أنه لا يفهم كيف لهذه الفتاة التي يبدو عليها أنها بنت ناس وبنت أصل أن ترضى بهذا الكائن؟!

يبدو أن ما رآه في منامه كان صحيحًا، وها هو صاحبه يؤكد له أن هذا الشخص لا يمكن بحال مِن الأحوال أن يكون مناسبًا لهذه الفتاة البريئة

التي يظهر عليها أنها بنت أصول، ولكنه لم يستطِع أن يداري إحساسه بالخيانة وهو يطلب منه ألا يحكم بالمظاهر؛ لأن الطيور على أشكالها تقع، فإذا بصديقه يخبره أنه يعلم هذا الشخص تمام المعرفة؛ ولهذا فإنه لا يتوقع أبدًا أن تكون هذه الفتاة على شاكلته أبدًا، وإلا اختلت عنده موازين تقديره للناس.

لم يستطِع أن يتغلب على إحساسه الرهيب بأثر الخيانة عندما تأكَّد أنها كانت مخطوبة بعد أسبوع مِن مقابلتها له في الحديقة، بل أنه راجع تاريخ رسائله ليتأكد أنه يوم رأى هذا الحلم لمدة ثلاثة أيام متصلة، كان ذلك وقت خطبتها التي أنكرتْها هي تمامًا في كل لقاءاتهما، وهي تؤكد أنها ليستْ واحدة مِن الشارع، وأنها بنت ناس، وأنه مِن العيب عليه أن يقول عنها مثل هذه الأشياء، بل إنها قد أقسمتْ على المصحف أنها لم تكن مرتبطة بأي شخص، ولم تخرج مع رجل غيره، بينما هي قد تجاوزتْ ذلك إلى خطبة رسمية أنكرتْها، وتمادتْ في إخفائها عندما لم تضع صورتها أو خبرها على صفحتها الشخصية في الفيس بوك، ولكنها كانت تستخدم صفحة رجلها كنوع مِن التمويه أو لعله نوع مِن عدم الثقة في أنها ستستكمل هذا المشوار.

أرسل لها رسالة يطلب منها أن يقابلها لمرة أخيرة، ولو لعشر دقائق فقط، فلم تردّ! رسالة ثانية، فثالثة، فعاشرة، عشرين، ستًّا وعشرين رسالة حتى ردَّتْ عليه بعد أربعة أيام لتخبره أين ومتى سيتقابلان؟

ذهب إليها.. جلس أمامها.. نظر إليها مبتسمًا هادئًا محبًّا عاشقًا.. نظرتْ إليه بشيء مِن الاندهاش لهذا الهدوء الذي لم تعتد عليه طوال الشهور السابقة، وسألتْه بنوع مِن الحذر عن سبب إصراره على طلب مقابلتها، وإرساله كل هذه الرسائل، وكأن هناك أمرًا جللًا قد حدث.

لمْ يُطِل عليها وهو يسألها إن كانت قد ارتبطتْ بأحد أو... فلم تهمله ليكمل سؤاله، وأجابتْه باحتداد أنه إن لم يتوقف عن إهانتها بهذا الشكل، فستكون هذه هي المرة الأخيرة التي يراها فيها؛ لأنها لن تتقبل مثل هذه الإهانات التي تحط مِن قدرها، وتجعل منها امرأة قذرة لعوب ترتبط بشخص، وتصادق آخر، وتبقِي على علاقتها به، بينما هي مخطوبة لرجل غيره.

نظر إليها نظرة شفقة وهو يقول لها:

- أنتِ مَن حكمتِ على نفسكِ وكفى ..

الآن.. والآن فقط قد بَرِئْتُ مِن حبك ..

النكد ...!!

لماذا يَتَّهم آدم الزوج دائمًا حواء "الزوجة فقط " بأنها نكدية؟ أو دعونا نسأل السؤال بشكل صحيح: لماذا هناك دومًا زوجة نكدية ولا يوجد خطيبة نكدية أو حبيبة نكدية أو صديقة نكدية؟ لماذا يتأخر هذا الاكتشاف عادة إلى مرحلة لاحقة مِن العلاقة؟ ولماذا لا يستطيع آدم أن يكتشف أعراض النكد عند حوائه في المراحل الأولى للعلاقة بالرغم مِن كونها مرحلة ثرية باللقاءات والأحاديث والاختلافات والمشاكسات والخصام والمصالحة عكس مرحلة الزواج التي يغلب عليها إما الصمت أو الخناق؟

يبدو أن آدم خلال هذه المرحلة الحاسمة يحجم عن المغامرة بتشويه صورة حواء في عينيه، وإلا لما أقدم أبدًا على إتمام الزواج مِن امرأة يتشكك بشكل أو بآخر في أنها.. امرأة نكدية!

ما مظاهر النكد التي لا يكتشفها آدم إلا بعد الزواج ويبدأ في التذمر بسببها، بينما لا يستطيع أو لعله لا يريد أن يقترب منها في مراحل ما قبل الزواج؟

جلس وحيدًا بمدخل المقهى التي اعتاد أن يذهب إليها بشكل يومي ليدخن الشيشة، ويجلس مع الأصدقاء ليلعبوا الطاولة أو الكوتشينة، أو يشاهدوا مباراة كرة قدم، أو يتسامروا في أمور الحياة، ولكنه في هذا اليوم قرر أن يجلس وحده بعيدًا عن أصدقائه لأنه لم يكن في حال تسمح له بمسامرة الأصدقاء كما اعتاد هو، وكما اعتادوا هم أيضًا عليه.

أمسك الهاتف وهو يقلب في الرسائل التي تسلمها مِن زوجته طوال اليومين السابقين بعد خناقة مِن التي اعتاد عليها، والتي لم يعد يفهم لماذا تحدث،

وما هو منطقها وراء هذه الخناقات التي أصبحت هي الروتين اليومي لحياته معها!

ظل يسأل نفسه عشرات الأسئلة التي تبدأ جميعها بلماذا، ولكنها للأسف تنتهي جميعها بنفس الإجابة.. لا أعرف.

لماذا تتعمد استفزازي بأسئلتها الغريبة التي لا مبرر لها؟ لماذا تُصِرُّ على إعادة نفس السيناريو الذي نتشاجر بسببه بشكل يومي؟ لماذا تستمر في الخناق وهي متأكدة أن ردي لم ولن يختلف؟ لماذا لا تريد أن تعطينا مهلة مِن هذه الخناقات اليومية وتحاول أن تجعلنا نعيش بدون صراعات غير منطقية ولو لفترة هدنة سلمية؟ لماذا لا تُقَدِّر ما أقوم به مِن أجل هذا الكيان الأسري؟ لماذا يراودني هذا الشعور بحزنها عندما تراني سعيدًا؟ لماذا تتضايق إذا خرجْت؟ ولماذا لا تقدر تعبي واحتياجي إلى بعض التغيير والراحة بعد تعب وعناء يوم عمل شاق؟ لماذا لا تستطيع أن تتفهم أنني في حاجة لأن أعيش لحظات صمت وأن أستمتع ببعض الوقت لا أفعل خلاله شيئًا؟ لماذا يتوجب عليَّ أن أجلس أمامها مستمعًا لشكواها ولا يتوجب عليها أن تتركني أفكر في همومي كنوع مِن المشاركة.. فقط بأن تتركني في حالي؟

عشرات الأسئلة التي ظلَّت تدور بعقله وهو جالس في المقهى وحيدًا بعيدًا عن أصحابه، محاولًا الوصول إلى أي إجابة تريحه مِن هذا التفكير القاتل الذي يصل به دومًا إلى طريق مسدود وُضِعَتْ في آخره لافتة كبيرة مكتوب عليها بكل وضوح: "نهاية الرحلة".

وبينما هو جالس غارق في تفكيره، إذا برجل مُسِنّ ذي شعر أبيض، وتجاعيد حفرها الزمان بعناية على جبينه يجلس بجواره يراقب انفعالاته وحركاته، وهو يقرأ الرسائل التي نغَّصتْ عليه حياته، والتي جعلتْه على ما يبدو يأتي

بحركات، ويصدر أصواتًا تنبئ كل مَن يشاهده أن هذا الرجل يمر بأوقات صعبة إن لم يكن يمر بحالة نفسية عصبية غير طبيعية.

فجأة وبدون مقدمات بدأ هذا المسنّ الحديث معه وهو يخبره أن الحياة أسهل مِن أن نعيشها بهذا القدر مِن التعقيدات، وأنه يجب عليه أن يأخذ الحياة ببساطة؛ لأن المقدور لن يغيره عصبيتنا في التعامل معه.

نظر إليه نظرة استخفاف، ولكنه امتنع عن الرد عليه؛ لأن حالته المزاجية لم تكن تسمح له ببدْء حوار مع متطفل مسنّ يريد أن يسلي وقته عن طريق إعطاء النصائح.

نظر له وابتسم ابتسامة لا تنبئ أبدًا بالترحاب، وأشاح بوجهه عنه، وكأنه يخبره بوضوح أن هذا ليس وقتك.

ولكن على ما يبدو، فإن صديقنا المسنّ كان لديه مِن الفراسة والإصرار في نفس الوقت ما جعله يستشف ما يدور برأس هذا المسكين، وهو ما جعله لا يهتم بما تعنيه نظرته، وواصل حديثه معه غير عابئٍ بردّه أو عدم ردّه.

- صديقنا المسِنّ: زمااان وأنا في سنك، مكنتش بستحمل كلمة مِن مراتي، وكان أي كلمة منها لازم تسبب خناقة بيننا.
- صديقنا الشاب: (نظرة استغلاس)!
- المسن : كنت بقعد كتير جدًّا أسأل نفسي هي ليه بتعمل كده؟ وليه بتحب النكد زي عينيها؟
- الشاب: (نظرة استغراب)!
- المسن : وكنت أسيب أصحابي، وآجي أقعد زيك كدة لوحدي، وأقعد أكلم في نفسي لغاية اللي حواليا ما كانوا بيتخيلوا أني لاسع، ومخّي فَوّت خلاص.

- الشاب: (نظرة اسهلال)!
- المسن : الغريبة بقى، إني على قد ما كنت بقعد أفكر وأسأل نفسي مِيت ألف سؤال، لكن عمري ماكنت بلاقي إلا إجابة واحدة دايمًا، طبعًا إنت أكيد عارفها.. مش كدة! هاهاها!!!!!
- الشاب : لأ معرفش!
- المسن : بالظبط كدة.. هي دي الإجابة.. موش عارف.. هاهاهاها!!!!!!!!!!
- الشاب : طب إيه.. عملت إيه بعد كل ده؟

قام صديقنا المسنّ وقد نقل نفسه إلى الكرسي الملاصق لصديقنا الشاب:

- المسن : أبدًا يا سيدي، بطلت أفكر في اللي هي بتعمله أو تقدر تعمله، وابتديت أفكر في اللي أقدر أنا أعمله.
- الشاب : يعني إيه! والنبي يا عم الحاج أنا مش ناقص ألغاز.
- المسن : يا عم لا ألغاز ولا حاجة، بس الواحد لما بيكون عنده مشكلة مبيقدرش يشوف إيه غلطته، ومبيبقاش شايف غير غلط اللي قدامه، مع إن الحل دايمًا بيكون في إننا نصلح غلطنا قبل ما نطلب مِن اللي حوالينا يصلحوا هما غلطهم.
- الشاب : والله! طب وطلع إيه غلطك بقى؟
- المسن : أنا كان قدامي تلات حلول مالهمش رابع، يا أطلقها وأستريح، وأبدأ مِن جديد وأنا ونصيبي، يا إما أعيش معاها وأنا مش قابلها وأفضل عمري كله متنكد!
- الشاب : أيوة.. إيه بقى الحل التالت؟
- المسن : إني أقبلها زي ما هي، وأشوف إزاي أعرف أعيش معاها!
- الشاب : يا سلام.. والله!

- المسن : الحل بمنتهى البساطة يا بني إني ألاقي حل، أنا اللي تعبان معاها، وأنا اللي بشتكي مِن إنها نكدية، يبقى الحل بمنتهى البساطة إني أنا اللي ألاقي الحل.. بس.
- الشاب : ولقيت إيه بقى الحل اللي خلَّى جنابك بقيت فيلسوف قوي كدة وبتوزَّع نصايحك على الناس في القهاوي؟
- المسن : هاهاهاااااا أنا فعلًا لقيت الحل مِن زمان، وعشت بيه أحلى أيام حياتي كمان.
- الشاب : قوللي.. اتفضَّل كمِّل فلسفتك يا حاج، ماهي ناقصة فلسفة!
- المسن : أبدًا يا سيدي، لا فلسفة ولا غيره، بس الموضوع أصله سهل قوي وإحنا اللي بنصعبه على نفسنا، زي ما نكون عايزين نعيش في دراما سينمائية، فبنحاول نخلق أي قصة تعمل لنا الدراما اللي عايزين نعيش فيها.
- الشاب : أيوة.. أيوة.. قوللي كدة بقى، أتاري أنا السبب ومش عارف، أنا اللي عايز أعيش في سواد، وعايز أكره عيشتي، وبتلكِّك لها، أيوة ما هي ناقصاك!
- المسن : يا عم اصبر عليَّ، إنتَ طلقك حامي كدة ليه؟
- الشاب : اتفضل، لما نشوف آخرتها إيه، ما هي ناقصة أصلًا!
- المسن : أولًا، خلينا نتفق على أن فيه احتمالين مهمين جدًّا لازم تعرفهم، إما إن مراتك فعلًا ست نكدية بطبعها، وإن النكد عندها هو جين متأصل فيها بيخلِّيها تحس بكيانها، ويديها فرصة تفرض شخصيتها، وتحسّ بوجودها، والكلام الخايب ده.
- الشاب : أو إيه؟ هو فيه احتمال تاني إنها تكون بتنكِّد عليَّ مِن باب التسلية مثلًا؟

- المسن : لأ يا فكيك، الاحتمال التاني أن تصرفاتك تكون هي اللي بتخلي ردة فعلها بالشكل ده، إن سعادتك تكون أساسًا زوج ممل ورخم، وطبيعي جدًّا أن الست لما تكون عايشة مع واحد ممل ورخم تبقى نكدية.
- الشاب : وبرضو طبيعي إن الواحد لما يكون عايش مع واحدة بتحب النكد زي عينيها إنه يبقى رخم وغلس.
- المسن : حلو قوي، وصلنا لمربط الفرس، البيضة ولا الفرخة، صح؟
- الشاب : والله البيضة ولا الفرخة مش فارقة، في الآخر الكتكوت طلع عين أهله خلاص، وعايز ينتحر جوة حلة ماية بتغلي، أهو يبقى نفع بحاجة، وطلعنا منه بشوربة كتاكيت.
- المسن : يا واد يا فكهي، طب ما إنت حلو أهو وبتنكِّتْ، أُمَّال نكد إيه بقى اللي بتتكلم عليه؟ ده إنت الظاهر إن مزاجك بقى بييجي على النكد ودمك بيخف يا خفيف.
- الشاب : (نظرة زهق).. ونظرية الاحتمالات بتاعتك دي وصَّلتك لإيه بقى إن شاء الله؟
- المسن : أبدًا يا سيدي، لكن لو صدقت في الاحتمال الأولاني إن مراتك نكدية بطبعها، فمش حيكون قدامك إلا الحل الأولاني لو ماهياش فارقة معاك، ومش قادر تستحمل، ولو حتعمل خاطر للعشرة والعيال والحب، ولقيت لنفسك مِيتْ سبب علشان تكمل مع واحدة إنت متأكد إنها نكدية بطبعها، تبقى اخترت الحل التاني، ولازم تستحمل تَمَن اختيارك.
- الشاب : تقصد إني لو حكِّمل معاها، فده معناه يا إما إني مصدق إنها مش نكدية بطبعها، وإن النكد ده ردة فعل محتاج إني أغير أسلوبي معاها، أو إني استسلمت خلاص للواقع المرير علشان العشرة

والبطيخ، ومهما عملت لا يمكن حتتغير، ولازم أستحمل طالما ده اختياري.

- المسن : إسم الله عليك، هوه ده اللي أنا وصلت له مِن أكتر مِن عشرين سنة.
- الشاب : وبعدين.
- المسن : أبدًا يا سيدي، كدة مبقاش قدامي إلا حل واحد.
- الشاب : اللي هوه إيه بقى؟ أنا زهقت.
- المسن : علشان أعرف إن كانت نكدية بطبعها ولا ده مجرد ردة فعل، لازم أنا الأول أعمل اللي عليَّ، وأغير أسلوبي، وأشوف ردة فعلها، لو فضلت زي ما هي يبقي النكد عندها هواية، وتبقى هي اللي وصلتني للقرار الأخير اللي مفيش منه مفر.
- الشاب : اللي هو الطلاق تقصد.
- المسن : مش شرط، ممكن أخليها وأخلص بيها ذنوبي.
- الشاب : يا سلام! والله! وطبعًا لو فاجأتني وبطلتْ نكد يبقى أنا اللي كنت غلطان وظالم وابن...
- المسن : هو إنت يهمك تعرف مين اللي غلطان ولا يهمك تلاقي حل، يا ابني لما نكون تعبانين ما يهمِّش ساعتها مين السبب بقدر ما هو مهم إننا نلاقي الحل، ونعالج مشكلتنا الأول، وبعدين نبقى نقعد ونشوف مين السبب، ونعاتب ونتعاتب.
- الشاب : وعملت إيه بقى علشان تبقى عملت اللي عليك؟
- المسن : أبدًا يا سيدي، جيت قعدت على القهوة زي حالاتك كدة، وقعدت أفتكر كل حلقات مسلسل النكد اللي عَدِّتْ عليَّ، وحاولت أفكر في إيه اللي بيخليها تنكد عليَّ، تقدر تقول إني غيرت طريقة تفكيري، يعني بدال ماكنت بسْأل نفسي زي حالاتك كدة هي ليه مش

عايزاني أبقى مبسوط، بقيت بسْأل نفسي، إيه اللي ممكن أعمله علشان أخليها مبسوطة؟ أو بمعنى أوضح، إيه اللي ممكن أعمله ليها علشان ماتلاقيش حِجة تنكد بيها عليَّ؟

- الشاب : ولقيت إيه بقى اللي كنت بتعمله وبيخلِّيها تنكد عليك؟
- المسن : مش مهم اللي أنا لاقيته، المهم اللي كل راجل لازم يلاقيه؛ لأن مراتي غير مراتك، مفيش ست بتشبه ست تانية أبدًا، ربنا خلقهم كدة، كل واحدة فيهم كوكتيل لوحده، لا يمكن تلاقيله شبه مهما حاولت.
- الشاب : يعني إيه؟ يعني بعد ده كله مش حتقولي أعمل إيه؟
- المسن : أنا لسة قايللك حالًا، بس إنت اللي عايز حد يديك الدوا بالمعلقة في بقك، لكن الحاجة اللي إنت مش قادر تفهمها لغاية دلوقتي إن الحل عندك إنت، إنت بس اللي حتعرف تلاقي حل، وتقدر تاخد القرار المناسب، مش بس علشان إنت اللي متعذب بالعيشة النكد دي بس، لأ خالص، لكن لإنك إنت اللي عارف مراتك كويس، وعارف إيه الحاجات الحلوة اللي فيها اللي مخلِّياك مستحمل نكدها ده كله لغاية دلوقتي.
- الشاب : أنا تعبت خلاص، وعايز أخلص منها ومِن نكدها، أنا مابقتش مستحمل، ولا عايز أشوفها تاني.
- المسن : تبقي عبيط، أهو كدة تبقى عبيط!
- الشاب : (نظرة واحد مخنوق قوي).
- المسن : بقي إنت لو مش عايز تشوف خلقتها، كنت قعدت القعدة دي تكلم نفسك وإنت شايل طاجن سِتَّك، قال مبتحبهاش قال!
- الشاب : يعني أرمي عليها اليمين دلوقتي علشان تستريح!
- المسن : أنا اللي أستريح! هاهاها!!!!! والله إنت بتفكرني بنفسي مِن عشرين سنة، بص يا بني، طالما قاعد هنا، وبتفكر وبتحاول تفهم إيه

اللي بيحصل، وليه بيحصل، وعلشان إيه بيحصل، يبقي إنتَ لسة بتحبها، وطالما لسة بتحبها يبقى عذابك حيستمر لغاية ماتلاقي حل لإننا للأسف مبنتعذبش إلا مِن اللي بنحبهم، لكن اللي مباقوش فارقين معانا خلاص، لا بيعذبونا، ولا بيكونوا سبب في عذابنا لإنهم مش فارقين معانا أصلًا.

- الشاب : يعني كل ده بسبب إني بحبها!
- المسن : لأ يا فكيك، كل ده علشان إنت لسة مالقيتش حل لمشكلتك مع مراتك، كل ده علشان إنت فاهم إن دي مشكلتها اللي لازم هي تعرف إزاي تحلها ولوحدها، كل ده يا فكيك علشان سعادتك عايش في دور الضحية، دور المريض، ومش عايز تفهم إنك مش ضحية، ولا إنت حتى مريض، إنت الدكتور اللي حيعالج، يا دكتور.
- الشاب : يعني إيه؟
- المسن : أقعد وفكر بشويش إيه اللي بيخلي مراتك تتحول زي دراكولا؟ أقعد بينك وبين نفسك كدة وفكَّر، حتلاقي إن فيه حاجة معينة هي اللي بتطلَّع الست النكدية اللي جواها، وصدقني بنسبة تسعة وتسعين في المية حتلاقي إنك مشترك بنسبة كبيرة في تحولها اللي إنت مش طايقه ده.
- الشاب : تصدق وتؤمن بالله، أنا اللي غلطان إني ضيعت وقتي معاك.
- المسن : بيتهيألك، دلوقتي حتقعد، وتبدأ تفكر، وحتعرف إن كل كلمة قولتهالك كانت صح، مراتك يا بني لا يمكن تكون زي أمها، ولا زي بنتك، مراتك ست، يعني حالة وحيدة فريدة مبتتكررش أبدًا، ويا إما حتستحملها زي ما هي كدة علشان بتحبها، أو حتصدَّق فعلًا إن حواء مبتتكررش، وحتحاول تعمل اللي عليك علشان تعرف تعيش سعيد معاها قبل ما توصل لأسهل.. أصعب قرار.

- الشاب : بس أنا مش عارف!
- المسن : تقصد إنك كنت مش عارف، بس إنت لسه عارف حالًا، إزاي تعرف! أقعد وفكَّر، وأنا متأكد إنك حتوصل للحل.
- الشاب : طب وإنتَ عامل إيه مع مراتك دلوقتي؟
- المسن : الله يرحمها، ملحقناش نتهنَّى بالتركيبة السحرية اللي وصلت لها.
- الشاب : الله يرحمها! هي ماتت؟ إمتى؟ إزاي؟ إيه اللي جرى؟
- المسن : أبدًا، الظاهر إنها مقدرتش تعيش مِن غير النكد، فماتت متنكدة مِن قلة النكد.
- الشاب : تصدق؟ ولا بلاش أغلط، إنت برضو قد أبويا.
- المسن : اعمل إنت بس اللي عليك، وسيب الباقي على ربنا، ده رحمته واسعة قوي.
- الشاب : ونعم بالله، أنا بيتهيألي إني فهمتك.
- المسن : مش قولتلك، أقعد وفكَّر، وأكيد حتفهم كلامي.
- الشاب : يا بن اللعيبة!

الثَّمن

عندما نتعلق بشخص ما أو شيء ما، فإنه مع الوقت يصبح هو محور حياتنا، ومركز تفكيرنا الذي ندور في فلكه، ونسبح مع تياره لنجده وقد تمدَّد داخلنا، وقد تملَّك علينا أحاسيسنا وتفكيرنا، وسيطر على أحلامنا وأفعالنا، ليصبح هو العامل المشترك الأعظم في كل معادلات حياتنا.

عرف الحب طريقه إلى هذا البيت منذ بداية تكوينه بين زوجين عاشقين عاشا سَوِيًّا قصة حب شبابية لا زالت تنبض إلى الآن بحب على قيد الحياة، ولكن القاعدة أن لا شيء يبقى أبدًا على حاله، فكل شيء فينا يتغير سواء بفعل الزمن أو بدخوله إلى حيز المنافسة مع مثيله أو نقيضه، وكلاهما في إحداث التغيير سواء.

ولأن الحب هو كائن متجدد متغير ديناميكي، يتأثر بميولنا ورغباتنا مِن جهة، وبتفاعلنا مع مَن حولنا وقدرتهم على التأثير فينا مِن جهة أخرى؛ لذا فإنه يصعب علينا جدًّا مقاومة الحب، وعنف هجماته، وتنوع متغيراته، خاصةً عندما يباغتنا في صور وأشكال كثيرة لا نعلم أثرها علينا إلا عندما نختبر وقعها على أنفسنا بأنفسنا، مهما سمعنا عنها، أو رأينا أثرها على غيرنا.

وقع في غرامها بمجرد أن وقعتْ عيناه عليها، عشقها وتعلق قلبه بها، أحبها كما لو أنه لم يحب يومًا قبلها.

فجأة وبدون مقدمات أصبحتْ هي امرأته التي اختارها بقراره المنفرد، وفضَّلها على كل النساء اللاتي فرضهنَّ عليه القدر سواء كانت أمه أو أخته، أو حتى زوجته! لم تكن له فقط ابنة منحتْها له الحياة، لقد كانت له هي كل الحياة!

احتلَّتْ مكانتها في حياة والدها منذ ولادتها؛ حيث أصبح لا يرى جمال الحياة إلا في بسمتها، ولا يشعر بنسائم السعادة إلا في أنفاسها، فيفرح كما الطفل بسماع صوت ضحكتها، ويصيبه الهمُّ والغمُّ إن هي بدأتْ فقط.. في البكاء!

هل هناك نوع مِن الحب يمكن أن نُطْلق عليه الحب المرضي؟ هل هناك حقًّا مَن قد يصاب بداء الحب الذي يتملك مِن كل أفعاله وردود أفعاله بحيث لا يرسل أو يستقبل إلا حبًّا في اتجاه ومِن اتجاه منَ يُحِب؟

لا أعتقد أن هناك ما يسمَّى بالحب المرضي؛ لأن الحب في الأساس هو مرض نصاب به جميعًا مهما تقدَّم بنا العمر، ومهما أخذنا له مِن احتياطات.

ولأننا جميعًا نصدق بفطرتنا في حتمية الوقوع في الحب؛ لذا فإنه مِن غير المستغرب أن نجدنا جميعًا ونحن نسعى للإصابة بداء الحب مغمضي الأعين، مغيَّبي العقل، بالرغم مِن علمنا المسبق والمؤكد بأصل الداء، وشكل الأعراض، وتعاقب النوبات، وخطورة الإصابات، نقلًا عن كل مَن سبقونا.

والأدهى والأمرّ مِن ذلك أننا للأسف نسعى إلى الحب بإرادتنا المنفردة، ونحن نعلم علم اليقين صعوبة الخلاص منه، ومرارة الدواء التي تجعله أشد سقمًا علينا مِن الداء نفسه، ولكن كل هذا لم يوقف يومًا سعينا إليه، ونحن نبذل المستحيل حتى نقع فيه، وكأننا على قناعة بأننا الوحيدون في هذا الكون الذين يمتلكون المصل الواقي مِن أعراضه ونوباته وإصاباته.

لهذا لا تصدقوا أنه يوجد ما يسمَّى بالحب المرضي، فكل الحب هو في الأساس مرض!

فالحب هو ذلك الغازي المستبد المُرَحَّب دومًا بغزوه لنا، المرجو منه أبدًا أن يتلطف بضعفنا، المأمول فيه أن يكون أشد تفهمًا لحالنا مِن دونه، إنه هذا المستعمر الذي يستولي على مخزون العواطف والأحاسيس لدينا بطلبنا

ورجائنا وتوسُّلاتنا إليه، ونحن نقدِّم التنازلات تلو التنازلات لنقبل منه أن يسلبنا قدرتنا على التفكير خارج قيده المرمري، لنصبح في وجوده له عبيدًا، ونحن مَن كنا في غيابه عبيدًا لحلم الوقوع في أسْر الحب.

تعلَّق قلبه بها، وبدأ في رسم الأحلام والأمنيات حول مستقبلها كما أراده هو لها، وكما تخيَّله كثيرًا في أحلام يقظته وهو يراها سيدة بنات حواء التي سيحوم حولها كل الرجال، وكأن الأرض ستخلو مِن النساء إلا بُنَيَّته التي أحبها بجنون، وتعلَّق بها قلبه، فلم يعد يقبل فكرة أن يأخذها منه أحد تحت أي مسمًّى، حتى ولو كان تحت مسمَّى زوج المستقبل.

كانت كل أحلامه تدور حولها ولها وبها، فلم يكن يفكر إلا في كيفية إسعادها، وتوفير كل ما تتمناه قبل أن تطلبه.

رباها لتصبح هذه الفتاة الرقيقة التي تسحر الجميع بدلالها وجمالها، وفي المقابل علَّمها أن نجاحها هو في الوصول إلى ما تتمناه بالشكل الذي تريده في التوقيت الذي يرضيها.

لقد سخَّر نفسه ووقته وإمكاناته حتى يتأكد مِن نجاحها في حياتها الذي يثبت نجاحه في خلق وتربية هذه الشخصية التي تمتلك كل مقومات الأنثى التي يتمناها الجميع، ولكنها أيضًا تمتلك القوة التي تجعل هذه الأمنيات فقط أمنيات؛ لأنه في المقابل قد اعتاد أن يراها امرأته وأميرته التي لا ولن يستحقها أحد مِن الرجال إلا هو فقط.

لقد تملَّك منه حبها بالشكل الذي جعله يتخيل أنها تشاركه نفس الأحلام ونفس المخططات، بالرغم مِن أنها لم تكن في سن يسمح لها بالتفكير في أكثر مِن متطلباتها اليومية التي كانت تتحصل عليها بإشارة منها، ولكنه تخيل أن عطاءه اللا محدود لها سيفرض عليها أن تشاركه أحلامه فيها.

فبالرغم من أن الحب يخلق داخلنا هذا الكم الهائل مِن مشاعر العطاء غير المشروطة لمن نحب، والذي يجعلنا نشعر بالسعادة، منتهى السعادة، ونحن نمنح منَ نحب كل ما نستطيع حتى ولو على حساب احتياجاتنا ومتطلباتنا.

إلا إنه في المقابل، فإن مشاعر العطاء غير المشروطة هذه تولد فينا شعورًا ضمنيًّا بالتملك، أو لكي يكون التعبير أدق، شعورًا ضمنيًّا بأحقية التملك.

إنها هذه المعادلة الصعبة بين الشعور المطلق بالعطاء غير المشروط للحبيب، والإحساس الضمني بأحقية التملك الذي يجعلنا نقف في موقف الحارس الأمين ونحن لا نرى أمان المحبوب إلا في وجودنا بجواره، ولا نرى مصلحته إلا فيما نراه والذي نعمل ونجتهد في أن نفرضه عليه فرضًا.

إنه هذا الإحساس الذي يجعلنا نرى كل مَن يحاول مجرد الاقتراب مِن المحبوب هو مكمن خطورة يطلق داخلنا صافرات إنذار تحفزنا، وتستدعي جاهزيتنا لحماية المحبوب، وملازمتنا له، وتجعلنا نعمل على تعظيم إحساسه بالخطر الذي يجب أن يتلاشى طالما كنا نحن في الجوار نرى ونسمع وننصح.

بل إن الأمر يتجاوز عادة مرحلة الإحساس والتحفيز إلى مرحلة الغضب والتنقيز إن لم يستمع المحبوب لما افترضناه نحن نصيحة، التي تتحول إلى أمر نافذ لا يقبل إلا التنفيذ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور!

فالحب يبدأ عادة مِن مرحلة العطاء غير المشروط الذي ينمي داخلنا الإحساس بأحقيتنا في مشاركة المحبوب وقته وفكره وأفعاله وأحلامه، ليتحول هذا الإحساس مع الوقت إلى حالة مِن الأنانية المطلقة في التعامل مع المحبوب بتحولنا مِن الإحساس بالمشاركة إلى التملك الصريح تحت مسمىً الحب!

مرَّتِ السنون عليهم وهي تزيد مِن إحساسه بالخوف عليها بالرغم مِن أنه قد رُزِق بإخوة لها، إلا إنها كانت بالنسبة له هي حواء التي سكن معها الجنة يوم وُلِدَتْ حتى هبط إلى الأرض ليلاقي قدره، ويستكمل أفراد عائلته الذين لم يستطع أحدٌ منهم أن يقترب مِن مكانتها داخل قلبه.

تربَّتْ على أن كل طلباتها مجابة أمرًا، فلم يعد مستغربًا أن يخلو قاموس مفرداتها مِن أي كلمة قد تحوي معاني الرفض ولو ضمنيًّا.

كانت هي الأخت والابنة وسيدة الدار الفعلية التي لا يمكن لأحد أن يرفض لها أمرًا بحكم نافذ مِن الأب الذي أعطاها هذه الصلاحية أمام كل أفراد العائلة، فأصبحتْ هي الآمر الناهي وسط العائلة التي أقرَّ لها جميع أفرادها بمكانتها وحقها وصلاحياتها التي أخذتْها بمباركة الأب وهو يزرع داخلها فكر الندية، وعدم الاستسلام لفكرة ضعف الأنثى أمام أي رجل.

ولكي تكتمل هذه المكانة التي وصلتْ إليها بمباركة الأب، كان لا بد أيضًا مِن الحصول على موافقة الأم التي كانت تحاول جاهدة أن تجعلها لا تنسى أنها أنثى؛ حتى لا تفقد ميزة خلقها، فكانت تهتم بملابسها ومكياجها، وطريقة كلامها، وجلوسها، ومشيتها، ووقفتها كما لو كانت الأم هي مُدَرِّسة الإتيكيت المنتدبة لتعليمها فنون الأنوثة.

علَّمتْها أمها أن المرأة لا يجب أن تتنازل عن تيجان حسنها التي منحها إياها الخالق القدير، وذلك بالحفاظ على نظافة جسمها التي تكسبها الثقة في النفس، وأن تجعل دومًا شعرها هو عنوان جمالها الذي يجب ألا تخطئه أبدًا العيون تحت أي ظرف حتى عند استيقاظها مِن النوم.

علَّمتها أمها أن ملابسها هي بطاقة تعارفها التي ستقدمها لكل مَن يراها، وأن اهتمامها بملابسها لا يعني اختيار الغالي مِن الملبوسات بقدر ما يعني اختيار

المتناسق منه مع الاهتمام بالإكسسوارات التي تجعل الآخرين لا يلتفتون إلى هفواتها وهم يشاهدون حسن طلتها.

كما لم تغفل الأم أن تُعَلِّم أميرتها آداب الحديث، وكيف يكون صوت الأنثى وإيماءاتها هي أحد أقوى أسلحتها إذا ما أحسنتْ استخدامه، فتعلَّمتْ كيف تخفض مِن صوتها إذا أرادت أن تجعل مَن أمامها يسمع صوت أنوثتها جليًّا، وأن تكتم ضحكتها لتضفي نوعًا مِن الغموض على شخصيتها، بينما تجعل مِن نظرة عينيها رفضًا بدون أن تتحرك شفتاها، في حين تجعل مِن ابتسامتها موافقة لا تحوي أي وعود، ولكنها في المقابل تعطي الكثير مِن الأمل.

تعلمتْ منذ صغرها كيف أن التعامل مع آدم يتطلب منها منتهى الحزم الذي لا يتوقعه آدم عادة مِن حواء حتى تستطيع أن تفرض شخصيتها عليه، فلا تصبح يومًا مطمعًا لأي آدم مهما كان مقامه أو سُلْطته أو مكانته عندها.

كما تعلمتْ كيف ومتى تستدعي الأنثى مِن داخلها حتى تستطيع أن تسيطر على كل مَن تصوَّر في نفسه قوة ذكورية يتطلب التعامل معها استخدام سلاح الضعف الأنثوي الفتاك الذي لا يعمل إلا بالمباغتة وقت الحاجة إليه!

وكبرت الابنة، وكبر بداخلها إحساسها بالاختلاف عن كل مثيلاتها، كما كبر داخلها أيضًا هذا اليقين بأن الدليل على حب مَن يحبها هو في الاستجابة غير المشروطة إلى طلباتها مهما بدا مِن عدم عقلانية هذه الطلبات، ولكن يكفي أنها تريد ما تريد ليصبح ما تريد في حكم المجاب ضمنيًّا.

كَبُرَت البنت الصغيرة التي كانوا يضحكون مِن أفعالها عندما كانت تنتعل حذاء أمها، وتضع مِن أحمر شفاهها، فكانت صنيعتهم كما تصوَّروها يوم ولادتها.

مرتِ السنون عليهم بكل ما فيها مِن تجارب كثيرة اختبروا فيها صنيعهم، ورأوا منها هذه الشخصية العنيدة المتسلطة التي لم تعد تقبل أن يُرفَض لها طلب، ولكنهم لم ينتبهوا لمدى خطورة هذه الشخصية عندما ستبدأ في التعامل خارج نطاق الأسرة التي قد تقبل مِن أميرتهم كل شيء وأي شيء بدلال وحب وإغماض للأعين عن قسوتها في ردَّة الفعل، ونسوا أن خارج نطاق الأسرة سيختلف الفعل، كما سيختلف حتمًا ردة الفعل.

انقضت السنون ولم ينتبهوا إلى أن الاختبار إذا أتى سيكون قاسيًا جدًّا عليها قبلهم، فالأهل عادة ما يسعدون عندما يرون ابنتهم تكبر أمامهم وهي تفرض شخصيتها التي تطمئنهم إلى أنها ستكون قادرة على مواجهة المستقبل بقوة.

إلا أنهم وسط مجريات هذه السعادة اللحظية يغفلون أنهم قد صنعوا شخصية متسلطة عنيدة بالقْدرِ الذي جعلها قد اعتادت على أن يقبل منها الجميع ما تريده هي فقط، فلم تعد تريد في المقابل إلا ما تتقبله هي فقط مهما كان رأي الآخرين.

عندما حان وقت الاختبار لم يعد أمامهم إلا أن يخوضوه كما أتاهم، حيث لم يعد هناك أي فرصة أخرى للرجوع بعد أن فقدوا طواعية السيطرة على أحلامها ومخططاتها.

أمضتْ فترة طفولتها ومراهقتها كما تمَّ تنشئتها لتكون هي محور حياتها ومركز أحداثها مهما تعددتِ الأحداث والشخصيات مِن حولها؛ حيث كانت هي دائمًا صاحبة الكلمة بين أصحابها وزملائها في المدرسة، وفي النادي، وبين الأقارب، والأصحاب، وأولاد الأصحاب.

كانت دائمًا هي صاحبة القرار الذي كانت تتخذه وهي متأكدة مِن أن الجميع سيعملون به، خاصةً وأنها قد امتلكتْ بجانب جمالها الملحوظ الذي يصعب

مقاومته، عقلًا ذا منطق يعرف كيف يقنع آدم، كما يعلم تمامًا كيف يحاور حواء ليصل إلى حيث تريد هي فقط.

كان الجميع يعرفون عنها قوتها في الإقناع بما تريده، ومِن ثَم فرضه بالحجة قبل أن يروا منها عنف غضبها عند الرفض الذي لم تختبره جديًّا طوال سني حياتها؛ لأنه لا أحد كان يجرؤ على الرفض مِن الأساس.

ولكن يبدو أن كل مَن حولها لم يكونوا يهتمون برفْضها لرفضهم؛ لأنها كانت تعرف كيف تستطيع أن تغلف رفضها بحُسْنِ دلالها الذي كان الجميع يطمح إليه، وكأنهم ينتظرون منها الرفض إن كان هذا هو ما سيجعلهم يستمتعون بدلالها، ويستعذبون رقتها التي لا تظهر إلا عند رفضها لرفضهم.

أعتقد أننا نفتن بأولادنا عندما نفقد القدرة على تقويمهم وردْعهم عن الوقوع في الخطأ بسبب ضعفنا أمام حبهم الذي يجعلنا نقبل منهم ما لا نقبله أبدًا مِن أطفال الآخرين.

وقبل أن تنقضي مرحلة المراهقة كانت المفاجأة التي لم يتوقعها الأب عندما أتته أميرته لتخبره أن هناك مَن ينوي الارتباط بها، لم يصدق الأب أذنيه وهو مَن عمل لسنوات طويلة حتى يبعد قدر الإمكان عن مجرد التفكير في هذه اللحظة، فإذا بها تأتيه بأسرع ممَّا تخيَّل.

وبطبيعة الحال، لم يكن أبدًا مِن الممكن إثنائها عمَّا تريده؛ لأنها كانت تملك هذه القدرة على تحويل حياة البيت كله إلى جحيم لمجرد محاولتهم إبداء الرفض، فماذا لو كان الرفض قاطعًا.

- الأب: يا بنتي إنتِ لسة صغيرة، ولسة بدري عليكِ قوي علشان تفكري في المواضيع دي!
- هي: إنت اتجوزت ماما وهي أصغر مني.

- يا بنتي زماننا غير زمانكم، إنتم عايشين في زمن تاني خالص.
- مالهاش علاقة بالزمن والأفلام الأبيض وإسود دي يا بابا.
- لأ ليها علاقة باستعداداتكم، إنتِ لسة صغيرة وهو لسة عيل، ولا شغلة ولا مشغلة.
- بالرغم مِن إنه مش محتاج يشتغل لأن باباه مش مخليه ناقصه حاجة، بس هو حيخلَّص الجامعة ويشتغل مع باباه على طول.
- يا بنتي ما ينفعش، لازم يكون خلص واشتغل واسترجل علشان أتأكد إنه يستاهلك، وإنه الراجل اللي ممكن أعتمد عليه، وأطَّمِن إنه حيحافظ عليكِ.
- متخافش يا بابا، ده بيحبني زي عينيه، ومفيش حاجة طلبْتها منه ورفضها أبدًا.
- يرفض إيه ولا يوافق إيه، ما هو بيوافق مِن جيب أبوه، الموضوع إنه يكون راجل يُعتَمد عليه، بس أقول إيه، أنا اللي عملت فيكِ كدة.

ولما استمرَّ الرفض مِن جانب الأهل، واستمرَّ الإصرار مِن قِبَلها، بدأ الاختبار في الدخول إلى مراحل المواجهة المباشرة بإعلان رفضهم المسبب، والذي قوبل منها برفضها لرفضهم المصحوب بالإصرار غير المبرر إلا بأن هذا هو ما تريده.

لأول مرة وجد الأهل أنفسهم وهم مضطرون لمواجهة هذه الشخصية التي صنعوها بأيديهم، وهم يتخيلون أنه هكذا يكون تربية حواء، فإذا بهم يواجهون كائنًا هائجًا متمردًا خرج عن السيطرة ولم يعد هناك مجال لمجرد النقاش معها.

لأول مرة وجدوا أنفسهم عديمي الحيلة وهي ترد عليهم الكلمة بعشرة، فإن حاولوا تجاهلها حتى يهربوا مِن مواجهتها، لم تكن تجد أي حرج مِن جذب

انتباههم عن طريق الصراخ والبكاء الذي تطوَّر إلى إلقاء الأشياء وتحطيمها، ثم تطوَّر أكثر حتى وصل إلى اعتراض طريقهم ودفْعهم، الأمر الذي جعلهم يشعرون حقًّا بعظم خطئهم، وأصبحوا يتوقعون بالتبعية فداحة الثمن.

استمر التجاهل مِن الأهل، واستمرتْ في المقابل محاولاتها لجذب الانتباه بكل الطرق التي تصورتْ أنها قد تكون هي السبيل للحصول على ما تريد، ولما لم تتمكن مِن الوصول إلى مبتغاها، تحولتْ إلى مخطط الإيذاء الجسدي، وذلك عندما بدأتْ في الامتناع التدريجي عن الأكل، حتى إن وزنها قد بدأ في النقصان بشكل ملحوظ، كما بدأ وجهها في الذبول، وهو ما أعطى الإحساس لكل مَن يشاهدها بفرضية مرضها الأكيدة.

ومع استمرار محاولات الأهل إثنائها عن إصرارها وعنادها الذي اعتادت استخدامه وقت الحاجة، ولم يفشل معها أبدًا، فلم يكن هناك طريقة أخرى للحفاظ على حياتها بعد أن وصل بها العند مداه ووصل وزنها أقله إلا الموافقة مرغمين على زواجها ممَّن أصرَّتْ عليه، فكان الإكراه على الزواج!

مرَّت عليهم أحداث الزواج، وكأنهم متفرجون يجلسون لمشاهدة فيلم في قاعة السينما.

تم الزواج في خلال أسابيع معدودة، والأهل لا يصدقون كيف ومتى حدث كل هذا بدون أي ترتيب أو تدخل مِن جهتهم؟ إلا إن العريس كان قد رتَّب أموره جميعها مع والده الذي تكفل بكل شيء، وخاصةً بعد أن شاهد حسنها ودلالها، ورأى أدبها وتربيتها، فاطمأن قلبه لهذا الاختيار الذي ينبئ عن بنت أصول تمنَّى أن تكون هي سبب هداية ابنه.

ومضت شهور العسل الأولى مِن الزواج، والجميع ينظر إليهما على أنهما عاشقان جديدان سينضمان إلى قائمة العشاق التي يسجلها التاريخ بكل

تفاصيلها تمامًا كما سجَّل مِن قبل قصص قيس وليلى، وعنتر وعبلة، وروميو وجولييت، ولكن المعضلة تكمن دومًا في أننا لا نعلم مدى خطأ اختياراتنا إلا بعد أن نَمُرَّ بتجربة الاختيار كاملة، ونصل لمرحلة دفْع الثمن.

- الأم: ها يا حبيبتي، قوليلي أخبار جوزك إيه؟
- هي: مش قادرة أوصف لك يا ماما، أنا حاسة إني عايشة في حلم مش عايزة أصحى منه أبدًا.
- بجد يا حبيبتي.. بجد.. إنتِ قد كدة مبسوطة؟
- أقولك إيه يا ماما، ده أنا زي ما أكون بقى عندي مصباح علاء الدين.
- مصباح علاء الدين! تقصدي إيه؟
- قبل ما أطلب أي حاجة، بمجرد ما تمر على خيالي حاجة ألاقيها عندي.
- ربنا يهنيكم يا بنتي، المهم هو أخلاقه كويسة معاكِ؟
- بقوللك يا ماما مش مخلِّي في نفسي حاجة، أنا ماكنتش عارفة إن الجواز حلو أوي كدة.
- ربنا يسعد أيامكم يا حبيبتي، بس خدي بالك لأن الجواز عمره ما بيفضل كدة على طول.
- متخافيش على بنتك، أنا عارفة أتعامل معاه إزاي، ده أنا ربايتك.
- ما هو ده اللي مخوِّفني!

أغرقها حبًّا، فلم تنتبه إلا لعطائه اللا محدود اللا مشروط، وتلبيته لطلباتها المادية والعاطفية، الأمر الذي جعلها تتخيل على قلة خبرتها أن الحياة ستسير هكذا بين طلباتها التي لا تنتهي، وعطائه اللا محدود، فعاشت في سعادة بعد أن أغمضتْ عينيها حتى لا ترى منه فقط إلا ما يسعدها.

كانت كل أيامهما خروجًا وسهرًا ورقصًا وغناءً كما لو كانا يعيشان في إحدى قصص ألف ليلة وليلة، فلم يعد هناك شيء تتمناه إلا وهو يحدث في التوِّ واللحظة.

ثلاثة أشهر مرتْ عليها وهي تصحو بعد الظهر بقليل، لتجد الإفطار وقد جهَّزتْه الخادمة بعد أن تمَّ ترتيب البيت وتنظيفه واستلام التموين اليومي سواء مِن حماتها أو مِن أمها اللتين لم تبخلا عليها ولا على زوجها بأي شيء، حتى اعتقدتْ أن الحياة ستسير هكذا إلى أبد الآبدين.

مرتْ عليها الأشهر الثلاثة الأولى مِن الزواج، وكل ما كانت تفكر فيه يدور حول أين سيقضون سهرتهم الليلة؟ وماذا سترتدي؟ وهل ستذهب إلى الكوافير أم سيأتي لها؟ لم تنتبه خلال هذه الفترة على طولها إلى أن زوجها لم يكن يذهب إلى عمله، ولم يكن يشعر بأي مشكلة في ذلك.

لم تنتبه طوال هذه الفترة إلى أنهم يخرجون كل ليلة مع نفس المجموعة مِن الأصدقاء الذين هم في الأساس شِلَّة الزوج قبل الزواج، وقد اعتادوا أن يخرجوا معهم كـ (كابلز) حسب الدارج بينهم كونهم كانوا فقط مرتبطين بعلاقة حب لم تصل بعد إلى مرحلة الزواج، في حين كانت هي وزوجها هما الزوجان الوحيدان المرتبطان رسميًّا وسط هذه المجموعة الصبيانية.

لم تنتبه إلى أن هذه الحياة ليست سَوِيَّة على الإطلاق، وأن ما يحدث قد يكون مقبولًا وقت الطيش في فترة المراهقة التي تسبق الزواج والالتزام والمسئولية وفقًا لثقافة كل طبقة، أما استمراره بهذا الشكل بدون وجود حد أدنى مِن الرغبة في التغيير، أو ظهور دلائل على احتمالية حدوث تغيير، فهذه مشكلة حقيقية لا تستقيم معها شكل ولا طبيعة الحياة الزوجية.

وكما الأحلام، تكثر الأحداث وتتسارع، ولكنها لا تستمر طويلًا، كما أننا لا نتذكر مِن تفاصيلها إلا فقط هذه الأجزاء التي تُشعرنا أنها تحوي رسالة ما، فهذه هي التفاصيل التي تبقى دومًا في ذاكرتنا، وكأنها تقرع الأجراس لتُعلِمنا أن رسائل القدر لم تكن لتخطئنا مهما حاولنا أن نتجاهلها.

استيقظت مِن حلمها لتكتشف أن كل ما رأتْه مِن رجلها ليس إلا قناعًا يخفي وجهًا آخر لم تكن تتصور أبدًا حقيقته التي لا ولن يمكنها أبدًا أن تكمل حياتها معه، فتذكرت كل كلام أهلها الذي لم تستمع إليه وهي تتشبث بعنادها لتحقيق مبتغاها.

استيقظت مِن حلمها على واقع طالما حذَّرها منه أهلها، ولكنها أرادت أن تغمض عينيها عنه؛ لأنها أرادت أن تمر بالتجربة كما هيَّأتْها لها مخيلتها، فلم تصدق إلا نفسها، ولم تسمع إلا صوتها، ولم ترَ إلا الصورة التي رسمتْها لتصحو مِن حلمها على الحقيقة التي لم تردْ يومًا أن تصدقها مِن أن الأهل يرون أبعد مما نرى، وأن شدتهم في الرفض لا تعكس أبدًا قسوتهم بقدر ما تعكس خوفهم علينا مِن قلة خبرتنا في مواجهة قدرنا بعد أن تتكشف الحقائق، وتتغير الأحوال.

استيقظتْ مِن حلمها ولم يعد أمامها إلا الإستمرار جسدًا بلا روح، وهي تدفع ثمن عنادها مِن كبريائها الذي جعلها ترفض الاعتراف بخطأ اختيارها لتستمر في زواجها جسدًا بلا روح، وعقلًا بلا قلب، بعد أن فقدتِ الرغبة في إحداث أي تغيير يهز مِن صورتها التي كانت عندها أهم مِن سعادتها؛ فهكذا تربَّتْ، إما ما تريده، أو رفض ما لا تريده حتى يكون لها ما تريده.

ومرتِ الأيام عليها بطيئة ثقيلة متكررة كما لو كانت تشاهد فيلم سينما يَتِمُّ إعادته بالتصوير البطيء في قاعة سينما تمَّ إغلاق أبوابها مِن الخارج، فلم

يعد فيه أي متعة مِن مشاهدته، كما لم يعد هناك أي فرصة للتوقف عن مشاهدته، أو الخروج مِن القاعة إلا بإعلان سوء اختيارنا.

وكما أصرَّتْ على الزواج كانت أشد إصرارًا على الطلاق بعد أن تكرر ذهابها إلى بيت أهلها، وتركها لبيت الزوجية لأسباب واهية لم يكن أحد مِن الأهل يصدقها، أو يحاول أن يفهمها.

لم يهتم الأهل جميعهم بسؤالها كيف ولماذا كان هذا الفراق؛ لأنهم كانوا يعلمون تمامًا أنها لن تجيب إلا إن أرادت بالشكل الذي تريده وفي الوقت الذي تريده؛ لهذا لم يهتموا بسؤالها بقدر اهتمامهم بإخراجها مِن حالة الاكتئاب التي أصابتها، وأصابت البيت كله بسببها.

ولأن كل الأمور بالنسبة لها وللأهل تجري دومًا هكذا، فقد كان لها ما أرادته، وتمَّ الطلاق بدون أن يعرف الأهل التفاصيل، ولكنهم فقط عرفوا أنها هكذا أرادت، فكان لها ما أرادت بالرغم مِن محاولات الزوج وأهله المستميتة لإثنائها عن قرارها عندما فرضوا شروطًا صعبة جدًّا، وتنازلات كثيرة قدَّمتْها، ووافق عليها أهلها لوقوع الطلاق، ولكنها هكذا أرادت، فمن ذا الذي يستطيع أن يثنيها عما أرادت؟

ولأن الأب يبقى دائمًا هو الأب الذي يوجعه دمعة قد تبرق في أعين ابنته، فإنه لم يستطع إلا أن يحتضن انكسارها، ويحنو على ضعفها، وهو يحاول تضميد جراحها؛ لعله يستطيع ترميم بعض ما حدث مِن تصدُّع في كبريائها، فنسي عنادها، وبرَّر رفْضها بصغر سنِّها، وقلة خبرتها، ولم يعد يتذكر إلا حلمه الذي بدأ يوم قدمتْ إلى حياته، ليبدأ معها مِن نقطة بداية تجربتها.

ولكن.. هكذا ندفع دائمًا ثمَن اختياراتنا، فمن لم يجعل القدر له معلِّمًا باختياره، كان له القدر قاضيًا وجلادًا لما لمْ يوافق اختياره.

خرجتْ مِن تجربتها المريرة بدون أن تستوعب الدرس الذي كان قاسيًا عليها عندما أصابها في كبريائها الذي كان هو همها الشاغل، فلم تتغير، ولم تتعظ مِن أول درس لها في مدرسة الحياة، لتعيد الدرس مرة أخرى بدون أن تحاول مجرد المحاولة في أن تظهر أنها قد استفادت مِن تجربة عانت فيها كثيرًا.

يبدو أن الكِبر يدفعنا عادة إلى مداراة معاناتنا، والتستر على فشلنا بإظهار عدم اكتراثنا للنتائج، وعندما يصل الكبر مداه قد نصل إلى إعادة التجربة بكامل تفاصيلها، لا لشيء إلا لإثبات أننا على صواب، وأننا سنستطيع تغيير النتيجة حتى مع ثبات المعطيات وثبات نهج التفكير.

عندما يكون ثمن اختياراتنا أكبر مِن قدرتنا على سداده وقت استحقاقه، فوقتها فقط نعلم فداحة خطأ هذه الاختيارات.

هكذا دفعتْ هي ثمن اختياراتها، كما دفع أبوها ثمن أكبر وهو يرى أن الثمن الذي تدفعه بنيته مِن فشل تجربتها ليس إلا ثمن خطئه الذي لم يقصده، ولكنه للأسف تسبب فيه يوم رأى فيها امرأته، ونسي أن الابنة – طالما أنها ابنة – تحتاج لأب يقوِّمها، لا لرجل تقوده بحبه لها.

قصة قصيرة جدًّا

داخل مركز تجاري في أحد أيام وسط الأسبوع، حيث عدد الرواد لا يدعو إلى الحسد، بل يدعو إلى الشفقة بصاحب المركز.. يدخل أب المركز مع ابنته الصغيرة صاحبة الأعوام الثلاثة بحد أقصى، بنت جميلة صغيرة شقراء بضفيرتين صغيرتين، وابتسامة تضيء وجهها الملائكي، وتمسك في يديها بالونة حمراء، تلعب بها وهي تقذفها لأعلى، ثم تنط خلفها.

ضحكتها جعلتْ كل مَن حولها يقفون ليشاهدوا هذه البراءة الملائكية التي رسمتِ الابتسامة على وجوه كل الحضور، وأطلقتْ طاقة مِن المرح أصابتِ الجميع!

كانت نظرات الأب لابنته تنطق بكل معاني الحب الذي يفشل أكثر محترفي الرسم في تصويره، وهي تقذف له البالونة فيردُّها إليها، فتضحك هي، ويضحك هو، ويضحك معهم كل رواد المركز التجاري على قلَّتهم، وكأنهم قد قاموا بإطلاق غازات مسببة للضحك تجعل الضحك بدون سبب هو قمة الأدب.

فجأة أخذ الأب البالونة وقام بقذفها لأعلى، وتنطيطها بكف يده بعيدًا عن متناول البنت الصغيرة.. الصغيرة جدًّا، والتي كانت تنط هي الأخرى لأعلى، وكأنها تحاول أن تمسك بالبالونة، أو كأنها تحاول أن تلفت نظر أبيها أنها تقف هنا بجواره ليلعب معها.

ظلت تقفز وتقفز، ولكنها لم تكن تستطيع أن تتجاوز ركبتي أبيها الذي يبدو أنه قد نسي أنه هنا ليلاعب طفلته، فأستغرق في لعبته وكأنه يعيش مرحلة طفولته هو.

كان الأب هو مَن يلعب بالبالونة، لم يكن يلاعب ابنته التي نسي تمامًا أنها موجودة بجواره مِن الأساس!

وبالرغم مِن أن البنت كانت تحاول أن تلفت نظره بضحكها الذي بدأ في التصاعد التدريجي، وكأنها ترسل إليه رسالة مِن خلال صوت ضحكاتها، إلا إن الأب كان قد انفصل عن الواقع مستغرقًا في عالم طفولته، فلم يعد يعي أن كل مَن حوله ينظرون إليه باستغراب، وأن البعض أصبح على مشرفة مِن أن يقوم إليه، ويأخذ البالونة مِن يده ليعطيها لملاك المرح الذي يقفز بجواره معترضًا بصمت المحب، ولكنه لم يعد يشعر به أو يراه.

وفجأة قامت البنت بالتعلق في قدمه وهي تمسك ببنطاله، وقد ارتفع صوت ضحكاتها بشكل يشبه الصراخ المتقطع.

انتبه الأب.. عاد مِن غفوته.. تذكَّر أنه قد أتى إلى هنا في الأساس؛ لكي يلاعب ابنته.. أخذ البالونة، وأعطاها إياها وهو يطبع على جبينها قُبلة.

أعطاها البالونة، وتركها تقذفها لأعلى، في حين وقف هو بجوارها ينظر إليها، وقد ملأتْ عينيه نظرات الفرح بفرحة ابنته.

قذفتِ البالونة مرة.. مرتين.. ثلاث، ثم نظرتْ إلى أبيها الذي بدأ في السير أمامها، وكأنها – بشعور الطفولة – قد أدركتْ احتياج أبيها الآن لأن يعود طفلًا مثلها.

وقفتْ.. صرختْ.. ضحكتْ حتى التفت إليها أبوها مبتسمًا، فقذفتْ له البالونة، وكأنها تقول له: العب بها إن أردتَّ، ولكن لا تتركني، العب كما تشاء بما تشاء، فسعادتي ليست في اللعبة، سعادتي أبي هي أنت، سعادتي أن أكون في جوارك حتى مع انشغالك..

سعادتي أن أجدك بجواري أبي..

فقط لا تتركني أبي..

المجتمع الذكوري

حكاوي القهاوي

جلس على المقهى يدخن الشيشة، وهو يقلب في الهاتف منتظرًا لقاء أصدقائه بعد أن فرَّقتْهم الحياة بظروفها ومشكلاتها وأعبائها، ولم تجعل لهم أي فرصة للتقارب واللقاء وتبادل الأخبار إلا ما كان فقط منشورًا على صفحات الفيس بوك.

جلس وقد سرح في ذكريات الماضي ومغامرات الشباب أيام الجامعة، والشقاوة، والتزويغ، والسفريات الطياري – السريعة –التي لم يعلم بها الأهل، والعقاب بالطرد مِن المنزل والمبيت في شقة العزَّاب، وقصص أول حب، حيث البراءة والنظافة والطهارة وصفاء النية التي لم تكن قد دنَّستْها مغريات الحياة بعد.

جلس في انتظار الأصدقاء وهو يتخيل بينه وبين نفسه كيف ستكون حماسة اللقاء بعد كل هذه السنوات مِن الغربة والبُعد وانقطاع اللقاء، ولم يخرجه مِن خيالاته إلا صوت يعرفه تمامًا وهو يصيح:

- أميجووووووو!
- يااااه! أميجووو! يااااه مِن إمتى مسمعتهاش؟!
- واحشني يا واد، واحشني قوي قوي قوي.

دخلا في حضن دام بطول ذكرياتهما والأحداث التي جمعتهما منذ أيام الشباب، ولم يقدر البعاد على أن يمحوها مِن ذاكرتهما حتى يومهما هذا.

جلسا ليستعيدا سَوِيًّا ذكريات حياتهما، أو بالأحرى أنهما جلسا ليستعيدا سَوِيًّا حياتهما.

ولم تمر دقائق قليلة حتى انضم إليهما ثالث أضلاع صداقة العمر، لتبدأ ليلة مِن سرْد شريط الذكريات، وقصِّ الأخبار، وإلقاء النكات والقفشات، وتبادل النصائح حول ما كان وما يجب أن يكون.

بدأ اللقاء كما هو معتاد بالسؤال عن حال الأعمال؛ حيث كانت الشكاوى هي اللغة السائدة بينهم جميعًا، وذلك قبل أن ينتقل الحديث إلى الأسرة والأولاد، الأمر الذي جعل الحديث أكثر تشويقًا واحتدادًا في نفس الوقت.

- ميجو: عندك أولاد إيه يا دودج؟
- دودج: عندي ولدين، الكبير خلَّص جامعة السنة اللي فاتت، والتاني آخر سنة له، والبنوتة في ثانوية عامة.
- ميجو: إيه ده! أنا كمان عندي بنتين وولد في نفس عمر ولادك تقريبًا، الكبيرة خلَّصت الجامعة الحمد لله، والتانية آخر سنة، والولد السنة اللي جاية إن شاء الله يلحقهم.. وإنت يا طاكو عندك إيه؟
- طاكو: لأ.. أنا إتجوزت متأخر، وعندي ولد وبنت لسة في المدارس.
- دودج:ياختي كميلة، صغنونة إنتِ يا طاكو.
- طاكو: يا عم لا صغنن ولا حاجة، ده أنا مدوِّبهم اتنين، ده أنا طلقت واتجوزت كمان.
- دودج: هوبا! بصرة يا معلم.
- ميجو: الله أكبر، يعني كل واحد فيكم داخل بِنَفَرِين في الجمعية دي.
- طاكو : وإنت إيه؟
- ميجو: لا يا عم، أنا داخل بنفر، وبارك الله فيما رزق.
- دودج: أيوة.. أيوة.. ما هو الجواز ده أعتاب!

- طاكو: على رأيك، بس فيه عتب بتبقى خرسانته كويسة، وتلاقيه ماسك ومتبِّت، وعتب تاني بيتلكِّك ومع أول خبطة جامدة تلاقيه فك وخلع، وده طبعًا غير العتب اللي يقعد يزيَّق ويليق لغاية ماتفكُّه إنت بإيديك وترميه علشان تخْلص مِن الوَشّ بتاعه، وده تقريبًا يمثل العتب المصري الأصلي.
- دودج: أنا بقى مستحملتش اللي بيزيَّق ويليق ده.
- طاكو: لكن أنا بقى اللزق كان ضعيف، والعتب حلَّ لوحده وخلع.
- ميجو: يا عيني عليكم، أنا بقى لا فارق معايا تزييق ولا تلييق ولا بوظان تلزيق، أنا بقى مِن المتبِّتين.
- طاكو: سيبك مِن المتبِّت ده يا دودج، وقللي إيه اللي حصل معاك؟
- دودج:
- - أبدًا يا سيدي، زيها زي كل النسوان، قبل الجواز تحس إنك حتتجوز سلمى حايك لغاية مارجليك متيجي في الخيَّة، تلاقي سلمى اختفت وميفضلش لك إلا ولا مؤاخذة.. الحايك.
- ميجو: تقولش يعني هي اللي كانت حتتجوز جورج كلوني يا أخي، إنتوا ليه مبتفتكروش إنتوا كنتم إيه؟ لكن مركِّزين قوي في إنتم بقيتم إيه؟
- دودج : بلا فلسفة وحياة أبوك، إحنا مِن بعد متجوِّزنا وخلفنا وهي اتبدلتْ تمامًا، بقت واحدة تانية خالص غير البنى آدمة اللي حبِّيتها خمس سنين في الجامعة، وكنت حأموِّت نفسي علشان أتجوزها، ولعلمك بقى إنها كانت محسساني بجد إني ولا جورج كلوني فعلًا لغاية ما اتجوزنا.
- ميجو: وإيه اللي حصل بعد الجواز؟

- دودج: أبدًا، كل شوية ألاقيني بأتزَقّ خطوة برة حياتها، وبالرغم مِن إني بديت معاها، وأنا الأول في كل حاجة في حياتها، لقيت نفسي كل شوية بنزل درجة زي ما أكون بأخد عقاب إداري.
- طاكو: إيه يا عم جو موظفين الحكومة ده؟
- دودج: والله زي مابأقولكوا كدة، الأول كنت أنا كل حاجة في حياتها، واللي أحلم بيه ألاقيه قدامي، لغاية ما اتقدِّمتْ وأبوها وافق، وفجأة لقيتني بقيت نمرة اتنين في حياتها.
- ميجو: نمرة اتنين قبل ما تتجوز! إزاي؟ أُمَّال مين اللي بقى نمرة واحد؟
- دودج: أمي يا سيدي، بقت بتعمل حساب لأمي أكتر مني، وكل حاجة لازم ألاقي سيرة أمي داخلة فيها، زي متكون أمي بقت البهارات اللي لازم تترشّ على أي أكلة حناكلها.
- ميجو: مش قوي كدة، إنت بس اللي مزوِّدها، وبعدين حتى لو كدة، دي حاجة تبسط ولا مؤاخذة.. أمك.
- دودج: ما تحترم نفسك يا بني آدم إنت!
- ميجو: يا عم القافية حَكَمِتْ، أعمل لك إيه يعني؟ المهم.. إيه بقى النزلة اللي بعد كدة؟
- دودج: أبدًا يا سيدي، بعد كتْب الكتاب لقيتني بنزل كمان درجتين بعد ما بقت بتعمل حساب للعيلة والأصحاب في كل خطوة بناخدها.. شفت مطبخ فلانة، طب شفت شبْكة علانة، مش حروح علشان مش بطيق ترتانة، فجأة لقيت حياتي بقت ماشية حسب الناس اللي حواليا، وأنا مجرد ضيف شرف.
- طاكو: مش عارف أقولك إيه، بس بيتهيألي ده بيحصل مع كل الرجالة، المهم إيه اللي حصل بعد كدة؟

- دودج : بعد الجواز بقى، وفي شهر العسل دخلنا على الأسطوانات، بنت خالتك هزارها تقيل، وبنت عمتك واخدة عليك، وأخت صاحبك دي شكلها زعلانة إنك إتجوزت، فجأة لقيت سلّم أولوياتها بيبدأ مِن عند أهلي، وبعدين أهلها، وبعدين أصحابنا، وبعدين آجي أنا.
- ميجو: بس دي مش أولوية زي مبتحاول إنت تصورها على فكرة.
- دودج : ده بيتهيألك، دي أولوية، وأولوية مطْلقة كمان.
- ميجو: إزاي يعني؟
- دودج : لأن مفيش حاجة حتعرف تعملها، ولا قرار حتعرف تأخده إلا لما يعدي على الثلاث فلاتر دُول، الأول أصل أمك ولا أختك، وبعدين ما هي ماما قالتلي، ولا بابا كان عايزني، وبعدين أدخل بقى على مش بحب أخرج مع فلانة، وشلّتك حتبوَّظك، وصاحبك ده فلتان، لغاية ما توصل بعد الفلاتر دول ليك إنت بقى، وهي بتسألك بمنتهى الحنِيَّة: طب قوللي إنت عايز إيه؟ والمصيبة إن كل ردودك حتدخل على الفلتر تاني، إنت مش حاسس بيَّ، ما هو إنت لازم تيجي في صف أمك، أسطوانة يا عم ولازم تشتغل كل يوم.
- ميجو: تصدقوا بالله، إنتوا ظالمين قوي، قال يعني إنتوا اللي ملايكة وطالع لكم جناحات.
- طاكو: سيبك منه يا دودج، وكمِّل.
- دودج : أبدًا يا سيدي، كل ده قبل ما تخلف، بعد الخلفة بقى حتنزل لك درجتين تلاتة؛ لأن دايرة صناعة القرار في البيت بقى بيدَّخَّل فيها الدكتور، والشغالة، والمدرسة، والنادي، بعد طبعًا أهلك وأهلها، وأصحابك وأصحابها، فجأة تلاقي نفسك بقيت في آخر القايمة بعد ما بقت حياتكم بتدور حوالين أهلك مش عاجبهم، وأهلي عايزين، وأصحابي حيعملوا، وأصحابك حيفسدوك، والولاد تعبانين،

والدكتور، والمدرسة، والمذاكرة، والنادي، وأصحاب الولاد، وعيد الميلاد، واللبس، والمصروف، ومتنساش... وأديك نسيت!

- ميجو: هو إنتوا كنتوا بتتجوزوا ليه لما إنتوا مش عايزين تشيلوا مسئولية خالص؟
- دودج: يا بني دي مش مسئولية، دي أولوية.
- طاكو: والله عندك حق يا دودج، فعلًا الراجل بعد كام سنة جواز بيلاقي نفسه في آخر سلم أولويات مراته، وفي نفس الوقت بيبقى مطالَب إنها تفضل هي في أعلى سلم أولوياته.
- دودج : وهو ده اللي حصل، سنة اتنين عشرة عشرين تلاتين، وأنا مستحمل ومصبَّر نفسي، وكل حاجة حواليا بتتغير إلا هي زي ماهي.
- ميجو: وبعدين.. إيه اللي حصل؟
- دودج: لقيت حب حياتي، لقيت الإنسانة اللي فَهْمتْني وفِهمت متطلباتي كبني آدم.. كرجل.. مش كزوج على درجة مدير مالي.
- طاكو: وعملت إيه؟ إتجوزت التانية؟
- دودج: مفيش تانية، ماهي الأولانية ما رضيِتش يبقى فيه تانية، فاتطَّلقنا واتجوزت أولاني.. تاني.
- ميجو: يا سلام.. ده على أساس إن الجديدة بقى سلّم أولوياتها حيبقى مختلف خالص عن القديمة.
- دودج: والله يا ميجو مش عارف أقولك إيه؟ بس الظاهر فعلًا إن كتالوج الستات واحد، بس إحنا اللي بنتعامل معاه زي اتفاقية استخدام برامج الكمبيوتر.
- طاكو: اللي هو إزاي يعني؟

- دودج : اللي هو تفتح البرنامج فيطلع لك الاتفاقية، ولازم تقعد تفرّها بالكامل لغاية متنزل لآخرها، وبغض النظر عن أنك قريتها ولا ماقريتهاش، أو قبلتها أو ماقبلتهاش، المهم إنك تدوس موافق.
- ميجو: ولو مادوستش؟
- دودج : لو مادستش يبقى مش حتعرف تستعمل البرنامج يا فكيك، لازم تدوس موافق علشان تنزل البرنامج، وبعدين تقعد تضرب نفسك مِيت جزمة كل يوم إنك دُست الدوسة دي.
- طاكو: لأ يا عم.. أنا بقى حكايتي غير، أنا يا عم مليش في السلالم، أنا بتاع الأسانسيرات.
- ميجو: طب قوللنا إيه اللي حصل معاك.
- طاكو: طب خلُّونا نجيب قهوة وبعدين نكمل كلام.. قهوتكم إيه؟

الخيانة.. خيانة

مِن الصعب جدًّا على أي إنسان رجلًا كان أو امرأة، أن يمرَّ بإحساس أن الإنسان الذي تشارك معه حياته بكل ما فيها مِن مصاعب ومتاعب وصفاء وهناء هو إنسان خائن!

ما أصعبها مِن لحظة تلك التي نكتشف فيها أن شريك العمر قد قرَّر أن يتخلى عن حياتنا وأولادنا، وأحلامنا التي رسمناها وعشناها وبنيناها، وكنا شركاء في صناعتها وتحقيقها سَوِيًّا مِن أجل رغبته ونزوته المنفردة التي جعلتْه لم يعد يرى مِن شريك حياته إلا مساوئه وعيوبه فقط، ولم يعد قادرًا على أن يتذكر مشوار العمر بكل ما فيه مِن تحمل ومثابرة ومساندة مِن أجل الوصول إلى هذه المرحلة التي جعلتْ منه مطمعًا ممَّن يبحثون عن شراء وجبة جاهزة، مكتملة التحضير، منمقة المظهر، حسنة التغليف، وهم لا يكترثون بكَمّ المجهود الذي تمَّ بذْله في المطبخ لإعداد هذه الوجبة

الدسمة المستهدفة مِن الراغبين في الحصول على الثمرة دون أن يتكبدوا عناء الزراعة.

انتهى الأصدقاء مِن طلب القهوة، وجلسوا يستكملون حديثهم الذي أصبح شَيِّقًا جدًّا بعد أن أخبر دودج عن قصته التي وافقه على أحداثها طاكو، وكان ميجو هو حزب المعارضة، تمامًا كما كانت علاقتهم أيام الجامعة.

- دودج : شربت قهوتك يا عم وظبطتّ الطاسة، قوللنا بقى إزاي العتب عندك فك وخلع.
- ميجو: عتبك خلعك يا طاكو! يا كسوفي.. يا كسوفي.
- طاكو: أحيانًا بتكون المصلحة إن العتب يفك ويسقط علشان نقدر نكتشف العيب اللي متداري وراه، بدال مانكمل والعيب يكبر لحد مانلاقي البيت كله بيتهدّ على دماغك.
- دودج: دي عندك حق فيها، اكتشاف السرطان في مرحلة مبكرة يدِّينا الأمل في إننا نقدر نعالجه.
- ميجو: غنوا بقى على بعض، يديكم الأمل إنكم تعالجوه مش تبتروه!
- طاكو: عمومًا أنا حاولت أعالج، لكن بعيد عنكم السرطان نفسه كان مصمم على البتر.
- دودج: يا عم بلاش جو مستشفى ٥٧٣٥٧ اللي دخَّلتونا فيها دي، واحكي لنا إيه اللي حصل.
- طاكو: أبدًا يا سيدي، أنا أصلي اتجوزت جواز صالونات؛ لأني زي ما إنتوا عارفين مليش في قصص الحب والغراميات بتاعتكم دي، فالموضوع بالنسبة لي كان اختيار عقلاني قبل ما يكون عاطفي.
- ميجو: حتى العقلاني كمان طلع بايظ، يعني اللي قعد يحب خمس سنين في الجامعة وملى البيت دباديب، وبوكيهات ورد، وكروت وأغاني،

وجوابات، وتسجيلات، وكلام في التليفونات ضرب كرسي في الكلوب في الآخر، واللي اتجوز بكبَّايتين شرْبات ودستة جاتوه برضه ماصدِّش!

- طاكو: فشرررررر! أنا صبرت للآخر، بس هي اللي طلعت قليلة... الصبر، ومشوها صبر علشان مانغلطش!
- دودج : يا عم كمِّل، وسيبك مِن الفيلسوف المتبِّت ده، ده إحنا ولا اللي قاعدين مع أفلاطون!
- طاكو: لما جيت أتجوز، قولت لنفسي لازم آخد واحدة بنت ناس، بنت عيلة، بنت أصل، علشان أبقى ضامن على الأقل إن تربيتها قريبة مِن تربيتي، فقلت لنفسي مفيش أحسن منِ أخت صاحب عمري اللي كان معايا مِن أيام المدرسة، وجيران وأصحاب وإخوات، تقدروا تقولوا كده إني كنت مربِّيها على إيديه؛ لأني كنت مِن أهل البيت.
- ميجو: طيب ده كدة المفروض يعني... إن...
- طاكو : أيوة.. أيوة.. المفروض تكون نقاوة، وعلى الفرازة، وكمان خام، يعني أشكلها زي ما أنا عايز، ما هو ده الكلام اللي أقنعتني بيه أمي الله يرحمها، وأقنعت بيه نفسي كمان.
- دودج : طيب؟
- طاكو: خمستاشر سنة متأخرتش عن البيت في حاجة، والحمد لله ربنا كان فاتحها علينا مِن وسع، والشغل كان بيقول يا مين يلاحقني، لكن طبعًا دوام الحال مِن المحال، وفي يوم وليلة الدنيا اتقلبتْ، وكل الشغل اللي عملته في آخر سنة اتحوّل فجأة إلى مديونية؛ لإن الناس بطَّلتْ تدفع.
- ميجو: عادي، كلنا عدينا بالظروف دي، وصبرنا وعافرنا علشان نحافظ على سمعتنا وإسمنا لغاية ما الدنيا ظبَّطتْ تاني، والحمد لله رجعنا تاني، والعجلة دارت.

- طاكو: أيوة، ده اللي إحنا عملناه وبنعمله، لكن الهانم بقى مكانش عاجبها إني كنت بحاول أسدد الإلتزامات اللي عليَّ؛ لأنها كانت شايفة إن طالما الناس مبتدفعش، يبقى إحنا كمان مندفعش، يعني زي ما تقولوا كده نظام لو رفسك حمار لف إنت كمان وأرفسه علشان يتعلم إنه مايتغاباش عليك.
- دودج: وهي إيه اللي دخَّلها في شغلك أساسًا؟ أنا عمْري ما سمحت لمراتي إنها تدَّخَّل في أشغالي أبدًا!
- طاكو: ماهي ماكانتش بتدَّخَّل قبل كدة، لكن مع الضربة اللي أخدتها، كان لازم أبدأ أبيع حاجات علشان أسدد التزاماتي، وطبعًا الهانم كانت شايفة إن الحاجات دي حقها هي وعيالها اللي حتطلع بيه مِن الدنيا.
- ميجو: هي.. هي كانت ناوية تسمَّك وتخلص منك ولا إيه يا ميخا؟
- طاكو: والله ما أنا عارف يا ميجو، بس فجأة لقيت إنسانة تانية خالص قدامي، وكم مِن النكد الغير طبيعي اللي ماينفعش معاه نظام عيشة الشرنقة اللي الرجالة بتدخلها علشان تبعد عن نكد الستات، ولا نظام الدماغ الاستريتش اللي بتكبر لغاية ما الهرمونات ما تتغير، ومود النكد يتبدل، أنا كنت متعوِّد الحقيقة على برنامج نكد أسبوعي بيحصل كدة مرة أو مرتين في الأسبوع لما تكون عايزة حاجة، فكانت تبدأ تمهد لطلباتها عن طريق إنها تنكد عليَّ الأول علشان تحضَّرني للي هي عايزاه، فلما تيجي تطلب مني حاجة أقول حقي برقبتي، وأوافق علشان أخلص مِن نكدها.
- ميجو: عارف أنا الخطة بنت الأبالسة دي.
- دودج: يا بني دي مش خطة، دي كانت وصية أمنا حواء لكل بناتها، نكِّدي قبل ما تتنكدي.

- طاكو: هو تقريبًا ده اللي كان بيحصل، بعد ما كانت بتنكد عليَّ مرة أو مرتين في الأسبوع، فجأة أصبح النكد بالساعة، تقولوش كانت شغالة في مكتب محاماة وبتعمل أوفر تايم!
- ميجو: وطبعًا مقدرْتِش تستحمل، قمت مطلَّق.
- طاكو: أبدًا والله، فِضِلت مستحمل لأني كنت على قناعة إنها بنت أصول، لكنها مش قادرة تستحمل الظروف اللي كانت فعلًا صعبة، لكن يبدو إني كنت غلطان ومعرفتش أقدرها صح.
- دودج: هو إيه اللي ماقدَّرتهوش صح؟ الظروف تقصد؟
- طاكو: لأ، أنا كنت عارف إن الظروف كانت فعلًا صعبة، لكن تقديري لمعنى كلمة ولاد أصول دي هي اللي كانت غلط قوي، بس معرفتهاش إلا متأخر للأسف.
- ميجو: إيه؟ خلعت؟
- طاكو: طلبتِ الطلاق، وصممتْ عليه، وخدت الولاد وسافرت بيهم، وأعلى ما في خيلك اركبه، وطبعًا صاحب عمري اللي هو أخوها كان عامل عملية تغيير ودان، عمل واحدة مِن طين والتانية مِن عجين.
- دودج: يا عم مع السلامة والقلب داعي لها، أهي تريحك مِن حلقات النكد دي!
- طاكو: أبدًا والله، حاولت أدخَّل أهلها وأوسطهم علشان يحاولوا معاها، لكن الظاهر إن محاولاتي دي خلِّتها تصمم أكتر، زي ما تكون فهمتْ محاولاتي دي على إنها ضعف مني، وتخيلتْ إني مش حأقدر أستغنى عنها أو عن أولادي، وحأستسلم لطلباتها.
- ميجو: وحتى أهلها ماقدروش عليها؟
- طاكو: مفيش حاجة نفعتْ معاها، وأقسم لك بالله إني لغاية دلوقتي مش قادر أفهم هي ليه عملت كدة.

- دودج: حيكون ليه يعني، ما إنت قلت إنك كنت فاهم معنى ولاد الأصول دي غلط!
- طاكو: المهم، إني طلقت وبما يرضي الله، وقلت دي قسمتي ونصيبي، وبديت مِن جديد والحمد لله، سنة والشغل ابتدى يظبط معايا تاني، وسددتُّ معظم مديونياتي، وابتدتِ العجلة تدور مِن جديد زي ما بيحصل مع كل الناس.
- دودج: طَب والعروسة الجديدة.. إيه! إزاي يعني وإمتى؟
- طاكو: أبدًا يا سيدي، وأنا بفكّ كعبلة الشغل بتاعتي، ربنا رزقني بواحدة، ولقيتها فاهمة ظروفي ومقدَّراها، ومعندهاش مشكلة نبدأ مع بعض على بياض.
- ميجو: طَب كويس، يعني ماندَّلتش مع مراتك زي بعض ناس وطلقتها علشان الحب الجديد.
- دودج : على فكرة، اللي إيده في المايه مش زي اللي إيده في النار.
- ميجو: ملهاش علاقة يا صاحبي لا بالماية ولا بالنار، دي لها علاقة بالصح والغلط، وأنا بالنسبة لي الفكرة دي نفسها غلط لسبب بسيط جدًّا متعلق بحاجة اسمها المبادئ.
- دودج: قول يا فيلسوف، اتفلسف لك شوية، ما إحنا اللي نستاهل إننا بنحكي لأفلاطون.
- ميجو: الفكرة كلها يا صاحبي إنك علشان تتجوز الجوازة التانية على مراتك وهي لسة على ذمتك، لازم تعرف الست الجديدة، وتخرج معاها، وتتكلموا، وتقربوا، وتحبوا وتتحبوا، وكل ده وإنت متجوز ومراتك على ذمتك.
- دودج: بأقوللك يا بني آدم إنها كانت مطلَّعة عينية!
- ميجو: وده يديلك الحق إنك تغلط؟

- دودج: أغلط في إيه إن شاء الله، أنا إتجوزت على سنة الله ورسوله!
- ميجو: لأ يا فكيك، إنت إتجوزت بعدما غلطت لإن معرفة واحدة، وخروجك معاها، وحبك ليها وصرفك عليها وإنت لسة متجوز حتى لو كنت تعبان مع مراتك ده غلط في حدّ ذاته، وخلِّيني أسألك سؤال يمكن تفهم منه قصدي.
- دودج: سؤال إيه يا فيلسوف الغبرة؟
- ميجو: لو مراتك هي اللي تعبانة معاك وقررْت إنها تتطلق زي مرات طاكو، تفتكر إن مِن حقها برضه إنها تعرف واحد، وتخرج معاه، وتحبه ويحبها لغاية ما تتأكد إنه حب حياتها اللي حيعوضها التعب اللي شافته معاك، وبعدين تيجي تطلب منك الطلاق علشان تتجوز، برضه على سنة الله ورسوله!
- طاكو: الحقيقة يا دودج، ميجو عنده حق نسبيًا.
- دودج: يا صلاة النبي.. يا صلاة النبي.. أنا بقيت قاعد مع أفلاطون الفيلسوف، وأينشتين بتاع النسبية كمان.
- ميجو: خلاص يا إخوانًا، كل واحد يجاوب لنفسه وعلى نفسه، إنت مبسوط يا طاكو مع مراتك الجديدة؟
- طاكو: فاكر آخر مشهد في مسرحية المتزوجون؟
- ميجو: أي مشهد؟ فكِّرْني.
- طاكو: مسعود كان بيقول لحنفي إنه سأل جده، لما أكبر يا جدي أتجوز ولا متجوِّزش؟ رد عليه جده وقال له: يا بني في الحالتين حتندم.
- دودج: يعني باظت دي كمان!
- طاكو: هات يا بني حجر معسل، خليني أعرف أردّ على الأفندية.

كهن النسوان

آفة المجتمعات الشرقية هي في التعميم وتبَنِّي الأحكام المسبقة المبنية على هذا التعميم، فمقولة إن كل الرجال خائنون بطبعهم تعطي الانطباع بأن النساء ليسوا بخائنات، وأن خيانة المرأة هو شيء مستغرب، ممَّا يجعل المجتمع ينظر له بكثير مِن الاحتداد كما ينظر لخيانة الرجل في المقابل بنوع مِن الرضوخ للاعتياد.

فالخيانة ليستْ كما يتخيل الكثير مِن الناس بأنها منحصرة فقط في انزلاق الرجل أو المرأة إلى الرذيلة والانفلات الجنسي وهما لا يزالان تحت رباط الزوجية؛ لأن النزوة العاطفية خيانة، كما أن الهروب مِن المسئولية خيانة، بل إن عدم تقبُّل تقلبات الحياة هو أيضًا خيانة.

فمِن الثوابت البديهية التي لا تقبل النقاش ولا المجادلة أن كل شيء في الحياة يتغير، الظروف المعيشية تتغير، ومعطيات الأعمال، والحالات المزاجية، والقدرات، والخبرات، والقبول، والرفض.. كل ما حولنا يتغير كما نتغير نحن أيضًا، ولكننا للأسف لا نقبل أي تغير ممَّن حولنا، في حين نطلب مِن كل مَن حولنا أن يقبلوا تغيرنا!

وبسبب فكر التعميم السائد، أصبح المجتمع الذكوري لا يرى أي مشكلة في أن يخون الرجل زوجته، وذلك عندما يتعرف على امرأة أخرى، ويخرج معها، ويقابلها، ويحادثها، ويبادلها العواطف والأحاسيس، طالما أن هذه العلاقة ستنتهي بالزواج، في حين نرفض تمامًا هذه العلاقة مِن المرأة المتزوجة حتى ولو كانت ستنتهي بطلبها الطلاق مِن زوجها لتتزوج بمَن أحبَّته!

أي عوَر فكري هذا الذي نعيشه في مجتمعاتنا الذي يجعلنا نقبل الخطأ مِن الرجل لمجرد أنه رجل، في حين لا نقبل أبدًا أن نعطي للمرأة نفس الحق؟

أي عوَر فكري هذا الذي يجعلنا نقبل الخطأ بضمان نتيجته المستقبلية التي قد لا تحدث؟ وبالرغم مِن ذلك لا نستطيع أن نجرِّم الخطأ لكونه خطأ، حتى ولو كانت نتيجته مقبولة شرعًا، وذلك حسب المبدأ الميكافيلي أن الغاية تبرر الوسيلة!

والغريب في هذا الموضوع أن القانون الذي أباح تعدد الزواج بناء على الشرع الإسلامي – بدليل أن نفس ذات القانون لا يبيح مثل هذا الحق للمسيحيين حسب شرعهم – لم يُجَرِّم هذا القانون فِعل الرجل المسلم مِن الدخول في علاقة نسائية وهو متزوج، وهو المحرم شرعًا، وكأن القانون لدينا ينتقي مِن الشريعة ما يتناسب مع متطلباتنا الذكورية.

عودة إلى الأصدقاء الثلاثة.. هل حقًّا الصراحة مؤلمة؟ أم أننا أحيانًا كثيرة نحتاج لمن يزين لنا الحقيقة التي نعلمها ولكننا لا نريد مواجهتها؛ حتى نستطيع أن نستكمل المشوار الذي بدأناه ونحن نسوق لأنفسنا مِن التبريرات ما يجعلنا نُقدِم على أول خطوة بالرغم مِن تأكدنا الوثيق أن النهايات لن تختلف كثيرًا؟

دخل الأصدقاء الثلاثة في حالة مِن الصمت الاختياري، وكأنهم يقومون بمراجعة مواقفهم قبل أن يبدءوا الحديث بين هجوم ودفاع، ومَن يقف في الوسط ليحجز بين الطرفين، فلم يعد ينقصهم إلا حارس مرمى ليكتمل الفريق!

- دودج : ها يا عمنا، رصِّيت الحجر، وعمَّرت الطاسة، ولا تحب نغمسهالك علشان تكبَّر الجي وتروَّق الدي؟
- طاكو: لأ يا عم، أنا كدة فل الفل، ولا جي ولا دي، ده إحنا بنتشعلق في رضا ربنا.
- دودج: طب إيه أخبار المُودام يا أينشتين؟

- طاكو: أبدًا يا سيدي، زي ما ميجو ما كان بيقول، في النهاية ستكتشف أن كل البشر سواء.
- دودج: الله.. الله.. الله.. ادخل جنب أخوك في فصل الفلسفة، وافتحوا الكراريس، قول يا سقراطيس، قول ومتَّعني.
- طاكو: بُص.. في النهاية يا دودج، الرجالة كلهم شبه بعض، والستات برضه شبه بعض إلا مَن رحم ربي طبعًا.
- دودج: فسّر.. أبِن.. وضّح.
- ميجو: سيب لي أنا الطلعة دي يا طاكو، أفلاطون أَوْلى بالدرس ده.
- طاكو: اتفضَّل يا عم، أنا عارف إنت حتقول إيه، وموافق عليه مبدئيًّا.
- ميجو: شوف يا دودج، الرجالة تقريبًا طبعهم واحد، وطريقة تفكيرهم واحدة، ومعدلات زهقهم برضه واحدة، يعني تقدر تقول كده إن الرجالة مستريحين لفكرة التعدد، وبيستخدموها كمبرر يدِّيهم الحق في إنهم يعرفوا ستات ويصاحبوا، أو على الأقل يغازلوا ويعاكسوا طالما إنهم ممكن في الآخر يتجوزوا.
- دودج: لو على كدة، يبقى كان لازم نلاقي كل الرجالة دلوقتي متجوزين جوازة تانية وتالتة.
- ميجو: الخطأ يا صديقي مش في وقوع الخطأ، الخطأ طريق، ومفيش مشكلة أبدًا إننا نمشي فيه، لكن المهم إننا منكمِّلش فيه لنهايته لو عرفنا إنه غلط.
- دودج: يعني إيه؟
- ميجو: يعني كل الرجالة تقريبًا عندهم استعداد فطري للوقوع في الخطأ، ولكن فيه اللي عايز ومش قادر، وفيه اللي مبيقدرش يكمل، وفيه اللي بيحب يكمل التجربة وهو بيقنع نفسه إنه مختلف عن كل

الرجالة التانيين، وإن الست الجديدة غير كل الستات التانيين، لغاية ما يكتشف إننا جميعًا في الموضوع ده بالذات زومبيز.

- طاكو: ما هو ده اللي حصل معايا!
- دودج: إيه.. طِلْعِتْ زومبي؟
- طاكو: ما هو اللي يتجوز زومبية لازم يبقى زومبي هو كمان.
- دودج: عمومًا أنا مش حأقدر أقاوح كتير؛ لأننا للأسف كلنا في الهوا سوا.
- طاكو : الأول كانت متفهمة ومقدرة، وحأقف معاك، ونبني بيتنا طوبة فضة وطوبة ذهب، ولا كأني حتجوّز الست صباح، وعلى البساطة البساطة، وغدّيني جبنة وزيتون، وعشّيني كوزين بطاطا.
- دودج: قول يا خويا قول.
- طاكو: لغاية ما اتجوّزنا، ولقيت نفس الأسطوانة اللي هربْت منها بتشتغل تاني، زي ما يكون مقرر دراسي لازم أخلّصه.
- دودج: تاني! إنت موعود بقى!
- طاكو: بالرغم مِن اختلاف الأسباب، لكن النتيجة كانت واحدة، نفس النكد الأسبوعي، والعجيبة إن الهانم الأولانية كانت برضه هي السبب، زي ما تكون لعنة بتطاردني في جوازي، وحتى بعد طلاقي.
- طاكو: إيه اللي حصل؟
- طاكو: أبدًا.. طلقت عليَّ الأولاد، وكل شوية الأولاد عايزين، الأولاد محتاجين، الأولاد تعبانين، الأولاد نفسيّتهم زفت، الأولاد مش طايقين.
- ميجو: مدخل إبليس ده.
- طاكو: وطبعًا كل ده علشان المصروف مِن جهة، ومِن الناحية التانية إنها تعكنن عليَّ بقى بالمرة.
- دودج: أيوة.. أيوه... نَكِّد أليك وألَى أُمْرك.
- طاكو: أيوه يا عم علي الكسار.

- ميجو: وطبعًا التانية مش ممكن حتسكت.
- طاكو: إنت عارف إيه المشكلة بجد يا ميجو؟
- ميجو: إيه؟
- طاكو: المشكلة إن الستات بتعتبر إن الحب هو طريقها للتملك، يعني تحب علشان تتملك قلب الراجل الأول، وبعدين يتجوزوا علشان تبقى اتملكتْه كله على بعضه، هو ووقته وتفكيره وفلوسه وتصرفاته ونظراته، كله على بعضه.
- دودج: كأنك عارف إيه اللي حصل معايا!
- ميجو: كلامك مظبوط قوي يا طاكو، بس متنساش إن الراجل بيحسبها بشكل عكسي.
- طاكو: اللي هو إزاي؟
- ميجو: الراجل بيشوف إنه طالما اتملك الست سواء في أول العلاقة اللي هو بالحب، أو آخرها بالجواز يبقى كدة تدخل الخزنة هي ومشاكلها وعيالها وقصصها ونكدها، علشان تملى بالكتير ربع الخزنة، ويبدأ يفكر في التلات أربع اللي فاضيين.
- طاكو: يا عم ده حق ربنا إدَّاهُلنا، إنت إيه حتكْفر؟!
- ميجو: المصيبة إن الرجالة فاهمين الحق ده غلط، وبهرتلوا أي هرتلة وهما فاكرين إن هرتلتهم دي منتهى الإيمان، مع إنها منتهى تحريف دلائل الإيمان.
- دودج: هوباااااا.. عم الفيلسوف قلب وبقى شيخ الطريقة، قول يا مولانا واشْجينا.
- ميجو: طيب ممكن نطلب حاجة ناكلها علشان الكلام معاكم جوَّعني.
- طاكو: نزِّل لنا يا بني أكل هنا بسرعة لمولانا، قبل حلقة النهاردة مِن برنامج نور على نور ما تبدأ.

مثنى وثلاث ورباع

كيف يمكن لإنسان عاقل ذي منطق أن يصدِّق أن الله العزيز الحكيم يمكن أن يعطي الأفضلية لجنس على آخر فقط لطبيعة خلقه التي هو أعلم بها، والتي لا فضل فيها للمخلوق على الإطلاق؟

كيف يمكن لإنسان يمتلك القليل، فقط القليل جدًّا مِن المنطق أن يصدق في أن الخالق العظيم الحق العدل جعل الأفضلية للرجل لمجرد أنه قد خُلِقَ رجلًا.. فقط رجل؟!

ولكن لأننا نحن معشر الرجال نعيش في مجتمعات يحكمها ذكور، ويتحكم في عاداتها وتقاليدها ذكور، ويفسر أحكام دينها، ويضع قواعد عقائدها وقوانينها ذكور، فمن الطبيعي جدًّا أن نتخيل أن الله قد فضَّلنا فقط لطبيعة خلقنا، وأنه قد أعطانا من الحقوق كرجال ما لم يعطِه للنساء، وهذا أبعد ما يكون عن روح الدين وإن كان قريب بعض الشيء من التفسيرات الفقهية لبعض علماء الدين.

أعتقد أن الرجال قد أساؤوا تفسير القوامة حتى ظنوا أنهم جنس ذي أفضلية عن جنس النساء ونسوا أن القوامة تفرض واجبات على الرجل قبل أن تعطيه ميزة الأفضلية التي يتصورها.

ولهذا وجدنا معظم الرجال يصدقون في أن الله قد منحهم الحق في أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع فقط بناءً على رغبتهم الذكورية البحتة المدعومة بقناعة الرجل الشخصية بقدرته على أن يعدل بين النساء دون وجود ضوابط مجتمعية تسبق قناعة الرجل بقدرته هذه، بل وتحدها أيضًا. أعتقد أن هناك معايير ومقاييس كثيرة تحكم هذا الحق وتحتاج لأن نفكر بها بشيء من التجرد قبل تعميمها.

وطالما كان هناك هذا اللبس حول أفضلية الرجال في الدنيا، فطبيعي جدًّا أن نعتقد أننا كرجال سيكون لنا الأفضلية أيضًا في الدار الآخرة؛ وهذا ماجعل الرجال يقبلون بل ويلهثون وراء فكرة أن الحور العين هنّ إناث نتمتع بهن نحن معشر الرجال في الجنة، ليصبح نصيب كل رجل مؤمن سبعين مِن الحور العين، ولكل حور عين سبعون وصيفة، بل ويزيد أن كل رجل منَّا ستصحبه زوجته في الجنة لتكون هي سيدة الحور العين، وكأن النساء قد خُلِقن فقط لمتعة الرجل في الدنيا والآخرة!

إنني هنا لا أناقش صحة أو خطأ ما بين أيادينا من تفسيرات علماء الدين القائمة على أحاديث نبوية لا يمكننا أبدًا إنكارها، ولكنني فقط أتساءل إن كان من الممكن وجود تفسير آخر للحور العين على أنها وصف لأهل الجنة مثلًا، كما نقول الأشعث الرأس أو الأجدع الأنف أو العريض المنكبين. أعتقد أن التطبيق سيختلف كليًا في هذه الحالة بناءً على هذا التفسير إن صح.

وبنظرة إنسانية بحتة، وبناء على فكرة جواز التعدد للرجل حسب احتياجاته ونظرته ورغبته، كان مِن الطبيعي جدًّا أن نجد الرجل الذي يشتكي نكد زوجته، فيصبح مِن حقه البحث عن زوجة جديدة، بل ويصبح مِن حقه أن يجرب أيضًا قبل الشراء، ليدخل في أكثر مِن علاقة وزوجته لا زالت على ذمته، ولكن طالما كانت النية خير ومقصده الزواج على سنة الله ورسوله إذًا فليجرب.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، ماذا عن المرأة التي تشتكي نكد زوجها وبخله وانشغاله عنها؟ ماذا عن المرأة التي تشتكي دخول زوجها في علاقات نسائية جديدة بنيَّة الزواج؟ ألا يحق لها بما إنها كائن مخلوق عاقل رشيد مثلها مثل الرجل أن تطالب بحقها في أن تبحث لنفسها عن رجل جديد يمنحها السعادة التي افتقدتْها مع زوجها النكدي، أو مع زوجها

اللعوب، أو زوجها البخيل، أو زوجها اللا مسئول، أو زوجها الكئيب، أو غير ذلك مِن الأسباب التي يستخدمها الرجل كذريعة للتعدد؟

ألا يحق لها أيضًا مِن باب المساواة القانونية الدخول في علاقة مع رجل آخر لتختبر كرمه وأخلاقه ووفاءَه قبل أن تطلب الطلاق لتتزوج بحب حياتها؟ أم أن حق التجربة المنهي عنه شرعًا أصبح مباحًا قانونا للرجل مجرَّمًا على النساء؟

والغريب، العجيب، المريب في هذا الأمر، أن كل مَن أراد تبرير رغبته في التعدد، نجده وهو يُرجِع الأمر كله للدين، ويبدأ في الاستشهاد بتفسير الشيوخ لآيات القرآن، دون أن يبذل مجهودًا قليلًا جدًّا في تدبرُّ الآيات الخمس الأوائل مِن سورة النساء بقليل جدًّا مِن العقلانية التي قد تقودنا إلى بعض التخيل، مجرد التخيل أن يكون هناك خلل في تفسير الآيات، وليس في صحيح الآيات ذاتها؟

انتهى الأصدقاء الثلاثة مِن عشاءهم في صمت ينبئ عن دوران عجلة التفكير لدى كلٍّ منهم بطريقة مغايرة لبداية اللقاء.

- دودج: إيه بقى يا عم ميجو؟ كنت عايز تفتي لنا في الدين! خير!
- ميجو: يا عم لا فتوى ولا غيره، بس الآيات اللي كل الرجالة بتستشهد بيها في موضوع التعدد ده، يبدو إن فيها لبْس شوية.
- طاكو: لبْس في الآيات.. جديدة دي يا عم ميجو! إحنا حنشكِّك في القرآن ولا إيه؟!
- ميجو: يا عم حرام عليك، لبس في القرآن إزاي بس!
- طاكو: مش إنت اللي بتقول كدة؟
- ميجو: أنا قصدي لبْس في تفسير الآيات.
- دودج: طيب وضَّح بقى وحياة أبوك، علشان متوقَّعناش في الغلط.

- ميجو: بُص يا عم الحاج، الرجالة دايمًا يستشهدوا بجزء الآية اللي بتقول مثنى وثلاث ورباع في موضوع حقهم في التعدد، ويغمضوا عينيهم تمامًا عن باقي الآيات علشان الموضوع مايبوظش.
- طاكو: بقية الآيات؟
- ميجو: أيوه، ما هو لو قريتوا أول خمس آيات مِن سورة النساء حتلاقوا إن الآيات كانت بتتكلم أساسًا في موضوع ملهوش علاقة خالص بموضوع التعدد، كان فيه موضوع أساسي، وجه موضوع التعدد ده كجواب شرط ليس إلا!
- دودج: يا عم أبوس إيدك، إنت بديت فلسفة، وبعدين دخلت على الدين، ودلوقتي قلبت على سيبويه والنحو.
- ميجو: طيب إنتوا قريتوا الآيات دي، أو فاكرينها؟
- طاكو: فكَّرنا يا عم وخلصنا، ده إيه الذل ده!
- ميجو: ربنا سبحانه وتعالي بيتكلم أساسًا عن اليتامى وعن حرمانية إن الناس تأكل حق اليتامى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾
- طاكو: طيب.. وبعدين؟
- ميجو: وبعدين ربنا حط شرط واضح وصريح ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ لو كان عندكم شك في أنكم حتظلموا اليتامى وتجوروا على حقوقهم، فده بقى اللي اسمه جواب الشرط ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، يبقى رخصة التعددية هنا ليها علاقة أهي بموضوع اليتامي. علشان كده بأقول إنه ماينفعش نستشهد بجزء من الآية، يبقي حنعمل زي اللي يقري ولاتقربوا الصلاة ومايكملش.
- دودج: بس الشيوخ ماقالوش كدة!

- ميجو: شوف يادودج، التفسيرات كتير قوي وده من رحمة ربنا، لكن لو قريت معظم كتب التفسير حتلاقي كل التفسيرات تقريبًا بتدور حوالين علاقة التعدد بالأيتام سواء من زواج اليتيمة نفسها أو أم الأيتام أو حتى في عدم إساءة استخدام مال اليتيم. في النهاية رخصة التعدد لها علاقة باليتامى بشكل أو بآخر وأنا في الحقيقة ما أقدرش أدعي إني بأفسر القرآن علشان أفتي لك أو أفتي لغيرك، أنا قريت الآية كدة على بعضها وده اللي وصل لي.. ممكن يكون اللي وصل لي غلط على فكرة مافيش مشكلة لأنه في النهاية كلام بشر ممكن يكون صح وممكن يكون غلط، لكن كلام ربنا لا يمكن يكون إلا إنه صح وبس مهما اختلف البشر في تفسيره.
- طاكو: بس ياسيدي أديني جِبت تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير، وكلهم بيقولوا إن اليتامى هنا مقصود بهم البنات.
- ميجو: أنا قريت التفسيرات دي كلها وخاصة حديث السيدة عائشة، لكن زي ماقولت لك، التفسيرات كتير، وطالما العلماء اختلفوا في التفسير، يبقي مافيش تفسير واحد ملزم وكل واحد حيتسأل عن قناعته. طب إنت ما أخدتش بالك أن الطبري مثلًا بدأ تفسيره بقول أبو جعفر أن اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك؟
- طاكو: أه فعلًا ... بس تقصد إيه؟
- ميجو: أقصد إن طالما فيه أكتر من تفسير للآية، يبقي ماينفعش تمسك في تفسير واحد إلا لما تقرى باقي التفسيرات وتشوف قناعتك حتوديك لفين لإن ربنا حيحاسبك على قناعتك دي.
- دودج : يعني الراجل مش مِن حقه يتجوز تاني ولا إيه؟
- ميجو : برضه أنا ماقولتش كده خالص، ربنا إدانا رخصة نتجوز إتنين وتلاتة وأربعة، وده مافيش خلاف عليه أبدًا، لكن الخلاف هو في امتى

أقدر أستخدم الرخصة دي وإزاي أستخدمها من غير ما تسبب ضرر. المشكلة يا دودج إن الرجالة مابقيتش شايفة من الدين إلا مثنى وثلاث ورباع لدرجة إن رجالة كتير قوي بقوا بيصاحبوا ويرافقوا بإسم الدين، ولو قولت لهم كدة غلط يقولك ما أنا حأتجوزها.

- طاكو: ما هو علماء الدين هما اللي فسروا الآيات كدة والناس مشيتْ وراهم!
- ميجو: علماء الدين بيجتهدوا، لكن في النهاية كل إنسان مسئول عن نفسه وفق قناعته.
- طاكو: دي أنا معاك فيها، وأنا حأقرى تاني في الموضوع ده.
- ميجو: طالما حتقرى بقى، يبقى لازم تاخد في إعتبارك إن الفكر الحاكم لمعظم التفسيرات هو فكر ذكوري في الأساس، وده حتلاقي أثره في إعطاء الأفضلية المطلقة للرجال في كل حاجة، حتى في الجنة اللي العلماء أبدعوا في تفسير كيانها وصورها، بالرغم مِن إنهم كلهم معترفين بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما اتسأل عن الجنة، فقال: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر".
- دودج : حتى الجنة كمان؟
- ميجو: نأخدها بالعقل لو سمحتوا.. لما الرسول – صلي الله عليه وسلم – يقولنا إن اللي في الجنة ده ما لا خطر على قلب بشر، وإحنا كلنا بنصدق في كلام الرسول (عليه الصلاة والسلام) وأنه لا ينطق عن الهوى، يبقى لما ييجي أي حد يفسّر لنا الحاجات اللي في الجنة، والحور العين، والولدان المخلدون، والأنهار، والمرجان، واللؤلؤ المكنون، يبقي اللي بيصدق كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيصدق على طول إن طالما التفسيرات دي هي اللي خطرتْ على قلوب هؤلاء البشر، يبقى

أكيد موش هو ده التفسير المقصود؛ لإن التفسير الصحيح هو اللي مش حييجي على بالنا أساسًا إلى قيام الساعة بنص حديث الرسول.

- طاكو: يعني الحور العين طلعوا فشنك كمان؟
- ميجو: الحور العين حق لكل المؤمنين رجال ونساء، وحأرجع لنفس النقطة اللي كنت بأتكلم فيها، إن تعدد التفسيرات بيثبت إن مافيش تفسير ثابت، وأن علماء الدين حيفضلوا يختلفوا في التفسير لكن لا يمكن حيوصلوا أبدًا للتفسير الصحيح للقرآن لأن ربنا قال إنه لا يعلم تأويله إلا الله.
- دودج: يعني مفيش سبعين حورية وسبعين وصيفة وسبعين سنة، وسلسلة السبعينات اللي ملوا دماغنا بيها؟
- ميجو: الله أعلم، إيه اللي حيكون موجود، أنت بتتكلم عن شيء غيبي ربنا ذكره في القرآن وقال إنه لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه وتعالى وكمان رسول الله عليه الصلاة والسلام قالك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وبعدين إنتوا ليه شاغلين بالكم بالحور العين اللي في الجنة، ماتشغلوا بالكم الأول بإنكم تدخلوا الجنة.
- طاكو: صدقتَ يا صديقي.
- ميجو: لما تظلم مراتك اللي قضتْ عمرها في خدمتك إنت وولادك، ونتيجة خدمتها دي هي ولادك اللي إنت فرحان بيهم النهاردة، والمكانة اللي إنت وصلت لها بتعبها معاك، وصبرها عليك وعلى ظروفك أيام ما كانت الظروف صعبة، وكنت مستحيل تفكر في الجوازة التانية أياميها، وتيجي دلوقتي تقول أصلها إتغيرت، وبقت ولا مابقيتش، وتنسى إنك إنت كمان إتغيرت، وياما إنشغلت عنها، وياما ظلمتها، وإن زي تغيرْها ما ضايقك، أكيد تَغييرَك إنت كمان ضايقها، بس هي إستحملت علشان البيت والعيال، وقدَّرت ظروف شغلك، وظروف حياتك، وإنت فكرت في

نفسك وفي حقك المزعوم، ده بقى مايخليكش تفكر إن كنت حتدخل الجنة ولا لأ!

- دودج : أيوة، بس أنا مظلمتهاش، أنا إتجوزت على سنة الله ورسوله وهي اللي مارضيتش تكمل.
- ميجو: عمومًا، ربنا بس هو اللي مطَّلع على النوايا، وكل واحد فينا حيدفع تمَن قراراته يوم موقف عظيم، وخدوا بالكم، ربنا بيسامح في حقه، لكنه مابيسامحش أبدًا في حقوق الناس، فاللي عليه حق يوفيه النهاردة، أصل النهاردة أرخص قوي يا إخوانًا، والله العظيم، النهاردة أرخص قوي قوي.

المنظور العكسي

اللقاء بعد الفراق

قد تفرق الأيام بين الأصحاب، وتباعد بينهم المسافات، وتزيد مِن انشغالهم مصاعب الحياة ومسئولياتها، ولكن لحظة اللقاء دائمًا ما تكون هي اللحظة التي تُمحَى فيها المسافات، وتتلاحم عندها الذكريات، وكأن كل ما مضى مِن سنوات الافتراق ليست إلا لحظات مِن الانشغال تنقضي بمجرد أن تلتقي العيون.

تواعدت الصديقات الثلاث على اللقاء بعد عمر مِن الفراق فرضتْه عليهن ظروف الحياة، بين مَن بدأتْ حياتها بالسفر والغربة، ومَن فرض عليها انشغالها مع أولادها ونزوات زوجها عزلة مجتمعية أبعدتْها عن جميع الأصدقاء، أو حتى أقرب الأقرباء، والأخرى التي ظلَّتْ متاحة للجميع؛ لأنها كانت دومًا صديقة الجميع.

ولأن اللقاء كان وليد الصدفة البحتة التي لم يتم الترتيب لها إلا مِن خلال دعوة على الفيس بوك أطلقتْها صديقة الجميع، ليكون اللقاء الذي لم يكن أحدٌ منهنَّ ينتظر حدوثه بهذه السرعة، لقاء خاصٌّ جدًّا ذو وقع شديد الأثر على الصديقات الثلاث مصحوب بالكثير مِن العاطفة الناطقة، والمشاعر المتناقضة التي لا يعلم مَن يراها إن كانت نتاج فرط سعادة اللقاء، أو دليل شدة الحزن على تبعات الالتقاء، إنها هذه المشاعر الطفولية التي تنتابنا جميعًا عندما تشتد حماسة اللقاء، فتجعل الدموع تختلط بالضحكات الهيستيرية المصحوبة بالصراخ، الأمر الذي جعل كل مَن حولهن ينظر إليهن بفضول؛ ليعرف سبب هذا الصراخ!

- دينا: وحشتوني.. وحاااااشتوني... وحاااشتووووووني.
- لبنى: أنا مش مصدقة عينية.. يااااااه.... طَب والله ما مصدقة عينية!
- سالي : لا.. لاااا.. لاااااااا.. مش ممكن.. مش ممكن... أخيرًا.
- لبنى: فينكم يا بنات، مش ممكن كل السنين دي مانتقابلش، معقولة كل الغيبة دي!
- دينا: يااااه، تصدقوا إن آخر مرة إتقابلنا كانت يمكن مِن أكتر مِن عشر سنين.
- لبنى : هو إيه ده اللي أكتر مِن عشر سنين، فشررررر.. ده إحنا عمرنا كله ماجابش لسة تلاتين سنة!
- سالي : مفيش فايدة، لبنى حتفضل زي ماهي، مش عايزة تكبر أبدًا!
- لبنى : وأكبر ليه إن شاء الله؟ ما أنا زي ما أنا أهوه!
- دينا : طول عمرك قمر يا حبيبتي، والقمر بيفضل طول عمره حلو.
- سالي : لأ وإنتِ الصادقة، القمر بيجدد حلاوته كل شهر، إنتِ بتعملي إيه في نفسك يا لبنى؟
- لبنى : يا خرابي عليكِ وعلى لسانك يا سالي، حتفضلي طول عمرك مدبّ كدة، وبترزعي الكلام مِن غير ماتفكري؟
- سالي : ياختي، هو أنا قلت حاجة، أنا بقول إن القمر بيعرف يجدد حلاوته كل شهر، وإنتِ طول عمرك وإنتِ بتاخدي بالك مِن نفسك، وبتعرفي تحافظي على حلاوتك وجمالك، مش زيّنا مبعجرين!
- لبنى : ده إنتوا قمرات والله، كفاية روحكم الجميلة اللي مليانة خير.
- سالي : أيوة.. أيوة.. هي دي.. ماهي في الأخر بترسَى على روحنا الحلوة، هي دي اللي الناس بقت بتاخد بالها منها.
- دينا : سيبكم بقى مِن سننا وبعجرتنا، وخلونا نقعد ننمنم شوية زي زمان، وحشتني النمنمة معاكم يا بنات والله.

- لبنى : يخرب بيتك، إنتِ زي ما إنتِ مِن أيام الجامعة، طول عمرك غاوية نمنمة على الناس.
- دينا : أهو نتسلَّى شوية، ونعرف أخبار الدنيا إيه، حد فيكم بيشوف البت منى؟
- سالي : أنا قابلتها مِن بيجي شهر كدة، وكانت حالتها هباب بعيد عنكم.
- لبنى : خير! إيه اللي حصل؟ أنا أصْلي آخر مرة شوفتها يمكن مِن أكتر مِن تلات شهور كدة، وكانت متخانقة خناقة لرب السما مع جوزها، وكانت سايباله البيت وقاعدة مع مامتها.
- دينا : الرجالة كدة مالهومش أمان.
- سالي : أبدًا والله، الراجل مالهوش ذنب، ده طول عمره بيحبها ومموِّت نفسه عشان يبسطها.
- لبنى : آه والله، بس هي كانت عايزة تشتغل وهو كان رافض، وبيقول لها إنهم مش محتاجين شغلها ده.
- دينا : محتاجين! ليه إن شاء الله، هي حتشتغل علشان تصرف عليه وعلى البيت! ده إيه النيلة دي!
- سالي : ياستي أصبري بس، إنتِ على طول طلقك حامي كدة! الراجل لا طلب منها تشتغل ولا قاللها تصرف على البيت، ده بالعكس بقى، ده شايلها مِن على الأرض شيل، ومش عايزها تتعِب نفسها.
- لبنى : شغل الست حتى لو البيت مش محتاجه، بيحسسها بقيمتها ويديها الأمان.
- سالي : ياختي بلا قيمة بلا أمان، أمان الست في راجلها، وقيمتها في بيتها اللي مِن غيرها يبقى ولا حاجة.
- دينا : إيه ست أمينة اللي طلَّتْ علينا مِن فيلم قصر الشوق فجأة كدة؟ إنتِ قديمة قوي كدة ليه؟

- سالي : يمكن أكون قديمة زي مابتقولي، لكن أنا مبسوطة كدة.
- لبنى : أنا بصراحة ماباشوفش قيمة الست إلا في شغلها، وإنها تكون حاجة في المجتمع.
- دينا : والحاجة دي بقى اتجوزت، ولا لسة مستنية تلاقي الحاجة اللي تناسب الحاجة؟
- لبنى : شوفي يا دينا، من غير تلقيح، أنا فعلًا اتأخرت في الجواز، بس يوم ما اتجوزت اتجوزت راجل كل البنات يحلموا بربعه.
- سالي : أخيرًا عملتيها يا مجرمة، وإزاي ماتعزيميناش؟! طب والله العظيم زعلانة منك.
- لبنى : والله الموضوع جه فجأة وبدون ترتيب، وهو كمان مشاغله كتير قوي، فملحقناش نرتب لفرح وكدة.
- دينا : بس أنا سمعت إنك كنت مرتبطة بيه مِن أكتر مِن تلات سنين.
- لبنى : لأ.. أنا فعلًا كنت مرتبطة براجل أعمال زيه مِن تلات سنين، وماحصلش نصيب.
- دينا : وعلى كدة بقى هو متجوز ولا أرمل ولا إيه؟
- سالي : إيه يا دينا اللي بتقوليه ده؟!
- لبنى : سيبيها يا سالي، هي طول عمرها كدة، بس أنا حأريَّحها وحأحكي لها كل حاجة.
- دينا : متزعليش مني، أصل أنا مش بعرف أزوَّق الكلام.
- لبنى : لا أبدًا، مفيش زعل ولا حاجة، الموضوع وما فيه إن مش معقول بعد ما استنَّى كل ده حأتجوز واحد يكون لسة بيكوِّن نفسه، وبيحوِّش المهر، وبيحجز شقة، بيتهيألي بعد العمر ده كله لازم أتجوز واحد جاهز؛ لأنه هو كمان بياخد ست جاهزة تشرفه قدام المجتمع بتاعه.
- سالي : طبعًا يا حبيتي، ده إنتِ تشرفي الباشا.

- دينا : بس العريس الجاهز اللي زي ده لازم حيكون متجوز ومخلف كمان.
- لبنى : ودي فيها إيه؟! أنا عن نفسي ماتفرقش معايا.
- دينا : يعني ماعندكيش مشكلة إنك تكوني الزوجة التانية؟
- لبنى : والله هو في أول تعارفنا قال لي إنه عنده مشاكل مع مراته، وإنه كدة كدة حيطلقها.
- دينا: واللي فات كمان قال كدة؟
- لبنى : يا حبيبتي كل الرجالة المتجوزين أول مابيعرفوا واحدة وبيبقوا عايزين يرموا عليها الشبكة مفيش غير الإسطوانة دي اللي بيشغلوها، أنا بقى ما بيفرقش معايا تكون إسطوانة ولا شريط كاسيت، ولا حتى إسطوانة جرامافون؛ لإني تعودت أكتشف حقيقة كلامهم بنفسي، والحمد لله جوزي طلع كلامه صح، وطلَّق مراته كمان.
- سالي : لاحول ولا قوة إلا بالله، إلا خراب البيوت يا لبنى.
- لبنى: أنا ما خربتش بيت حد يا سالي، هي اللي ما عرفتش تحافظ على بيتها، والراجل كان مظلوم معاها، ومقدرش يستحمل أكتر مِن كدة، تفتكري هو لو كان مستريح معاها كان ممكن يطلقها، ولا حتى يفكر في واحدة تانية؟
- دينا : كل الرجالة عينها زايغة، ويتدبّ فيها رصاصة، والرَّكْ دايمًا بيكون على الست.
- لبنى : بالظبط كدة يا دينا، الرك بيكون على الست اللي بتعرف تحافظ على راجلها وتملى له عينيه.
- دينا: دول صنف مايملاش عينهم إلا التراب.
- سالي: طب قوليلي بس يا لبنى، إنتِ مش حاسة بالذنب إنك كنتِ السبب في خراب بيت واحدة بغض النظر عن هي إيه؟

- لبنى: طب مش حنشرب حاجة الأول يعني، ولا القعدة معاكم قُردِيحي؟ خلونا نطلب حاجة الأول، وأنا أحكي لكم الحكاية مِن طقطق لسلام عليكم.. مِن فضلك.. المنيو لو سمحت.

اطبخي يا خايبة للغاية

لماذا نرتضي لأنفسنا كل ما لا نرتضيه مِن الآخرين؟ ولماذا لا نقبل مِن الآخرين ما نبرره لأنفسنا مِن مسببات وحجج تجعل خطأنا دائمًا مقبولًا؟

إن الإنسان بطبعه وطبيعته يستطيع أن يجد آلاف المبررات لكل أفعاله وتصرفاته، بل ويطلب مِن كُلِّ مَن حوله أن يتقبلوا منه بناءً على نيته أو مقصده الذي لا يعلمه إلا هو ذاته، وفي المقابل نجد نفس الإنسان لا يستطيع أبدًا أن يقبل مِن الآخر أي خطأ مهما حاول أن يوضح له نيته أو مقصده؛ لأن ابن أدم يعامل كل مَن حوله بناءً على ما يصيبه منهم مِن ضرر، أو ما يجنيه مِن ورائهم مِن نفْع، في حين يطلب مِن الآخرين جميعًا أن يأخذوا بعين الاعتبار نواياه الطيبة ومقاصده الحسنة مهما أصابهم مِن ضرر أو فاتهم مِن نفْع بسبب تصرفاته، غريب أمر ابن آدم!

تحكي إحدى الأساطير الإغريقية القديمة أن رجلًا كان على خلاف مع أخيه، فقرر الاحتكام إلى زيوس قبل أن يُوقِع العقاب بأخيه، ولأن زيوس كان على علم بسبب قدومه، فإنه وبمجرد دخوله إلى المعبد قام زيوس بعرض تصوير لنفس الموقف الذي جاءه الرجل ليشتكي فيه أخيه، ولكن بعد أن قام بتبديل أدوارهم وأماكنهم في هذا التصوير، بحيث وضع الرجل محلَّ أخيه والعكس بالعكس، فلما شاهد الرجل الموقف كما صوَّره زيوس، التمس لنفسه كل الأعذار فيما فعله، وهي الأعذار التي لم يستطع قبولها مِن أخيه

في الواقع، فلما انتهى مِن رؤية الموقف المعكوس، سأله زيوس عن سبب قدومه، فقال له: جئت لأخبرك أنني قد سامحتُ أخي طالما كانت هذه نيَّته.

انتهتِ الصديقات الثلاث مِن طلب المشروبات بعد مباحثات ومداولات حول مدى فائدة كلٍّ مِن هذه المشروبات، والسؤال إن كنَّ قد جربنها مِن قبل، أو إن كنَّ سمعن عنها أو عن المكان شيئًا، بالإضافة إلى تفحُّص المكان، وطريقة تنزيل المشروبات للعملاء، ومدى نظافة الكؤوس، وابتسامة النادل، كل هذا كان يتمُّ خلال أجزاء مِن الثانية، ويتمُّ طرْحه وتقريره خلال مرحلة طلب المشروبات كعادة كل اجتماعات ومقابلات بنات حواء.

- سالي : قوليلي بقى يا لبنى، إيه اللي حصل؟ وإزاي تقبلي إنك تاخدي واحد مِن بيته وعياله؟ ده إنتِ حكايتك حكاية!
- لبنى: برضه حتقولي إني أخدته مِن بيته وعياله ومراته! الموضوع مش كدة خالص يا سالي على فكرة.
- سالي : طَب قوليلي إزاي؟
- لبنى : أنا زي ما إنتوا عارفين إتجوزت وأنا صغيرة قوي، واللي تجوزته كمان كان صغير قوي.
- دينا : بس إنتِ حاربتِ أيامها علشان تتجوزيه.
- لبنى : ما أنا قلت إني كنت صغيرة أيامها، وماكنتش أقدر أحكم صح، المهم إن جوازتي دي ماعمَّرتْش، والحقيقة إني ماقاوحتش مع نفسي كتير كمان.
- سالي : ليه؟ إنتِ اتطلقتِ إمتى؟
- لبنى : أنا فضِلت متجوزة يمكن تلات أربع سنين، بس الحقيقة إني مِن أول سنة وأنا كنت عارفة إن الجوازة مش حتكمل، لكن كنت عايزة أتأكد إني عملت أقصى ما عندي علشان ما أندمش، والحمد لله أنا

دلوقتي فعلًا مش ندمانة على قراري بالانفصال، بس يمكن ندمانة قوي على إني تأخرت فيه تلات سنين.

- سالي : وبعد ما إتطلقتِي عملتِ إيه يا قادرة؟
- لبنى : أبدًا، عملت كل اللي كان نفسي فيه.. اشتغلت، وسافرت، وعشت حياتي، وأثبتّ نَفسي في شغلي لغاية ما بقى لي شخصيتي وكياني المستقل، تقدري تقولي كدة إني كنت بشتغل على نفسي علشان أوصل للي أنا مصدقة إني أستحقه.
- دينا : ما إنتِ طول عمرك دماغك ناشفة، واللي في راسك في راسك.
- لبنى : معتقدش بقى بعد تعب كل السنين دي لغاية ما بقيت زي ما أنا دلوقتي، ينفع آخد واحد يكون لسة بيكَوّن نفسه، وبيدوَّر على شقة، وبيحسب حيجيب المهر منين، بيتهيألي إني أستحق إني آخد راجل ملو هدومه يستاهلني، وزي ما بقيت ست كاملة قوي، لازم الراجل اللي آخده يبقى هو كمان راجل كامل قوي قوي.
- دينا : وطبعًا الكلام ده لا يمكن تلاقيه إلا في خمسيني متوهج، ومتجوز طبعًا.
- لبنى : بُصّي، أنا عدَّى عليَّ رجالة كتير، وقابلت رجالة كتير قوي، وأقدر أقول لك إن معظمهم كان فعلًا متجوز لدرجة إن كان فيهم جوازات صحباتي كمان.
- سالي : يا لهوي على البجاحة!
- لبنى : الموضوع مش بجاحة يا سالي ولا حاجة، إنتِ بس اللي طيبة وعلى نيَّاتك، الموضوع إن الرجالة كلها بتبقى عايزة تصاحب وتتدلع وتشوف لها يومين، وطبعًا معظمهم بيدوروا على المطلقات علشان بيتخيلوا إنهم ساهلين ومجربين، وطبعًا والأهم محتاجين.
- دينا : واطيين.. واطيين!

- لبنى : الرك هنا على الست على فكرة مش على الراجل، لإن كل الرجالة فيهم الطبع ده، لدرجة إني مابقيتش خلاص بشوفه عيب في جنس الرجالة على فكرة، أنا بقيت بشوفه مجرد طبع، حاجة كدة في الجينات، ولازم الستات تقبلها، وتعرف إزاي تتعامل معاها.
- سالي : طب وجوزك إيه! برضه نفس الجينات؟
- لبنى : جوزي راجل محترم جدًّا، ورجل أعمال ناجح جدًّا، وله نشاطه الاجتماعي والسياسي، يعني تقدري تقولي كدة إني متجوزة نجم مجتمع.
- سالي : ربنا يهنيكم، بس إنتِ بتقولي إنه طلَّق علشان يتجوزك.
- لبنى : أول ما اتعرَّفنا، كنا بنتكلم كأصدقاء مش أكتر، وقال لي يومها إنه مش مستريح مع مراته، وإنها مش قادرة تفهم متطلبات حياته الجديدة، بالرغم مِن إنهم بقالهم حوالي تلاتين سنة متجوزين، لكنها مش قادرة تتغير وتتكيف على وضْعه الجديد.
- دينا : هي المشكلة كلها في بنتكلم زي الأصدقاء دي، ياختي على كهن الرجالة!
- لبنى : لا والله يا دينا، إحنا فعلًا كنا بنتكلم كأصدقاء، ومكانش بيشتكيلي، ده كان بياخد رأيي كصديقة.
- سالي : بياخد رأيك في مراته! لا والله! ده إيه الكهن ده؟!
- لبنى : بُصِّي ياسالي، كل الرجالة أول مابيعرفوا أي ست بيبدءوا دايمًا بنفس الإسطوانة، أنا عرفت أكتر مِن راجل، وكنت حتخطب لِاتْنِين قبل جوزي، وكلهم كانوا برضه متجوزين، بس فيهم اللي بيبدأ بالإسطوانة وأول ماييجي عند الجد يخلع، وفيهم اللي أول ما مراته تعرف تلاقيه قلب على أختنا الكبيرة حسب الله.
- دينا : وجوزك هو بقى اللي أثبت إنه راجل، وكمِّل لغاية ماطلَّق!

- لبنى : أنا قلتلك إنه مكانش مستريح، وإنه كدة كدة كان حيطلَّق، وبالرغم مِن إن الطلاق تمَّ قبل جوازنا، لكن هو كان حيطلَّق حيطلَّق حتى لو متجوزناش.
- سالي : طب وأولاده.. قاللهم إيه؟
- لبنى : خلاص هو ربَّى وكبَّر، والولاد بقوا رجالة، ومِن حقه إنه يعيش حياته بالشكل اللي يريحه.
- سالي: مش عارفة والله يا لبنى، بس أنا مقدرش أحطّ نفسي في الموقف ده أبدًا، مهما كان الست دي تعبت معاه تلاتين سنة لغاية ما بقى النجم اللي إنتِ شايفة إنك تستاهليه، هو إيه؟ اطبخي يا خايبة للغايبة؟
- لبنى: وهي ليه ما أخدتش بالها مِن جوزها علشان مايبصش بره؟
- دينا : إنتِ قولتِ إن ده طبع كل الرجالة، يعني مهما الست عملتْ مفيش فايدة، ولا يكونش ده طبع الرجالة قبل ما يتجوزوا الجوازة التانية بس؟
- لبنى : أنا مارحتش وقلت له تعالى اتجوزني على فكرة، هو اللي جه لغاية عندي، وقاللي إنه مش مستريح مع مراته، وأنا كنت دايمًا بأنصحه إنه يطوّل باله عليها، ويديها فرصة تانية، لكن هي اللي كانت نكدية، وبتتعامل معاه مِن منطلق إنه لا يمكن حيسيبها، أحيانًا كتير لما بنضمن اللي قدامنا قوي بنفقده قوي قوي.
- دينا : تلاتين سنة ومقدرتْش تضمنه! يادي النيلة، أُمَّال الرجالة بتتضِّمن بعد قد إيه إن شاء الله؟
- لبنى : الرجالة ماتتضمنش ياحبيبتي، الست اللي تضمن راجل تبقى زي اللي محوِّشة المايه في الغربال.
- دينا : يعني إنتِ مش ضامنة جوزك كمان!
- لبنى : أنا ضامنة نفسي ياحبيبتي، أنا عارفة نفسي كويس قوي، وعارفة إزاي أخليه لا يمكن يفكر في واحدة غيري.

- سالي : بس متنسيش، كما تدين تدان.
- لبنى : أنا قلتلك ياسالي إني مش أنا السبب في طلاقه، هو اللي كان وصل لآخره معاها، وكان كدة كدة حيطلَّق حتى لو ماكنتش أنا ظهرْت في حياته.
- سالي : كل الستات بتحب تريّح نفسها بالكلام ده، وزي ما الرجالة عندهم أسطوانتهم اللي مابتنتهيش، برضه كل الستات عندها الإسطوانة اللي بيريحوا بيها نفسهم.
- لبنى : أنا فعلًا مرتاحة قوي للكلام ده؛ لإني مش طرف في موضوع الطلاق.
- سالي : يمكن، وعمومًا طالما ده مريّحك يبقى مفيش مشكلة، بس لازم تفتكري طبْع الرجالة اللي في جيناتهم، واللي يقدر يبيع حب تلاتين سنة مايضِّمِنش أبدًا حتى لو كانت العروسة الجديدة أنجيلينا جولي.
- دينا : بلا نيلة، ده حتى أنجيلينا جولي معرفتْش تضمن جوزها، قطيعة تقطعهم.
- سالي : أديكي قولتيها أهو يا دينا، يبقى مفيش حاجة مضمونة، وكمان.. كما تدين تدان.
- دينا : خلاص بقى يا ست أمينة، بطَّلي تعكنني على البنيَّة، دي لسة عروسة، شوفتوا البت رانيا عمِلِتْ إيه؟
- لبنى : خير.. عملت إيه؟ هي مش كانت مسافرة مع جوزها وأمورهم كانت ملخبطة حبتين.
- دينا : اسكتي.. دي طِلْعِتْ قادرة، وإحنا اللي كُنَّا فاكرينها ملاك! أتاريها سُهُنّ، مَيَّة مِن تحت تِبن المجرمة!
- سالي : ليه؟ إيه اللي حصل؟

- دينا : طيب قبل ما أحكي لكم، أنا حأطلب كريب بالنوتيلا والأيس كريم، أجيب لكم معايا؟
- لبنى : هاتي هاتي بقى، بلا ريجيم بلا نيلة، دي القعدة شكلها حتحلوّ!

حقها ولا موش حقها

التناقض البشري في إصدار الأحكام حسب طبيعة ومكانة الأشخاص هي طبيعة بشرية منذ بداية الخليقة، بدليل أن كل الأديان والعقائد البشرية على السواء قد نهت عن تفصيل الأحكام بناء على مكانة مَن يصدر ضدهم الأحكام، فالعدل في مضمونه السوي يقتضي أن تكون الأحكام كلها سواسية مهما اختلفت مكانة مَن نصدرها عليهم، وإلا اختلَّتْ منظومة العدل مهما كانت المبررات والحجج التي نسوقها لتبرير أحكامنا.

وبطبيعة الحال، فإن إصدار أي حكم لا بد له مِن ركن توفر العلم بكافة الظروف والملابسات المحيطة؛ حتى نتمكن مِن استصدار الحكم، وهذا طبعًا إن كنَّا في محل إصدار أحكام، أما عندما نكون في موقع المشاهدة فقط، حيث لا ناقة لنا ولا جمل في أصل الحكاية، والمشاركين فيها، والمستفيدين منها، والمتضررين بنتائجها، فهذا يعني أن أحكامنا سواء على الفاعل أو المفعول به هي مجرد أحكام نظرية مبنية على مشاهدات لا نعلم صحتها؛ لأننا لا نعلم مِن الأساس مبرراتها، ولا مسبباتها، ولا مقدماتها، ولا حتى نتائجها.

انتهت الصديقات الثلاث مِن تناول الكريب بالنوتيلا مع الأيس كريم المغطَّى بطبقة مِن الكراميل التي يسيل لها اللعاب، ليبدأ مجلس النميمة مباشرة عن رانيا وزوجها.

- لبنى : قوليلي بقى إيه اللي حصل مع رانيا، شوَّقتيني.

- دينا : إسكتي على إجرامها، دي بهدلتِ الراجل، وقلبته ورمته في الآخر، وخدتْ عيالها وسافرت.
- سالي : إيه اللي بتقوليه ده يا دينا؟ أكيد فيه حاجة غلط! دُول كانوا زي الفل، وجوزها راجل محترم جدًّا، وكان بيحبها بجد، ده مكانش مخلّي في نفسها حاجة والله العظيم.
- دينا : بُصّي، هو أنا معرفش بالظبط إيه اللي حصل، لكن اللي أعرفه إن جوزها الدنيا اتدَّحدرتْ بيه، وشغله باظ خالص في الكعبلة اللي فاتت دي، والراجل كان بيبيع كل حاجة علشان يسدد اللي عليه.
- سالي : يا لهوي، وبدال ما تقف معاه تاخد عيالها وتمشي! إيه الوطي ده؟
- لبنى : إنتِ ياسالي دايمًا بتحكمي مِن وجهة نظرك، لازم تعرفي الأول إيه اللي خلاها تعمل كدة، ما حدِّش بيعمل حاجة أبدًا وهو عارف إنها غلط، لازم بيكون عنده المبررات والقناعة اللي تخليه يعمل اللي بيعمله، حتى وهو عارف إن الناس حتقول عليه غلط.
- سالي : لما أكون بأتكلم عن حكمي أنا، يبقى طبيعي إن حكمي ده بناء على قناعتي، زي ما كلامك برضه بناء على قناعتك اللي خلّتِك عملتِ حاجة ممكن أنا أكون شايفاها غلط قوي، وإنتِ شيفاها صح قوي.
- لبنى : إنتِ حرة طبعًا في تفكيرك، لكن أنا ماعملتش حاجة غلط على فكرة، أنا اتجوزت قدام الناس كلها، ولو كان قال لي إنه حيستمر مع مراته مش حيطلقها، كنت حأشترط عليه إنه ياخد موافقتها على إنه يتجوز عليها.
- دينا : يا لهوي! يعني إنتِ مكانش عندك مشكلة إنك تكوني زوجة تانية؟!
- لبنى : طبعًا معنديش مشكلة، هو إحنا ليه حنحرَّم اللي الشرع محلله؟!

- سالي : الشرع بيحلل إن الراجل يتطافس ويتجوز على مراته علشان مش مستريح معاها، ولا مابقيتش زي زمان، ولو معجباش يقوم مطلَّقها... ده في شرع مين ده إن شاء الله؟
- لبنى : حنرجع تاني ونقول وجهات نظر، وكل واحد حر في وجهة نظره يا سالي.
- سالي : دي مش وجهات نظر يا لبنى خالص، دي أساسيات ومفاهيم، لكن واضح إن حتى المفاهيم الأساسية بتتغير حسب وضع كل واحد فينا مِن المعادلة، يعني يمكن أنا لو كنت مكانك وفي ظروفك كنت فكرت زيك.
- دينا : أنا ياختي لا بأفكر كدة ولا حأفكر كدة، المهم بقى خلُّوني أكمِّل لكم حكاية البت رانيا.
- لبنى : أيوة أيوة، إيه بقى اللي عملته بعد ما الدنيا باظت مع جوزها؟
- دينا : بُصِّي ياستي، البت رانيا طول عمرها بتاعة منظرة زي ما إنتِ عارفة، ومبتتكلمش غير بالإي والأووو، وطبعًا حظها كان حلو إن في أول جوازهم الدنيا كانت مدِّياهم قوي، ومدلَّعاهم بالجامد، والولاد في الشويفات، وعربيات، ومصروفات، وسفريات، ومشتريات، وحاجات ومحتاجات... ياختيييي!
- سالي : طَب ربنا يهنِّيهم، أي راجل محترم حيعمل كدة.
- دينا: طبعًا، بس الرك بقى على الست لما الدنيا تقلب إنها تقف ورا جوزها وتسنده.
- لبنى : طبيعي، وإلا تبقى قليلة الأصل.
- دينا : اللي حصل إن لما الرجل الدنيا اتدحدرت بيه، وبدأ يبيع في حاجاتهم علشان يسدد اللي عليه، الست رانيا بقى قالت لنفسها أخلع

باللي فاضل بدال ما يبيع كل حاجة، ومالَقيش حاجة بعد كدة أنا وعيالي.

- سالي : لأ مش ممكن! أنا مش ممكن أصدَّق إن فيه واحدة محترمة تعمل كدة!
- دينا : والله العظيم ده اللي حصل، وطلبتِ الطلاق، والراجل كان حيموّت نفسه علشان ترجع في قرارها، لكن دماغها كانت ولا ألف جزمة.
- لبنى : أكيد فيه حاجة إحنا منعرفهاش خلّتها تصمِّم على كدة، إحنا لا يمكن نعرف كل خباياهم.
- سالي : أكيد طبعًا، أصل مش ممكن أبدًا واحدة بنت ناس زي رانيا تقل بأصلها كده، هي الدنيا حصل فيها إيه؟
- دينا : هي مِن أيام ما بقت تطلع في التليفزيون وهي شايفة نفسها، وحاسة إنها بقت نجمة مجتمع، وبقت بتخاف زيادة قوي على مظهرها ومكانتها المجتمعية، وطبعًا الوضع الجديد ده حينزِّل مستواها قدام أصحابها الجداد.
- لبنى : يا بنتي حرام عليكِ، بلاش افترا.
- دينا : هو إيه اللي افترا! شوفي.. الحاجَة الوحيدة اللي أفهم إن الست ممكن تسيب راجلها فيها هي إنه يكون خاين ولا متجوز عليها، لكن تقوليلي ظروفه ومادياته.. دي تبقى قلة أصل.
- لبنى : لأ ممكن الاتنين ينفصلوا على فكرة، لو ما بقاش بينهم تفاهم خلاص.
- سالي : وهما لسة حيشوفوا إن كان فيه بينهم تفاهم بعد خمسة وعشرين سنة جواز! ده إيه المصيبة السودة دي!

- لبنى : أيوة طبعًا، المصيبة دايمًا بتحصل لما مع الوقت كل طرف يحس إنه بقى بيمتلك التاني كله على بعضه، الراجل بيتخيل إنه امتلك الست وبقتْ مِن ضمن فرش البيت، والست بتتخيل إنها امتلكت الراجل بنظام وضع اليد.
- سالي : وضْع اليد برضه يا مفترية! عموماً الامتلاك ده دليل الحب.
- لبنى : لأ ياسالي، الامتلاك بالمنظر ده بيضيَّع الحب، لازم يفضل فيه مساحة خاصة لكل طرف، والطرف الثاني مايكونش له دخل بيها خالص، إحساس الامتلاك ده بيبوَّظ العلاقة لما الست تبدأ تحس إن الراجل بحياته بشغله بممتلكاته بقى حق ليها علشان صبرت معاه عشرين خمسة وعشرين سنة.
- دينا : طبعًا حقها، يعني تصبر، وتساعد، وتربي، وتشيل عنه تعب البيت والعيال والمدارس والمستشفيات علشان يركز هو في شغله، وبعدين لما يبقى حاجة يقولها معلهش دي حاجتي، وإنتِ ملكيش فيها.
- لبنى : أيوه حاجته طبعًا، هي حاجته على فكرة، وطول ما فيه الخصوصية دي حيعيشوا مع بعض مستريحين، لكن لما تبقى الخناقة على إن أنا اللي عملتك، وأنا اللي خليتك، وأنا اللي ادِّيتك، دي كدة بتقتل الحب؟ ده طبعًا لو كان لسة فاضل بينهم حب يعني.
- سالي : طبيعي إن يكون ده كلامك لإنك واقفة في الناحية التانية، لكن رانيا إيه اللي يخليها تعمل كدة؟
- لبنى : نفس الحكاية على فكرة، هي حسِّتْ إنها شريكة له في اللي وصلُّه له، وكانت عايزة تضمن حقها قبل ما العملية تبوظ خالص، ويبيع كل حاجة وتطلع هي وولادها مِن المولد بلا حمص.
- سالي : ياختي بلا قرف، إيه الستات دي؟! ده ضل راجل ولا ضل حيطة.
- لبنى : طيب زعلانين مني ليه بقى؟ ما أنا لقيت أهو ضل راجل!

- سالي : الراجل اللي بيتقسم على اتنين وتلاتة يا لبنى، مبيبقاش نصيب الست منه أكتر مِن ربع ولا تلت، ولا بالكتير قوي نُصّ راجل.
- لبنى : أنا والحمد لله، واخدة راجل كله على بعضه.
- سالي : ده بيتهيألك، بعد الكهارب والزينة المستخبي بيبقى على البينة.
- دينا : سِيبكوا بقى مِن الكلام الفارغ ده، وقوليلي ياسالي، إنتِ أخبار جوزك وولادك إيه؟
- سالي : قوليلي إنتِ الأول عاملة إيه في دنيتك؟ طول عمرك وإنتِ صاحبة الكل، ومراضية الكل، ومابتزعليش حد منك أبدًا، يا ترى عاملة إيه مع جوزك؟ عارفة برضه ترضيه كدة زي ما بترضي أصحابك؟
- دينا : هي الرجالة دي بترضى أبدًا! دُول زي القطط.. تاكل وتنكر.
- سالي : ليه كدة بس؟ قوليلي إيه الحكاية؟
- دينا : طيب أنا حأطلب الأول قرفة بالحليب، حد عايز حاجة؟

جوزك على ما تعوِّديه

يبدو أن طبيعة خلق الإنسان تجعله دائمًا في حالة مِن الطمع، لا يرضى معها أبدًا إلا عندما يكون الرضا مصحوبًا بالقهر أو الغصب الذي يُرغمه على الرضا، فالإنسان بطبعه يجد أن أي تنازلات يقدمها مَن هو أمامه بدافع التفهُّم، أو القبول، أو الحب، أو محاولة التعايش، أو حتى تفويت فرصة الدخول في صراع، هو فرصة ذهبية للحصول على المزيد مِن الاستحقاقات، بغض النظر عن كيفية الحصول عليها، أو ثَمن الحصول عليها.

هل إحساسنا بالقوة هو الذي ينمّي داخلنا هذا الشعور بالطمع في المزيد مِن التنازلات؟ أم أن إحساسنا بضعف مَن هو أمامنا حتى لو لم نكن في موقف قوة هو الذي يجعلنا نحاول أن نستغل ضعفه حتى نستشعر لذة القوة؟

انتهتِ الصديقات الثلاث مِن تناول مشروباتهم وهنَّ يتحاورن عن طريقة عمل هذه المشروبات، ثم تطرَّق الحديث عن طريقة عمل بعض الحلويات والمأكولات، والفرق بين ما يتمُّ تحضيره في البيت، وما يتمُّ تقديمه في المطاعم، الأمر الذي لم يخلُ بطبيعة الحال مِن الحديث عن طبع الرجال العجيب الذي يجعلهم يتهافتون على الذهاب إلى المطاعم والمقاهي بالرغم مِن عدم نظافتها، ومِن أن نساءهم يستطعن توفير كل ما يتم تقديمه في هذه المقاهي، وأكثر قليلًا!

- سالي : إلا قوليلي يا دينا، هو إنتِ جوزك بيشتغل إيه؟
- دينا : زي ما هو ياختي، مهندس وخاوتني بهندسته دي.
- لبنى : مالهم بس المهندسين يا دينا؟!
- دينا : أبدًا يا لبنى، بس كل كلمة تلاقي قصادها ميت شرح وتحليل وتفسير، تقوليش متجوزة أرسطو!
- سالي: كل الرجالة كدة على فكرة، مش بس المهندسين، لازم تلاقي عندهم تفسيرات لوزعية لكل حاجة، وخاصةً بقى الحاجات اللي الستات بتعملها ولا حتى بتقولها.
- دينا : بس أنا بقى جوزي عبارة عن ستين فيلسوف، على دكاترة نفسيين مضروبين في الخلاط، فطلع منهم كوكتيل.. جوزي.
- لبنى : يادي الصداع، ده إنتِ على كدة متجوزة كابتن لطيف؟!
- دينا : كابتن لطيف على نفسه يا حلوة، كان غيره أشطر، جوزك على ما تعوّديه، وابنك على ما تربّيه.
- سالي : قادرة والمصحف، طول عمرك قادرة.

- دينا : بُصِّي بقى ياسالي، الطيبة مع الرجالة لازم يكون لها حدود؛ لإنهم لما بيحسوا بطيبتك وإنك بتقبلي منهم أي حاجة بيسوقوا فيها، ويزودوا العيار تلات أربع شويات.
- لبنى : فهِّمينا يا زمخشري العلاقات الزوجية.
- دينا : قبل الجواز، جوزي كان بيحب قوي يعلَّق على كل حاجة بأعملها، وكنت الحقيقة بشوف إن دي ميزة فيه وقت ما كنَّا بنتعرف على بعض؛ لأن تعليقاته دي كانت بتخلِّيني أفهمه أكتر، وأعرف شخصيته أكتر وأكتر، لكن الظاهر إنه تخيَّل إني بعد الجواز وبعد ما فهمتْ شخصيته وعرفتها حأفضل برضه زي ما أنا، وكل موقف يحصل ولا كلمة تتقال حيقعد يسمعني موشَّح عن ليه، وإزاي، وأعمل إيه، وما أعملش إيه، ولا كأنِّي متجوِّزة أرسطو.
- سالي : ياختي والله الستات دي مايملاش عينيها إلا التراب، ده تسعين في المية مِن الستات حيحسدوكي على نعمة الراجل اللي بيتكلم معاكِ، هو حد لاقي النهاردة راجل بيتكلم ويتناقش، ده الرجالة بعد الجواز بيقطعوا الكلام، والكلمة تطلع منهم بطلوع الروح، تقوليش حيدفَّعوهم ضرايب على عدد الكلمات اللي حيقولوها لمراتاتهم.
- لبنى : بس هو فعلًا زي ما دينا قالت، جوزك على ماتعوِّديه.
- دينا : ما هو ده اللي أنا عملته.
- سالي : قوليلنا يا زمخشري عملتِ إيه؟ قولي يا قادرة.
- دينا : أبدًا يا ست أمينة، اللي حصل إني ما قدرْتش أستحمل إن كل كلمة حأقولها ولا أي موقف حنعدِّي بيه حلاقي الأفندي فاتح لي مدرسة محو الأمية، وقاعد يديني حصة في إزاي ده حصل، وليه، وعلشان إيه، وفوق ده كله كمان أعمل إيه وأتصرف أزاي، ولا كأني واقفة في مدرسة قدام حضرة الناظر، فمكانش قدامي غير إني أقفل عليه الباب مِن

الأول خالص، فبقيت أول مالاقيه حيبدأ الحصة أقوم مغيرة الموضوع مِن أساسه، وأقعد أقول له إنتَ كدة حتوقَّع نفسك في مشاكل؛ لأن الناس مبتفهمش كلامك صح، ولازم تقلل مِن كلامك وتعليقاتك شوية علشان ماتدخَّلناش في مشاكل.

- لبنى : وهو كان بيسكت؟
- دينا : طبعًا لأ، في الأول كان بيقعد يقاوح ويحاول يقنعني بكلامه وبأسلوبه، لكن على مين، ما أنا عارفة إني لو قلتله إني مقتنعة بكلامه مش حخْلص، بس أقولُكم الحق، أنا في أحيان كتير كنت ببقى مقتنعة بكلامه، بس لما كنت أفتكر الصداع اللي حيجيلي مِن ورا موافقتي دي، أقول مابدَّهاش بقى.
- سالي : يا قادرة.. يا مفترية!
- دينا : يا بنتي لازم تعرفي إن الراجل اللي بيتكلم في كل حاجة ده بيتدخَّل كمان في كل حاجة، فلازم تحطي خطوط حمرا مايعديهاش، مش الرجالة زمان كانوا بيقولولهم ادبح لها القطة، إحنا بقى لازم نرسم الخطوط اللي مايعدُّوهاش.
- لبنى : طب وهو عامل إيه معاكِ دلوقتي؟
- دينا : أبدًا ياستي، زي الفل، بعد مادوَّقته مِن نفس الكأس بتاعه، وبقيت بأعلَّق على كلامه على الفاضي والمليان، عرف إن الله حق، وفهم إن الكلمة حيتردّ عليها بعشرة، وإن التحكمات اللي ملهاش لازمة دي لايمكن حتنفع معايا أبدًا، فبقى ياخدها مِن قصيرُه، وبقى يقصِّر معايا في الكلام؛ لأنه عارف آخرتها، النكد ده أصله سلاح عبقري.
- سالي : طَب والله العظيم حرام عليكِ، ده جوزك شكله طيوب خالص والله.

- دينا : أيوة طيب، وبيحبني قوي زي ما أنا بأحبه قوي كمان، ومش ممكن ألاقي حد يستحملني زيُّه أبدًا، وأنا عارفة ده كويس قوي والله، بس ده مش معناه إني لازم أقبل وجع الدماغ والتحكمات الفارغة على الفاضي والمليان، هو ليه لازم الست تقبل الراجل زي ما هو، والراجل مش هو اللي يقبل الست زي ما هي؟
- لبنى : أنا بقى ياحبيبتي معنديش المشكلة دي خالص، أنا قبلته زي ما هو، وهو قبلني زي ما أنا، وإحنا الإتنين عارفين كويس قوي إزاي نعيش مع بعض مِن غير ما حد يغَيَّر التاني، ولا يحتاج إنه ينكد عليه.
- سالي : متزعليش مني يا لبنى، بس الحقيقة إن دخولك في حياته أساسًا غَيَّره.
- دينا : يا ست أمينة، بطَّلي نكد بقى وحياة أبوكِ.
- لبنى : للمرة العشرين يا سالي حأرجع تاني وأقوللك أنا لا غَيَّرْتُه ولا طلبت منه يغيَّر حياته، هو اللي جالي وحكالي، وكان واخد قراره مِن قبل ما يعرفني.
- دينا : سيبك منها يا لبنى، الست أمينة دي عايزة سي السيد اللي يشكمها، ولا تقدرش تقول معاه جاااااي.
- سالي : أيوة، لازم الراجل يبقى هو اللي يحكم، ويبقى هو السند للست والعيلة، ولازم الست تبقى هي الحضن اللي يرجع له، ولما يحتاجها يلاقيها.
- دينا : ياختي الرجالة ما بقاش يكفيهم حضن واحد، دول عاملين زي الدبابير لازم ينزلوا على كل وردة تقابلهم يشمُّوها ويجربوا قبل ما يخلعوا ويطيروا علشان يجربوا اللي بعدها.

- سالي : أبدًا والله يا دينا، إنتوا بس اللي فاهمين الرجالة غلط، الراجل اللي يلاقي في مراته صاحبته وسكرتيرته وعشيقته وأمه وبنته... لايمكن يبص بره.
- دينا : يا ما شاء الله.. يا ما شاء الله! وفوقهم والنبي بقى شغالته اللي تنضف له البيت، وسواقته اللي تخَرّج العيال، والمُدَرِّسة اللي تدرس للعيال، والممرضة اللي تاخد بالها مِن صحتهم، دُول على كدة عايزين ست مولينيكس أووول إن واااان!
- سالي : هو ربنا خلقنا كدة على فكرة، زي ما خلق الراجل يشقى ويتعب، ويجيب فلوس، ويشيل الهمّ، ويتداين، ويتخانق علشان مراته وعياله وبيته، خلق الست كمان ولها دورها اللي مايقلِّلْش منها أبدًا، ده بالعكس بقى، يزودها ويزود قيمتها للّي بتفهم.
- لبنى : أنا مِن الأول خالص قلت إني مش حأدخَّل نفسي في الجو ده خاااالص، علشان كدة استنِّيت على نفسي لغاية ما وصلت للمرحلة اللي خلتْني أنا اللي أختار اللي أنا عايزاه، وبالطريقة اللي أنا عايزاها.
- دينا : عمومًا يا سالي، أنا بقى شايفة إن الست ما تقلِّش أبدًا عن الراجل، وزي ما الراجل له حق يتكلم ويتفلسف ويحكم ويأمر، الست كمان ليها نفس الحق، ولو دخلنا في الخناقة دي مش حنخلص أبدًا.
- سالي : إنتِ فكَّرتيني بسميَّة.. فاكراها؟ اللي عملتْ مشكلة مع أبوها زمان علشان تتجوز جوزها، وكانت حتنتحر لما رفضوا.
- دينا : أيوة أيوة، أخبارها إيه صحيح؟
- سالي : طَب خلُّونا ناكل حاجة، أحسن الكلام معاكم بيجوَّع والله، خلُّونا نطلب شوية مزات نمزمز فيهم، وبعدين أحكيلكم.

القسمة والنصيب

يبدو أننا نستريح جميعًا لفكرة وجود القدر في حياتنا، وخاصةً حينما يصبح القدر هو الشماعة التي نحمِّل عليها إخفاقاتنا، فليس أجمل مِن وجود هذا المبرر المسبق الإعداد لنعلِّق عليه سوء اختياراتنا، وتشبُّثنا بقرارنا، وعدم قبولنا لنصائح مَن حولنا، لتكون القسمة والنصيب هي سبب تمسُّكنا بإختيارنا عند الزواج مهما عارضه كل مَن حولنا، كما وتصبح هي أيضًا الرد الذي لا يصد ولا يرد عند الطلاق مهما حاول كلُّ مَن حولنا إثناءَنا عنه.

هل يمكن حقًّا أن يكون القدر سببًا في تعاستنا بفرضه علينا لاختياراته التي لا تناسبنا؟ أم أننا نحن مَن نلصق رغباتنا ونزواتنا وتعنُّتنا بالقدر حتى نستطيع أن نواجه نتيجة قراراتنا بعيدًا عن تأنيب الضمير ولوم النفس الذي ينغِّص علينا حاضرنا كما يفسد علينا بعد حين ذكرياتنا في المستقبل؟

لا يمكن بحال مِن الأحوال اعتبار القدر هو المسئول عن تحريك مجريات حياتنا إلا في حال سلَّمنا فعلًا للقدر في مجمل معاملاتنا ما قبلناه منه، وما لم نقبله طوال مشوار حياتنا.

أما مَن يتذكرون القدر فقط عند الابتلاء أو عند الإخفاق أو التعثر، فهؤلاء هم مَن يبحثون عن الشماعة التي يعلِّقون عليها سوء قراراتهم حتى لا يتحملوا نتائج اختياراتهم، وهم يُشعِرون أنفسهم ومَن حولهم أنهم ضحايا وليسوا جناة!

إحساس الضحية هو إحساس مريح جدًّا للإنسان؛ لأنه يحرره مِن تحمُّل نتائج وتبعات قراراته بعد أن يشعر أنه مفعول به، وليس فاعلًا.

بمجرد أن طلبتْ سالي المزات، لم تنتظر حتى يتمَّ تنزيل الطلبات، وبدأتْ مباشرة في إخبار البنات بقصة سمية التي تحدَّتْ أهلها مِن أجل حب حياتها الذي رفضه كل مَن حولها، ولكنها كانت ترى فيه ما لم يستطيعوا هم رؤيته، أو قد تكون هي مَن لم ترَ ما كان واضحًا جليًّا لكل مَن حولها، ولكنها في النهاية القسمة والنصيب.

- سالي : إنتوا فاكرين سمية المجنونة اللي كان كل ما حاجة تطلع في دماغها تعملها؟
- دينا : يا لهوي عليها وعلى جنانها، ده أنا فاكرة أيام الجامعة لما سافرت شرم الشيخ، وباباها رفض يديها فلوس راحت بايعة غويشة مِن غوايشها علشان تسافر، ومامتها كانت حتمَوّت نفسها علشان تجيبها لها تاني مِن غير باباها ما يعرف.
- لبنى : هي فعلا كانت عنيدة جدًّا ومكانش فيه حد بيقدر عليها.
- سالي : بعد الجامعة بسنتين كدة، عرفت واحد قريب واحدة صاحبتنا، واتهبلتْ عليه مع إنه كان شكله يعني... بس العربية البي إم، واللبس السينييه، والسهرات والفُسَح عموها خالص.
- دينا : أنا فاكرة فعلًا إن باباها مكانش موافق خالص على جوازتها دي.
- سالي : وأخوها كمان كان حيقاطعها بسبب الجوازة الهمّ دي.
- لبنى : ليه؟ هو كان فيه إيه؟
- سالي : كلهم كانوا شايفين إن الواد ده مش مسئول، وإنه عايش وحيتجوز مِن جيب أبوه اللي المفروض إنه شغال معاه، مع إنه كان بيصحى مِن النوم الساعة خمسة العصر، وبينام كل يوم الساعة خمسة الفجر.
- دينا : وطبعًا سمية بتموت في الجو ده، وكانت فاكرة إنه بعد الجواز حتبقى حياتهم كلها كدة، بابا حيصرف، وهما حيقضوها سهر

وخروجات وفسح كل يوم لحد الفجر، ويرجعوا يناموا لحد العصر، ويصحوا يلاقوا الغدا متحضر وجاهز، والسفرجي النوبي واقف يقولها... تهيبي نهوط الأكل في الجونينة ياستُّو هانيم!

- سالي : هاهاها.. طبعًا بعد الجواز اكتشفِتْ إن كلام أهلها كان مظبوط، وإن الراجل لو مكانش حاسس بالمسئولية مِن الأول ميبقاش راجل مِن الأساس.
- لبنى : الرجولة مِن وجهة نظري هي المسئولية، ملهاش تعريف تاني إلا المسئولية وبس.
- سالي : الرجولة يا لبنى هي المسئولية والحنية والتفهُّم، وفوق ده كله القدرة على مواجهة المشاكل مش الهرب منها.
- لبنى : إنتِ مش حتبطلي تلقيح بقى.
- دينا : يا ستي كبِّري دماغك بقى، هي بتتكلم عن الرجولة عمومًا، متبقيش حساسة قوي كدة وتاخدي كل كلمة على صدرك، اتعلمي تطلعي مِن نخاشيشك يا لبنى.
- سالي : أنا بتكلم في العموم يا لبنى، وأنا مليش في التلقيح على فكرة، أنا بقى فيَّ حتة رجولة تخليني أقدر أقول للأعور إنت أعور في عينه.
- دينا : أنهي عين فيهم يا ست أمينة... لأ وتقولي عليَّ أنا اللي قادرة!
- سالي : المهم بقى، متخرَّجوناش مِن الموضوع، ولا مش عايزين تعرفوا بقية الحكاية؟
- لبنى : ما هو الجواب باين مِن عنوانه، طبعًا اتطلَّقت!
- سالي : قولي اتهدلِت، ده مكانش طلاق، دي كانت عملية بتر مِن غير بنج!
- دينا : ليه، هو المِنَيِّل ده كانت علِّته إيه؟
- سالي : قولي كان فيه إيه صحيح! ده كان كله غلط في غلط، سهر، وشُرب، وحشيش، وبنات، وفوق ده كله قيحة ورمَّة وغلَّاط.

- دينا : وكل ده مكانتش شايفاه أيام الخطوبة؟
- سالي : ماهي المصيبة اللي بنقع فيها كلنا إننا بنتخيل إننا حنقدر نغيَّر رجالتنا بعد الجواز.
- لبنى : الحب الحقيقي فعلا بيخلّي كل طرف قادر يتغير علشان يرضي التاني.
- سالي : الحب الحقيقي هو اللي ميعميش الواحد، ويخليه مش قادر يشوف اللي بيحبه صح مِن الأول، الحب الحقيقي هو اللي يخلينا نقبل اللي بنحبه بكل اللي فيه، لكن إني أقول لنفسي إني حأقدر أغيَّره بعد الجواز، يبقى معنى كدة إني ما كنتش حبَّاه مِن الأول زي ما هو، كنت حابَّة الإنسان اللي عايزة أغيَّره علشان يبقى شبهه، مش كدة ولا إيه؟
- دينا : والله ممكن يكون عندك حق يا سالي، بس برضه الحب بيخلي الواحد يقدِّم تنازلات علشان اللي بيحبه، وممكن يتغيَّر لو طبعه حيسبِّب مشاكل.
- لبنى : سالي دي زي ما تكون طالعة مِن كتاب لإحسان عبد القدوس!
- سالي : مرة نجيب محفوظ ومرة إحسان عبد القدوس، كويس إنكم ماطلَّعتونيش مِن هيبتا ولا الفيل الأزرق!
- دينا : لأ والله يا سالي، إنتِ فعلًا قديمة قوي في أفكارك.
- سالي : بُصِّي يا دينا، فيه ناس فاهمه غلط إن الحب هو التفاهم، وده اللي بيخلي الناس في وقت الخطوبة يكونوا مبسوطين وحاسِّين إن الدنيا وردي، وإنهم حيبقوا غير كل اللي حواليهم علشان حاسِّين إنهم متفاهمين، بس هما ما بياخدوش بالهم إن ده مش تفاهم، ده بيكون كدة زي اتفاق وقتي على التفاهم لغاية ما يعدُّوا مرحلة الخطوبة، ويوصلوا للمرحلة اللي بيبان فيها الحب بجد.

- دينا : ناس فاهمة غلط إزاي يعني، لما الحب مش تفاهم، أُمَّال يبقى إيه يا أرسطو؟!
- سالي : الحب هو التَفَهُّم مش التفاهم، الحب هو اللي بيخلِّينا نتفهّم تصرفات اللي قدامنا ودوافعه، ولما نتفهمها نقدر نقبلها، الحب هو اللي بيدِّينا القوة علشان الحياة تستمر بالرغم مِن كل المشاكل اللي بتعدي علينا؛ لأنه بيدينا القوة على إننا نتفهم ظروف الطرف التاني، ونعدِّيها مع بعض.
- لبنى : ولما نبقى مش قادرين نقبل الظروف دي.
- سالي : لو فيه حب، لازم حنقدر، ومش حنرمي ضعفنا على القسمة والنصيب زي ما كله بيعمل دلوقتي في الجواز وفي الطلاق كمان.
- لبنى : يعني إيه؟ مفيش قسمة ونصيب كمان؟ إنتِ حتكفري يا ست أمينة ولا إيه؟!
- سالي : مينفعش نفضل شايلين شماعة القدر في الدرج لغاية مانتزنق، يعني مينفعش نفتكر شماعة القدر بس لما نضعف قدام رغباتنا، أو لما يكون مطلوب مننا إننا نواجه قراراتنا اللي أخدناها قبل كدة، اللي مصدق في القدر ده حتلاقي كل تصرفاته وأفعاله وقراراته مربوطة بالقدر طول حياته.
- دينا : بأقولكم إيه، أنا لازم أروح علشان الأفندي راجع بعد شوية، وأنا مش في موود نكد بعد القعدة الحلوة اللي قعدناها النهاردة.
- لبنى : على رأيك يا دينا، بلاش نقلبها نكد، أحسن ست أمينة مصممة.
- سالي : خلاص خلاص، خلُّونا نروَّح، ويمكن المرة اللي جايَّة تكونوا غيَّرتُوا رأيكم.
- لبنى : أو تكوني إنتِ غيَّرتِ رأيك يا ست أمينة.

- سالي: رأيي لا يمكن حيتغير؛ لإني رضيت بقسمتي ونصيبي مِن زمان قوي، وأنا عارفة إن ده قدَري اللي ربنا لازم حيصبَّرني عليه، وحيدِّيني القوة علشان أتعامل معاه وأقبله مهما حصل، الدور والباقي على اللي لسة في سنة أولى قسمة ونصيب.

حُبُّ الدجاج

الحب هو الاختبار الوحيد الذي نمرُّ به دون أي استعداد أو استذكار أو تمارين إحماء، اللهم إلا استعداداتنا الفطرية، ورغبتنا الطفولية في أن نتحصل على ما نحب وقتما نحب، وكيفما نحب، ممَّن نحب.

فاختبارات الدراسة لا نتجاوزها إلا بعد عام مِن الحفظ والمراجعة والاستذكار؛ لكي نعبر مِن مستوًى دراسي إلى المستوى الذي يليه.

أما اختبارات القدر، فإننا لا نستطيع أن نتحملها، ونعبر آثارها إلا إذا تدرَّجنا في مراتب الإيمان، ودرَّبنا أنفسنا على الشكر وقت العطاء، والرضا عند الابتلاء، وكأن استعداداتنا لمقابلة اختبارات القدر هي شرط أساسي لكي نستطيع تجاوزها، وإلا كان الرسوب حليفنا.

ولا يقتصر الأمر فقط على الأمور المصيرية التي نضطر لقبول أحكامها مجبرين، فحتى هواياتنا والأمور التي لنا فيها حق الاختيار، تتطلب أيضًا منَّا الاستعداد والتأهيل حتى نستطيع الاستمتاع بنجاحنا أثناء ممارستها، فاختبارات الرياضة – على سبيل المثال – تتطلب منَّا الإجادة والتمرينات والممارسة، بل والمداومة وضمان الاستمرارية حتى تصبح التمارين الرياضية جزءًا مِن الروتين اليومي لكل مَن أراد إثبات نفسه رياضيًّا، وإلا لم تسعفه لياقته لاستمرار الممارسة قبل تحقيق النتائج.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالحب وتجاربه واختباراته، فإن الأمر يختلف تمامًا، والرؤية تنعكس تمامًا، والتجربة تختفي تمامًا؛ لأننا جميعًا وبدون استثناء نُقبِل على اختبارات الحب بالكثير مِن الاستعلاء الذي يجعلنا نصدق فيما نصدقه بمجرد أن تلوح في الأفق بادرة علاقة عاطفية بغض

النظر عن مناسبتها لظروفنا، أو توافقها مع استعداداتنا، أو اعتراضات ذوي الخبرة على انعدام أو قلة خبرتنا.

فحقيقة الأمر أننا نُقبِل على الحب استجابة فقط لرغبتنا في خوض هذه التجربة وفق الصورة التي نرسمها في أذهاننا لمردود حالة الحب علينا، وهي التي تجعلنا نتخيل أننا سنحظى مِن الحب بكل ما نُحِب، حتى لو لم يحب المحبوب منَّا ما نحب أن نحظى به منه.

فالمنظور البشري للحب يقوم على فكر الاستحقاق غير المشروط الذي يجعل المُحِبّ يطمح دائمًا للحصول على ما يُحِبُّ ممَّن يُحِبُّ؛ حيث نجد أن المُحِبَّ دائمًا ما ينتظر مِن المحبوب قبول رغباته وطلباته كإثبات لتصديقه في حبه، وهو ما يتعارض مع فكرة العطاء غير المشروط للحب الذي يتطلب مِن المُحِب أن يتخلَّى عن رغباته وطلباته إن تعارضتْ مع متطلبات المحبوب.

هل أصبح لدينا خلل في مفهوم الحب جعلنا نفترض أن الحب يعطينا الحق في فرض ما نريده على مَن نحب في حين نرفض نحن – وبنفس المنطق – ممَّن نحب أن يبدي اعتراضه على رغباتنا، وإلا فإنه لم يعد يُقَدِّر حبنا له؟

دار هذا الحديث يومًا بين أب وابنته حول مفهوم الحب مِن منظور كلٍّ منهما، وذلك عندما كان الأب يحاول إقناع ابنته أن رفضه لاختياراتها منبعه حبه لها وخوفه عليها، وليس مِن منطلق استبداده ورغبته في التحكم في تصرفاتها وقراراتها، الأمر الذي كانت الابنة تراه خارج إطار المنطق مِن الأساس!

- الابنة : أيوة يا بابا، أنا مش عايزة أدرس هندسة، أنا عايزة أدرس مسرح.

- الأب : يا حبيبتي حرام عليكِ، كل المجهود ده والدرجات اللي جبتيها دي وتضيعيها في معهد! مكانش ليه لازمة بقى التعب اللي تعبتيه، والفلوس اللي صرفناها!
- الابنة : يا بابا، هو أنا كنت بأدرس علشان أتعلم، ولا علشان الدرجات؟
- الأب : علشان تتعلمي طبعًا، لكن مش حرام المجموع اللي جبتيه ده تضيَّعيه على معهد!
- الابنة : بس دي الحاجة اللي أنا نفسي فيها وحألاقي فيها نفسي، أنا مش بتاعة هندسة ورمل وزلط وبهدلة.
- الأب : يا بنتي الهندسة مش كلها رمل وزلط، ممكن تدخلي هندسة كمبيوتر، وتدرسي جرافيك، وأهو مش بعيد برضه عن مجال السينما يعني لو حبيتي.
- الابنة : بس يا بابا أنا عايزة أدرس مسرح، هو إيه المشكلة في كدة؟
- الأب : يا بنتي الوسط ده كله بلاوي.
- الابنة : كل وسط وفيه بلاويه يا بابا، هو يعني إنت مسمعتش عن محامي فاسد، ولا مهندس مرتشي، ولا دكتور بيصوَّر العيانات بتوعه؟!
- الأب : أيوة فيه في كل وسط استثناءات، لكن في الوسط ده الاستثناء هو القاعدة.
- الابنة : الرَّك دايمًا على الإنسان نفسه مش على الوسط اللي هو جوَّاه.
- الأب : إنتِ لسة صغيرة علشان تقدري تعرفي وتقرري.
- الابنة : يا بابا، يا بابا، صغيرة إيه بس!
- الأب : أيوة صغيرة، وحتفضلي طول عمرك صغيرة في نظري، وحأفضل طول عمري بدوَّر علي مصلحتك.
- الابنة : أيوه يا بابا، أنا عارفة إنك بتدوَّر على مصلحتي، بس إنت ليه مافكرتش إن ممكن تكون مصلحتي مش زي اللي إنت شايفه؟

- الأب : حبي ليكي هو اللي بيخليني أعرف اللي مش ممكن إنتِ تعرفيه.
- الابنة : زي ما بتحبّ الفراخ كدة؟
- الأب : لأ أنا بحبك أكتر ما بحب الفراخ.
- الابنة : بس للأسف بتبني زي ما بتحب الفراخ بالظبط.
- الأب : يعني إيه يا فيلسوفة؟ ما أنا اتعودت على كدة، كل ما تتزنقي تتفلسفي.
- الابنة : أنا بتكلم بجد يا بابا، مش بتفلسف ولا حاجة والله.
- الأب : طب قوليلي يا كتكوتة، إزاي بحبك زي حبي للفراخ؟ ولا لازم أبِيض قدامك علشان تقوليلي!
- الابنة : طول عمري يا بابا بستغرب جدًّا مِن الناس اللي بتقول إنها بتحب الفراخ ولا السمك ولا اللحمة، وألاقيهم بيدبحوهم!
- الأب : يعني إيه؟
- الابنة : إزاي تكون بتحب حاجة وقلبك مايوجعكش وإنت بتدبحها علشان تأكلها؟
- الأب : ماهي دي سُنَّة الحياة يا حبيبتي، ربنا خلق الحاجات دي علشان نستمتع بيها!
- الابنة : يبقى الحقيقة إننا بنحب نفسنا مش بنحب الحاجات دي.
- الأب : مش قولتلك حتتفلسفي.
- الابنة : لأ بجد يا بابا، إزاي تحب الفرخة وقلبك ميوجعكش وإنتَ بتدبحها؟ لو بتحبها بجد زي مبتقول، لازم تحافظ على حياتها، لكن الحقيقة إنك بتحب نفسك علشان كدة معندكش مشكلة إنك تدبحها وتاكلها وإنت بتقنع نفسك إنك بتدبحها علشان بتحبها.
- الأب : أيوة.. بس!

- الابنة : المشكلة دايمًا هي في بس دي، لما نحب حد، يبقى لازم نحب مصلحته هو مش مصلحتنا إحنا.
- الأب : وأنا إيه مصلحتي بقى في إنك تدخلي هندسة ولا إنك متدخليش المسرح؟
- الابنة : ممكن تكون مصلحة، وممكن تكون حلم قديم، ممكن تكون أي حاجة غير إنها مصلحة الفرخة نفسها.
- الأب : إنتِ متعبة قوي.
- الابنة : حط نفسك مكان الفرخة كدة، وتخيَّل ممكن يكون إيه إحساسها وإنتَ بتدبحها، وبتقول لها إنك بتحبها، حتلاقيها بتقولك أنا مش عايزة الحب ده لو كان تَمَنُه هو حياتي.
- الأب : يعني إنتِ مش عايزاني أحبك؟
- الابنة : مقلتش كدة يا بابا، لكن الحقيقة إن ده مش حب، ده ممكن يكون انعكاس لصورة الحب في ذهنك، لكن لا يمكن ده يكون هو الحب.
- الأب : يعني إيه؟ تقصدي إيه بانعكاس لصورة الحب؟
- الابنة : الحب الحقيقي يا بابا هو إنك تِدي الفرصة للي قدامك إنه يبقى نفسه، مش إنك تحقق فيه الحاجة اللي نفسك فيها.
- الأب : بس اللي أنا نفسي فيه ده هو مصلحتك!
- الابنة : وده اللي أنا بقوله، إنت بتدبح الفرخة وإنت مصدَّق إنك بتحبها، بس متطلبش منها أبدًا إنها تصدَّق إن هو ده معنى الحب.

علمونا ونحن صغار أن مِرآة الحب عمياء، فظنَنَّا أن بريق الحب يعمينا عن مساوئ مَن نحب، ولكننا لم ننتبه إلى أن الحب يصيبنا بالعمى حتى لا نستطيع إلا أن نرى أنفسنا فيمن نحب، ولم نعد نستطيع أن نرى مصلحة مَن نحب إلا فيما يحقق متطلباتنا ورغباتنا، وقبل ذلك شهواتنا.

يخطئ كل مَن يعتقد أن شهوة الحب جنسية فقط، فللحب شهوة خفية تظهر عندما نبدأ في المطالبة باستحقاقاتنا باسم الحب، إنها شهوة التملُّك.

فبِإسْم الحب تتولد داخلنا شهوة سادية تجعلنا نصدق في أحقِّيَّتنا بتملُّك مصير منَ نحب، فلا نستطيع معها أن نتخيل حياة مَن نحب دوننا، كما لا نستطيع أن نتخيل مصلحته إلا فيما نراه، ولا أن نصدق مِن الأساس في أنه يستطيع أن يقرر لحياته إلا وفق ما نعتقد نحن أنه هو الصواب له.

ولكن المعضلة تكمن في أننا لا نرى الصواب إلا فيما نريده ممَّن نحب، ليصبح كل ما يخالف رؤيتنا لا حب.

بِإسْم الحب نطلب ممَّن نحب أن يتنازل عن أحلامه حتى نستطيع تحقيق أحلامنا سَوِيًّا والتي عادة ما تكون انعكاسًا لما نريده نحن، وما يرضي رغباتنا نحن، وما يحقق متطلباتنا نحن، وكله بِإسْم الحب.

إنها فلسفة حب الدجاج التي تجعلنا لا نجد حرجًا مِن أن نذبح الدجاجة التي تشتهيها أنفسنا، ونحن نقنع أنفسنا أننا هكذا نحبها، وأن رفْضها لأن تُذبَح هو دليل عدم تفهمها لمقدار حبنا لها.

كم مِن المآسي تُقتَرف... بِاسْم الحب!

مَن يدفع الثمن؟

بعد سنوات الغربة

عادت إلى بلادها بعد سنوات غربة وشقاء وتعب ومجهود، حصدتْ خلالها الكثير مِن الألقاب والمناصب والتكريمات التي جعلتْها تنسى كل ما أصاب حياتها الشخصية مِن إخفاقات بعد وفاة زوجها، وسفر ابنها وهجرانه لها، وكأنه يحمّلها تبعة موت أبيه في حادثة سيارة بعد أن خرج مِن البيت غاضبًا ثائرًا رافضًا إهمال زوجته لبيتها وابنها وزوجها، ليلقى حتْفه في حادث سير.

أقرَّتِ الشرطة بمسئولية قائد السيارة الأخرى الذي خرج مِن طريقه وصدمه في الاتجاه المعاكس، إلا أن الابن لم يرد أن يصدق إلا أنَّ أمه هي السبب، وأنه لولا أن أباه قد خرج غاضبًا ثائرًا لما مات هذه الميتة.

عادت إلى بلادها في نهاية الحقبة الأربعينية مِن عمرها وهي تأمل أن تجد فيها دفء الاستقرار الذي يعوضها عن سنين طويلة قضتْها في السفر والترحال، وعلاقات تُبنَى وعلاقات تنقطع، وأناس يدخلون حياتها، وأناس يرحلون حتى اعتادت الترحال والانقطاع والتغيُّب، وأصبح جلُّ أمانيها أن تستقر وسط أصدقاء تكمل معهم وبهم ووسطهم حياتها في هدوء، فقط في هدوء.. ليس أكثر مِن ذلك.

بدأتْ عملها الجديد باجتماع مع كل مرءوسيها، وقد قررتِ التباسط معهم؛ حتى تقطع رهبة التعرف إلى رئيس جديد، فبدأتِ الاجتماع بأن طلبتْ مِن كل موظف التعريف بنفسه، وبأحد أهم الصفات التي تجعله مختلفًا عن الآخرين.

- أنا سوزي، موظفة ائتمان، وطباخة ماهرة، وكتير جدًّا بحضَّر ساندويتشات لزملائي، فده مش بيخلِّيني مختلفة، ده بيخلِّيني كمان ست الكل هنا.
- أنا جو، مسئول تعاقدات، وكمان أنا مسئول الترفيه في الشلة؛ لأن أنا اللي بختار إمتى وفين وإزاي نقضي سهرات آخر الأسبوع مع الشباب، وكله تحت السيطرة يا فندم.
- أنا فلان.
- أنا فلانة.

وهكذا عرَّف كل فرد مِن المجموعة نفسه، حتى جاء الدور على آخر فرْد في المجموعة.

- أنا سام، متدرب جديد قديم.

سألتْه: كيف تكون متدربًا جديدًا وقديمًا في نفس الوقت؟ فأخبرها أنه قد اعتاد خلال سنوات الدراسة التي أنهاها منذ شهور قليلة أن يأتي للعمل في هذه الإدارة كل صيف، لهذا هو متدرب قديم لثلاث سنوات سابقة، كما أنه متدرب جديد لأول مرة بعد أن انتهى من دراسته على أمل التعيين والتثبيت، ثم أضاف أن ما يجعله مختلفًا عن الآخرين هو أنه أصغرهم، وأنشطهم، وأكثرهم لياقة، والماية تكدِّب الغطاس!

ثم باغتها بعد أن أنهى كلامه وقد ارتسمتْ على وجهها ابتسامة مشجعة، فسألها:

- وبالنسبة لحضرتك، إيه بقى الصفة اللي حتخليكي مختلفة عننا كلنا؟

نظرت إليه وكأنها لم تتوقع السؤال، وأكملتْ ابتسامتها، وقد سرحتْ قليلًا قبل أن تجيبه بأنها كانت راقصة باليه محترفة؛ لهذا فهي تعرف جيدًا كيف تتلقى طرف الإيقاع وكيف تسلمه لمن بعدها!

مرَّ الاجتماع بينها وبين طاقم العمل على أفضل ما يكون بعد أن شعر الجميع أن المديرة الجديدة هي سيدة ظريفة لطيفة متحررة، وغير متشددة، وأنهم سيستطيعون سَوِيًّا تكوين فريق عمل جيد خالٍ مِن المشكلات.

تعوَّدتْ خلال سنوات غربتها وسفرها وترحالها على التباسط مع الجميع، وعلى إعطاء المساحة اللازمة لكل مَن حولها ليُظهِر حُسْن نيته، أو على أقل تقدير، ليظهر عدم سوء نيته، ولكن بطبيعة الحال، فإن الأمر يختلف مِن شخص لآخر حسب تربيته وثقافته وأخلاقه وقيمه، وهو ما كانت تعلمه جيدًا، وتحاول جاهدة ألا تنزلق في أي مواجهة مع البُعد اللا أخلاقي.

ولأنها شعرت أن المتدرب الجديد لديه مخاوف مِن إمكانية عدم تعيينه، فقد عمدتْ إلى طمأنته بأنها أشرفتْ هي نفسها على عمله واستلام مهامه الوظيفية بنفسها، وتصحيحها له، وتوضيح أخطائه بطريقة لطيفة حتى تضمن أن يستفيد مِن نصحها في تطوير نفسه، وألا يصيبه التوتر الذي يصيب جميع المبتدئين عند مواجهتهم بأخطائهم.

هل كان اهتمامها بِسَام هو لرغبتها في عدم إصابته بالتوتر، ولضمان توصيل المعلومة الصحيحة؟ أم لأنها رأت أن هذا قد يعوضها عن ابنها الذي يماثله في العمر والشخصية والحسّ الفكاهي؟ فرأتْ في الاهتمام به أنه قد يكون عوضًا عن اهتمامها بإبنها الذي لم يعطِها الفرصة لممارسة هذا الشعور، وبالرغم مِن أنها لم تكن تعلم لماذا، إلا أنها كانت سعيدة بمساعدته.

وحدث في صبيحة يوم عمل أن خرج بعض الموظفين إلى خارج المبنى للتدخين، وهو ما كان مسموحًا ومعمولًا به، فوقفوا يدخنون ويشربون بعض القهوة، فاحتدَّ أحدهم على المتدرب "سام"، ونشب بينهما شجار، وتطوَّرَ الموضوع، فقام سام بضرب الموظف وطرحه أرضًا، ولم ينقذ الموظف مِن يد المتدرب إلا زملاؤه.

جلس أمامها وقد تملَّكه الارتباك والتوتر، قد أطبق الصمت على شفتيه، وكأنه نسي كيف يكون الكلام!

- ليه كدة؟ عايزة أعرف إزاي عملت كدة؟
- (صمت رهيب).
- إيه كم الغل اللي جواك ده؟ إزاي ممكن تتحول لوحش بالمنظر ده؟
- (صمت رهيب).
- إنت كان ممكن تقتله، إزاي مقدرتِش توقف نفسك؟ وهو إيه يعني اللي حصل علشان ده كله؟
- (صمت رهيب).
- أنا عايزة أسمع ردَّك حالًا، وإلا حأعتبر الموضوع انتهى، لإني حعتبر وجودك هنا انتهى مِن الأساس.
- أنا آسف، مش حأقدر أقول غير إني آسف، وإني مش عارف إزاي أنا عملت كدة!
- بس كدة؟!
- معنديش حاجة أقولها، غير إني فعلًا ندمان على اللي عملته، وإني حطلع وأعتذر له قدام الناس كلها، مش علشان الوظيفة على فكرة، لكن علشان أنا فعلًا حاسس بالغلط.
- طيب اتفضل، روح اعتذر له، وأنا حشوف حأعمل إيه.

لم تمر هذه الحادثة مرور الكرام، فبالرغم مِن أن العلاقة بينهما كانت قد توترتْ جدًّا، إلا إنه قد لاحظ مِن نظراتها وابتساماتها التي كانت تحاول أن تخفيها، وكلامها غير المباشر أنها أصبحتْ تُكِنُّ له الاحترام، إن لم يكن الإعجاب بشجاعته.

لم ينتظر كثيرًا بعد هذه الحادثة، وبعد أن تأكد مِن شعوره بأن هناك شعورًا ما مِن ناحيتها، حتى كان هذا اليوم الذي تأخر هو في المكتب وهو ينهي بعض الأعمال، وكانت هي قد اعتادت أن تكون آخر مَن يغادر، كما وأنها أول مَن يأتي إلى المكتب.

انتهى مِن العمل، وفي طريقه للخروج ذهب ليطفئ أنوار الطرقات والمكاتب لظنه أنه آخر مَن في المكتب، ولكنه وجد نور مكتبها مضاءً، فذهب إليها ليجدها جالسة أمام شاشة الكمبيوتر وفي حالة تركيز شديدة لدرجة أنها لم تنتبه إليه إلا وهو واقف خلفها!

- إيه ده! إنت بتعمل إيه هنا؟
- أبدًا، أنا كنت مروَّح وبأطفي أنوار المكتب، فلقيت نور مكتبك منور، ودخلت وجيت لغاية هنا، لكن واضح إنك كنتِ مشغولة.
- أيوة.. كنت مشغولة فعلًا، طيب خلاص روح إنت وأنا حأبقى أطفي النور ورايا.
- تحبي أجيبلك حاجة تشربيها؟
- لو بعد إذنك تناولني أي عصير مِن التلاجة؛ لإني حاسَّة إن ضغطي وطي شوية.
- طَب قومي شوية مِن قدام الكمبيوتر، ريحي عينيكي واشربي حاجة، وبعدين إبقي ارجعي اشتغلي... قومي يلَّا.

بمجرد أن قامت مِن على الكرسي، وجدتْ نفسها في حضنه، وقد أطبق عليها بذراعيه، واقترب وجهه مِن وجهها حتى لم تعد تستطيع أن تستنشق إلا بقايا أنفاسه إن هي أرادت البقاء على قيد الحياة.

فجأة وجدتْ نفسها تخالجها مشاعر وأحاسيس لم تمر بها منذ سنوات طويلة جدًّا، فلم تستطع المقاومة، أو دعونا نقول إنها لم ترِد أن تقاوم، وقد استحسنت انهيار حصون دفاعها أمام غريزة أطلقتْ لنفسها العنان، وتحررتْ مِن أي قيود تمنعها مِن الانطلاق لتصل بها وبه إلى منتهاها.

الاستسلام

لا تعلم كيف استبدَّتْ بها مشاعرها التي استطاعت أن تُحَجِّمَها سنوات طويلة، وتغلق أبوابها أمام أي طارق، سنون طويلة جعلتْ مِن بوابة مشاعرها ومعبر أحاسيسها مجرد لوحة خشبية كثيرة التفاصيل تغري كل مَن يمرُّ بجوارها، ويشاهد حسنها أن يقف ويتأمل ويطرق على أمل العبور مِن بوابة تمَّ إغلاقها بإحكام، فلم يستطع أحد اختراقها بالرغم مِن أن الكثير حاولوا طرقها.

كيف استجابت لهذه المشاعر وهي تعلم يقينًا أن ما تفعله هو خطأ بكل المقاييس؟

هو خطأ بمقياس العمل والزمالة والإدارة التي لن تسمح لها أبدًا أن تقع في غرام متدرب لديها، وإلا انعكس عشقها على تقييمها لعمله ومعدلات أدائه، وبالتبعية حول استحقاقه التثبيت والتعيين.

هو خطأ بمقياس العمر، إذ كيف يمكن أن تستسلم عشقًا لمن يقارب ابنها في السن، وعمرها يماثل ضعف عمره؟

هو خطأ بمقياس المجتمع الذي لن يقبل أبدًا أو يرحب بمثل هذه العلاقة التي كان مِن الممكن قبولها أثناء سفرها، وخلال سنوات غربتها، أما بعد أن عادت فقد أصبح مِن المستحيل بحال مِن الأحوال قبول مثل هذه العلاقة في مثل هذا المجتمع.

هو خطأ بمقياس الأخلاق والقيم التي ستهدرها أمام ضعفها واستسلامها لغريزتها التي لم يعد لها عليها أي سيطرة، وأصبح هو قادرًا على إشعالها بنظرة مِن عينه قبل أن تكون بلمسة مِن يده.

نعم كانت تعلم خطأ ما تفعله، وما ستفعله، ولكنها وبالرغم مِن ذلك لم تعد قادرة إلا على الاستسلام لهذا الخطأ، فإذا كان الحب يجعلنا نغمض أعيننا عن أخطاء مَن نحبهم، فيبدو أن هناك مرحلة تفوق الحب سطوة وسيطرة وتَحَكُّم تجعلنا نحب الخطأ ونستعذبه، بل ونجد كل ما دونه ليس إلا حبًّا طفوليًّا مراهقًا، إنها مرحلة العشق الغريزي الوحشي.

تحولتْ إلى دمية في يديه يفعل بها ومعها ما يشاء، في أي وقت، وبأي طريقة، وفي أي مكان، بعد أن تخلَّتْ تمامًا وبإرادتها التامة عن أي مقاومة، أو رفض أو استياء، مما جعله يتمادى في سيطرته، وفي نزواته، وفي دناءته، وهو يرى منها إعجابًا متزايدًا ورضوخًا مستعذبًا كلما زاد هو مِن دناءة أفعاله، وقذارة ممارساته.

لم يعد يوقفه وجودها في المكتب؛ حيث تعوَّد أن يدخل ويأخذ ما يريد دون أي مقاومة منها. لم يعد يهتم لما قد يحدث إن شاهدهما أحد في سيارتها في الجراج أو في حديقة منزلها. لقد أعطاه استسلامها وخضوعها التام له كامل الصلاحية لأن يخوض معها كل التجارب التي طالما شاهدها في الأفلام الأجنبية، وخاصةً الإباحية منها.

ولكن كالعادة، فإن كل أحاسيس الحياة تبدأ كبيرة عظيمة جبارة متجبرة، حتى يخبو وهجها، وتبدأ نيران جذوتها في الانطفاء بعد أن يحترق معظم حطب اشتعالها، ليصبح مِن اللازم البحث عن حطب جديد.

تغيَّر سام، وبدأتْ طباعه في التغير، وبدأ شغفه في التناقص، فأصبح لا يأتي إلى العمل بسيارته، ويتعمَّد الخروج بعد العمل مع زملائه؛ حتى لا يذهب إلى الجراج، كما أصبح لا يهجم عليها، ويفاجئها في مكتبها كما كان يفعل، وهو ما جعلها تجلس في مكتبها ساعات طوال تُظِهر أنها مشغولة بالعمل، ولكنها في حقيقة الأمر كانت مشغولة بانتظار هجومه عليها.

تغيَّر سام، وتغيرتْ هي، وأصبح واضحًا عليها تمامًا لكل مَن يراها أنها لم تصبح كما كانت، حاولتْ أن تستوقفه بعد العمل، ولكنه اعتذر؛ لأنه يجب عليه اللحاق بزملائه، فطلبتْ منه أن يأتي معها في سيارتها؛ ليتحدثا قليلًا قبل أن توصله إلى بيته، فاعتذر وانصرف بسرعة، بحيث لم يعطِها الفرصة لترفض اعتذاره.

وحدث أن تغيَّب سام يومًا عن العمل، فسألتْ زملاءَه الذين أخبروها أنه قد اتصل ليعتذر بسبب مرضه، فقامت بأخْذ عنوان منزله، وتحركتْ قبل انتهاء العمل، وتوجهتْ إلى منزله.

دقَّت جرس الباب، ففتح سام لها الباب، ووقف متلعثمًا مترددًا وكأنه لا يصدق أنها واقفة على باب بيته حقًّا:

- أهلًا وسهلًا، إزاي حضرتك.
- حضرتي! عمومًا حضرتي كويسة، أنا لقيتك مجيتش النهاردة، وعرفت إنك اتصلت واعتذرت علشان عيان، فقولت آجي أطَّمِّن عليك.
- ميرسي جدًّا لحضرتك والله، مكانش فيه داعي تتعبي نفسك.

- وإنتَ حتسيبني واقفة على الباب كدة كتير؟
- لأ طبعًا اتفضلي، بس... أصل...
- إيه.. خير! مش عايزني أدخل كمان؟
- لأ طبعًا، ده حضرتك تنوريني، بس أصل مفيش حد هنا، لكن عمومًا بابا وماما على وصول دلوقتي، اتفضلي... اتفضلي.

لم تعطه الفرصة لكي يتهرب منها، دخلت معه إلى المنزل، وبمجرد أن جلس بجوارها، هجمتْ عليه كما كان يفعل معها، وتملكتْ منه كما كان يتملك منها، فيبدو أن الشبه الوحيد بينهما هو في ضعفهما أمام غريزتهما الشهوانية.

انتفض فجأة مِن فوقها وهو يصرخ: ماما.. أنا سامع صوت ماما.

رتَّبتْ نفسها سريعًا، وجلست وهي تمسك بهاتفها في يديها، وكأنها ترسل رسالة، لتتفاجأ بأمه واقفة أمامها، وقد فتحتْ فاها مندهشةً وغير مصدقة لما شاهدتْه أمامها!

الصدفة ...!!

- أنا مش مصدقة عينية.. معقولة ده!
- أناااا...
- ناديا.. إنتِ ناديا.. إزاي عرفتِ طريقي؟ وإيه اللي فكَّرِك بيَّ؟ أنا مش مصدقة نفْسي.
- ليلى.. صح.. إنتِ ليلى.. مش ممكن! إيه الصدفة الجميلة دي! أنا...
- صدفة! يعني إنتِ مكنتيش عارفة إن ده بيتي! أُمَّال إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة خالص!

- الحقيقة، أصل سام ابنك بيشتغل معايا، والنهاردة هو كان غايب، وكان فيه حاجات مهمة جدًّا لازم تتقدم بكرة، فقلت أمرُّ، منها أطَّمِّن عليه، وبالمرة أستفسر منه عن الشغل بتاع بكرة.
- لأ لأ لالالالالاااااا.. يعني إنتِ كمان مديرة سام الجديدة، ده بيقول فيكِ شعر، صحيح الدنيا صغيرة قوي!

مِن العجيب أن القدر دائمًا ما يفاجئنا بترتيبات عجيبة لا تخطر أبدًا على بالنا، حتى يعيد القدر ذاته ترتيب أوراق لعبته بالطريقة التي تمكنه مِن فرضها علينا بغض النظر عن قبولنا مِن عدمه.

وتطورتِ الجلسة، وتناولوا الغداء سَوِيًّا، وجلسوا وهم يحكون عن تدريبات البالية، وأيام زمان وشقاوة أيام زمان، فامتلأتِ الغرفة بصوت ضحكاتهم التي كانت تنطلق بمجرد البدء في سرد أي قصة أو ذِكْر أي اسم، أو الإشارة إلى أي موقف تجود به عليهم ذاكرتهم، في حين جلس سام بينهما مستمتعًا بجديد ما لم يكن يعرفه عن عشيقته المديرة.

في صباح اليوم التالي، فوجئتْ به يدخل عليها مكتبها مبتسمًا ضاحكًا متباسطًا وهو يقول لها إنه لم يعرف أبدًا بعلاقتها بأمه، كما وأنه لم يكن يتخيل أبدًا أنها كانت شقية مثل بنات هذه الأيام.

فسكتتْ لوهلة وقد ارتسمت على شفتيها نصف ابتسامة صامتة تخبر كثيرًا عمَّا يدور بذهنها قبل أن تردَّ عليه:

- أنا لازم أمشي دلوقتي علشان عندي ميعاد بخصوص التقرير اللي إنت اشتغلت عليه، ولازم تيجي معايا علشان لو فيه استفسارات أو إيضاحات تكون معايا... عشر دقايق ونتحرك.. اتفضَّل.

خرج مِن أمامها ولم ينطق بكلمة واحدة بعد أن ألجمتْه طريقة كلامها معه بشكل رسمي جدًّا لم يعتده منها مِن قبل، وهو الذي اعتاد على أنه هو مَن يقود العلاقة بالطريقة التي يحددها، وبالشكل الذي يريده.

ذهبا سَوِيًّا في سيارتها، ولم يتحدَّثا على الإطلاق طوال المشوار، حيث تعمدتْ أن تتحدث في التليفون على سماعات السيارة، في حين جلس هو بجوارها تمامًا كتلميذ في المدرسة، منعتْه المدرِّسة مِن أن يتحرك مِن مكانه أو ينطق بكلمة.. وطوال الاجتماع لم يرفع عينه عنها وهي تتحدث وتتناقش وتحتدَّ، ثم تتباسط وتضحك دون أن تنظر له، أو تشركه في الحديث، ولكنه لم يعلم أنها قد وضعتْ نظارتها الشمسية أمامها بالشكل الذي يمكنها مِن رؤية تعبيراته ورصْد نظراته.

وانتهى الاجتماع، وخرجا في صحبة مضيفهما حتى سيارتها، وحاول أن يستأذن منها، ولكنها نظرتْ له أثناء حديثها، وأشارت إلى السيارة، وفتحتْها بالريموت كونترول، وكأنها تأمره أن يركب، فدخل السيارة وجلس دون أن ينطق بكلمة منذ تقابلا في مكتبها.

وفي الطريق بدأتْ هي الحديث معه بعد أن أصبح واضحًا عليه التوتر الشديد: بعد إذنك حعدِّي على البيت عندي أجيب حاجة، وبعدين نطلع على المكتب.

- حضرتِك أنا ممكن أنزل هنا، وأروح المكتب بتاكسي.
- لأ، مفيش مشكلة، إحنا خلاص وصلنا البيت عندي، اتفضَّل إنزل.
- لأ... مفيش مشكلة، أنا حأستنَّى حضرتِك هنا في العربية.
- تستناني فين؟ في الشمس دي؟ اتفضَّل أدخل.

وبمجرد أن دخلتِ البيت، ووضعت حقيبتها، وخلعتِ الجاكيت، لم يستطيع أن يتماسك أمام قوة شخصيتها التي يراها لأول مرة وهي تمحو شخصيته التي طالما فرضها عليها، فهجم عليها محاولًا استعادة شخصيته.

حاولتْ منعه هذه المرة وهي تتمتم بكلمات لم يكن يسمعها جيدًا، ولكنها كانت تدور حول العيب ومامتك ومينفعش، ولكن كل كلماتها لم تمنعه مِن الاستمرار في محاولته استعادة سيطرته عليها، خاصةً أن كل ما كانت تبديه مِن مقاومة لا يزيد عن بعض الكلمات التي لم تمنعهما مِن الاستمتاع باستعادة ما كان بينهما.

وتعددتِ اللقاءات في بيتها بعد ذلك؛ حيث بدأت هي في ترتيب المواعيد، وإرسال رسائل له على الواتس آب تخبره بكيف ومتى سيلتقيان، أو بإرسال رسائل تتوحشه فيها إذا تغيَّب عنها لتذكِّره بما كان بينهما، وبما تعدُّه له، وبما اشترتْه مِن ملابس مثيرة لن يراها غيره هو وحده!

وكما كان الحال مِن قبل، استمرتِ العلاقة مرة أخرى لأسابيع قليلة قبل أن تنطفئ نيران شهوة سام مِن جديد، ويبدأ في الابتعاد التدريجي، ولكن الأمر هذه المرة قد اختلف تمامًا؛ لأن سام قد تعرَّف على صديقة جديدة تصغره بسنوات قليلة، وقد شاركتْه معظم خصال وطباع وتصرفات جيله، وهو ما لم يجده مع ناديا؛ حيث كانت العلاقة بينهما لا تزيد عن علاقة جسدية في الخفاء، يتخللها بعض الطعام والشراب.. ليس إلا.

وابتعد سام تدريجيًّا، وبدأتْ ناديا تستشيط غضبًا بعدما تكرَّر تهربه منها، وعدم رده على اتصالاتها، فبدأتْ في إرسال رسائل تستعطفه، وتذكِّره بما كان بينهما، وتبشِّره بأنها قد أصدرتْ قرارًا بتعيينه، وأن عليهما الاحتفال بهذه المناسبة، ولكن سام كان قد أغلق الموضوع تمامًا مِن جهته فقط، وبدأ

في قصة حب حقيقية مع فتاته الجديدة أملًا أن يقوم الوقت بإنهاء المهمة التي لم يستطع هو إنهاءها مع مَن كانت يومًا عشيقته.

ولما تعددتِ المحاولات مِن جهتها والرفض والتهرب مِن جهته، فقد اتصلت بأمه وهي تسأل عليها وتطلب منها أن يتقابلا، فأخبرتها ليلى أنها قد دعت بعض الزميلات القدامى ليتقابلوا نهار يوم السبت المقبل، وأنها ستسعد بها إن هي انضمت إليهم، فوافقتْ بالطبع.

عاد سام مِن الخارج وبمجرد أن دخل، وجدها جالسة أمامه مع أمه وصديقاتها، فسلَّم مِن بعيد، واستأذن ليدخل حجرته، ولكن ليلى نادت عليه وهي تعرِّفه على صديقاتها وعلى رأسهم طنط ناديا، فجاء وسلَّم عليهنَّ وعليها، وقد وضح عليه الخجل الشديد واللعثمة في الكلام، فبادرته ناديا وهي تقول له: إنتَ عملت إيه في الملف اللي بعتُّهولك مِن يومين؟

- شغأَّل عليه حضرتك، وإن شاء الله أخلصه وأقدمه لحضرتك بعد بكرة.
- طب ورّيني كدة وصلت لفين.
- ردّت ليلى: مش وقته ده يا ناديا، إحنا مش في الشغل!
- فردّت ناديا: أصلي مبلحقش أشوفه في الشغل، والوقت ضيق قوي، ففرصة أراجع الشغل دلوقتي معاه علشان أتأكد إنه حيخلصه صح.
- فردّت ليلى: طب اتفضلوا في أوضة المكتب، بس متخليش الشغل ياخدك مننا علشان نلحق نقعد مع بعض.

دخلتْ غرفة المكتب، وجلستْ في انتظاره حتى عاد وفي يده اللاب توب، وجلس بجوارها وقد فتح الجهاز حتى يريها الملف كما طلبتْ، فتركتِ الجهاز وأمسكتْ بيده وقد ارتسمتْ على وجهها نفس النصف ابتسامة إياها، ولكن في هذه المرة أدمعتْ عيناها وهي تقول له:

- سام، أنا حامل!

كان وقع المفاجأة شديدًا عليه، ولكن ردة فعله لم تخطر أبدًا على بالها.

المفاجأة ...!!

- سام، أنا حامل!

كان وقْع المفاجأة شديدًا عليه، لدرجة أنه لم يعرف كيف يرد، أو ماذا يقول، وهو ينظر لها في عينها وقد توقفتْ كل عضلات وجهه عن الحركة، فأصبح كتمثال برونزي صامت مصمت، لا يبدو منه أي فعل، أو رد فعل.

أمسكتْ بيديه في محاولة منها لإذابة جبل الجليد الذي تولَّد فجأة بينهما، وانعكست صورته على وجهه، وهي تخبره أنها لم تكن تتصور بأي حال مِن الأحوال أنها ستمر بهذه التجربة في مثل هذا العمر، ولكن إذا كان هذا هو القدر فإنها على استعداد لأن تبيع العالم كله، وتكتفي به وبثمرة حبهما، حتى لو كان الثمن أن يسافرا إلى أي مكان هو وهي وبس.

وبالرغم مِن تأكدها أن عينيه المحدقة فيها لم تعد تراها، وأن أذنيه تنصت إليها دون أن تسمع كلمة واحدة مِن كلامها، وأنه قد شرد منها تمامًا بروحه وعقله ونفسه، ولم يبقَ جالسًا معها إلا جسد فقد الحياة إكلينيكيًّا، إلا إنها استمرَّتْ في كلامها وهي تؤكد له أنهما سَوِيًّا سيجتازان هذا الاختبار، وأنهما لن يحتاجا أحدًا، وأنها ستعوِّضه عن أي شيء طالما بقيا سَوِيًّا.

لم يقطع حديثها الذي لم يسمع هو منه كلمة واحدة إلا صوت ليلى وهي تخبرها أن الطعام جاهز، وتسألها إن كانت تحب أن تحضر لها طبقًا، أم أنها ستأتي لتناول الطعام معهم.

خرجتْ إليهنَّ وتركتْه في غرفة المكتب، وجلستْ معهنَّ وقد انطلقتْ في الكلام والضحك، وكأن كلامها معه قد حرَّرها مِن كل الهموم والضغوط التي منعتْها مِن الابتسام طوال الأيام الماضية حتى صارحتْه بما كانت تتمناه!

استأذنتْ مِن ليلى ورفقتها، وتحججتْ ببعض المشغوليات على وعد باللقاء القريب، وبمجرد أن دخلتْ سيارتها أمسكتْ بتليفونها لكي تتصل به، ولكنها خافت مِن ردة فعله التي لم يفصح عنها، فآثرتْ أن ترسل له رسائل على الواتس آب لتشرح له فرحها بما كتبه لهما القدر.

لم يرد على رسائلها، كما لم يرد على اتصالاتها التي دامت لأيام غاب فيها عن العمل، فانقطعت كل أخباره وسبل الاتصال والتواصل معه، ممَّا أصابها بحالة مِن الانفلات العصبي جعلتْها ترسل له ثلاثمائة وخمسًا وثمانين رسالة، وتتصل به مائتين واثنتين وأربعين مرة، وهي لا تعلم بطبيعة الحال كيف ومتى اتصلتْ به أو أرسلتْ له هذا الكم مِن الرسائل إلا عندما دخلتْ عليها ليلى مكتبها ذات يوم، وأغلقتْ باب المكتب مِن الداخل بالمفتاح، وجلستْ أمامها، وقد أخرجتْ تليفون سام في يدها، وهي تخبرها بهذا الكم مِن الرسائل والاتصالات التي عملتها خلال أربعة أيام فقط، وذلك قبل أن تسألها: إنتِ حامل يا ناديا؟

- أنا.. أناااا
- ردّي عليَّ... إنتِ فعلًا حامل؟
- لأ.. لأ مش حامل.. أيوة مش حامل، ولا يمكن حكون حامل خلاص.
- طيب.. أنا بقى حكلِّمك ست لست، لو قرَّبْتِ لابني بعد النهاردة.. حأقتلك.. فاهمة.. حأقتلك.
- حاضر.

- وأنصحك كمان ترجعي لمكان ماجيتي، لإن مبقاش ليكي مكان وسطنا بعد النهاردة، ومِن غير سلام كمان.

وبالرغم مِن الأصوات التي تعالتْ خارج المكتب، وبالرغم من أنها سمعتْ اسمها بمنتهى الوضوح يُذكَر موصوفًا بأبشع الأوصاف، إلا إنها لم تستطيع أن تغادر مكانها، وكأن قدميها قد تم تثبيتهما في أرضية المكتب بقوالب أسمنتيَّة، أو كأن عقلها قد فقد سيطرته تمامًا على جسدها، فلم تعد قادرة على تحريك قدميها، كما أنها لم تعد قادرة على إيقاف شلال دموعها، وخفْض صوت شهيقها، ووقْف الرعشة التي انتابت جسدها، لقد فقدتْ فعلًا السيطرة تمامًا، حتى أنها لم تعد قادرة على أن تبطئ مِن دقات قلبها، وكأنها قد تحولتْ إلى شبح انفصل لتوِّه عن جسدها.

لا تعرف كيف خرجتْ مِن مكتبها، ولا كيف قادتْ سيارتها حتى بيتها، ولا كيف وصلتْ إلى سريرها الذي قضت فيه أيامًا طوالًا وقد نسيتْ إحساس الجوع والعطش، ولم يحركها مِن سباتها إلا وجع الرغبة في استمرارية الحياة.. تماسكت حتى استطاعت أن تأكل وتشرب لتُبقِي على ما تبقَّى لها مِن أمل في استمرار حياتها، وقضتْ أيامها مستيقظة تفكر فيما ستفعله، وكيف ستواجه الناس مِن حولها إذا كانوا قد عرفوا بما حدث؟ وقد عرفوا بالفعل.

استجمعتْ ما تبقَّى لها مِن قوة، وارتدتْ ملابسها، وقررتْ أن تواجه، وأن تذهب إلى عملها، وليحدث ما سيحدث...وبمجرد وصولها فوجئتْ بالأحاديث الجانبية تدور، وبالهمز واللمز وبالنظرات التي تصرخ بالاتهام في وجهها، وقد تشاركوا جميعًا في نهش ما تبقَّى مِن جسدها النحيل، والغريب أن سام كان يجلس معهم وكأنه ليس بطرف فاعل، أو كأنهم اعتبروه أنه ضحية، مفعول به، لا فاعل!

جلستْ إلى مكتبها، وهي تحاول أن تلهي نفسها في أعمالها، ولكن عقلها لم يكن ليطاوعها أبدًا لتفعل أي شيء إلا التفكير فيما حدث، وفجأة دخل عليها رئيس الشركة، وبادرها بالقول:

- إنتِ إزاي ليكي وش تيجي الشركة بعد المصيبة اللي عملتيها دي؟
- حضرتك...
- بلا حضرتك بلا زفت، معقولة توصل لكدة يا هانم، عيل قد ولادك تغرري بيه!
- عيل... أغرر بيه... إيه اللي حضرتك بتقوله ده؟
- أُمَّال تسمي اللي عملتيه إيه؟
- أسمِّيه بِاسْمه الحقيقي.. علاقة بين اتنين.. بين راجل وست، إيه علاقة ده بالسنّ؟
- إزاي مفيش علاقة؟ ده مِن دور عيالك، ده غير إنه موظف عندك.
- يعني حضرتك عايز تقولي إني لو كنت راجل والموظف كان بنت، حضرتك كنت حتقول كدة برضه؟
- طبعًا.. الغلط غلط.
- طيب لما هو الغلط غلط، حضرتك ليه مش شايف إنه هو كمان غلط في إنه يعمل علاقة مع مديرته؟ أنا يعني مش شايفاك متضايق منه، وهو قاعد عادي بين زمايله اللي قاعدين جنبه بيواسوه وبيطيّبوا خاطره.
- لإن غلطِك أكبر بكتير مِن غلطته، فيه ست محترمة تعمل كدة! أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم!
- أنا مش فاهمة كلام حضرتك، يعني إنت شايف الغلط إن ست هي اللي عملت كدة ومش شايف إن الراجل اللي قاعد بره في وسط زمايله ده غلطان!

- أيوة طبعًا مش غلطان، ده عيل، وحضرتك ضحكتِ عليه، وأنا بأنصحك تقدمي استقالتك بشرف بدال ما أطلَّع قرار برفدك.
- يعني حضرتك مش شايف إن الغلط أخلاقي، ده غلط نوعي؟
- أفندم؟
- يعني حضرتك شايف إن الست لما تغلط تترفد، والراجل اللي هو شريكها في الغلط، نواسيه ونداديه لإنه راجل.
- بُصِّي يا هانم، الراجل بطبيعة خلقه ممكن يغلط، علشان كدة ربنا حلّل له يتجوز اتنين وتلاتة وأربعة، لكن الست مش المفروض أبدًا تغلط، وعلشان كدة ربنا مَدَّهاش الحق في التعددية.
- أنا بأحمد ربنا، إنه خلَّى أمر مغفرته ورحمته في إيده هو وبس؛ لإن الناس ظَلَمة بطبعهم، أنا بأحمد ربنا على إنه هو ربنا اللي ما بيفرَّقش بين راجل وست لا في الصح ولا في الغلط، أنا بأحمد ربنا إنه خلَّى أمر شغلي في إيديك، لكن مخلَّاش أمر قبول توبتي غير في إيده هو بس.
- إنتِ حرة في فلسفتك، استقالتك تكون على مكتبي بعد عشر دقايق لو سمحتِ.
- قبل ما أمشي، عايزة أقوللك حاجة واحدة بس لو سمحت.
- اتفضَّلي وبسرعة علشان ورايا شغل.
- سيدنا يوسف إخواته قلعوه قميصه وحطوا عليه دم علشان يبرأوا نفسهم قدام أبوهم ورموه في البير عريان، والناس اللي طلعوه من البير شافوه عريان، وإخواته اللي غدروا بيه وعروه ورموه في البير كانوا في حضن أبوهم نايمين مطَّمِّنين، وبياخدوا فيه العزا كمان، أنا يمكن مش في طهارة سيدنا يوسف، لكن اللي أنا متأكدة منه، إن الراجل اللي إنتوا واخدينه في حضنكم ميفرقش خالص عن إخوة يوسف.

دعونا الآن نسأل أنفسنا سؤالًا بديهيًّا قد يبدو لأول وهلة أنه فلسفي، ولكنه في حقيقة الأمر سؤال وجودي تدور حوله مقدراتنا.. هل الخطأ خطأ؟ هل مِن الخطأ أن نخطئ؟ هل يتمُّ تحديد حجم الخطأ وقيمته وعظم أثره بناءً على نوع المخطئ رجلًا كان أم إمرأة، غنيًّا كان أم فقيرًا، سلطانًا كان أم غفيرًا، قويًا كان أم ضعيفًا؟

قبل أن تجيبوا عن هذه التساؤلات، أرجوكم أن تتجردوا مِن طبيعتكم البشرية التي يحكمها النوع والجنس والقدر والقدرة والمكان والمكانة، وأن تجيبوا أولًا عن السؤال الذي طرحناه في أول هذه القصة، مَن سيدفع ثَمن حكمكم؟

قضبان الفضيلة

الضغوط تفقدنا القدرة على الاختيار الصحيح.. مسَلَّمة بديهية لا تحتاج إلى إثبات!

فعندما نقع تحت وطأة الضغوط أيًّا كان نوعها أو حجمها، تفقد بوصلة اختياراتنا أولوياتها، وتتحول تلقائيًّا إلى حيث يمكنها التحرر مِن هذه الضغوط؛ لأن جهة الاختيار الصحيح لا تكون أبدًا صحيحة إلا عندما تكون البوصلة متحررة مِن كل الضغوط التي تؤثر على حركتها.

ولكن هل كل الضغوط التي نتعرض لها في حياتنا هي نتيجة لقُوًى خارجة عن نطاق سيطرتنا، ولا نستطيع أن نتدخل في مجريات أحداثها ونطاق تأثيرها على بوصلة اختياراتنا؟ أم أن هناك بعض القُوَى التي نتفنن نحن في صنْعها وتعميق وجودها في حياتنا، ثم نشتكي أثرها علينا؟

تقول الأسطورة الإغريقية القديمة إن أرتيموس ابنة زيوس كبير الآلهة كانت هي إله العفة والفضيلة في أرض اليونان القديمة، وذلك بعد أن طلبتْ مِن أبيها أن تظل عذراء طيلة عمرها، وألا تقع في الخطيئة أبدًا، حتى كان هذا اليوم الذي كانت تستحمُّ في البحيرة، وقد أصبحت شابة مكتملة الأنوثة، فرآها أكتيون الذي كان مغرمًا بها، وكانت تشعر بحبه في قلبها.

جلس أكتيون وراء شجرة يتلصص عليها بينما هي تستحمُّ، فلما رأته غضبتْ غضبًا شديدًا لشعورها بأنه قد أصاب مِن فضيلتها التي عاشت عمرها تدافع عنها، فلم تدرِ إلا وهي ترسل عليه لعنتها ليتحول مِن إنسان إلى (أيل)، فتهجم عليه كلابه، وتقوم بقتله وتقطيعه بأسنانها.

جلست أرتيموس بجوار أشلاء أكتيون تبكي بكاءً شديدًا عندما أيقنتْ أنها قد حبستْ نفسها عمرًا طويلًا وراء قضبان مِن الفضيلة وهي تتخيل أن هذه القضبان ستمنعها مِن أن تأتي أي خطيئة، أو أن تقع في أي معصية، فإذا بها تنتهي بقتْل حبيبها بدافع الفضيلة!

هل يمكن القول بأن الفضيلة نسبية بحيث تختلف تعريفاتها باختلاف الثقافات والمرجعيات؟ أم أن الفضيلة ثابت مِن ثوابت الخلق والفطرة، ولكن تختلف نظرتنا نحن إليها حسب موقعنا، ومدى استفادتنا وقدرتنا على إيجاد المبررات، وتغليف المفاهيم التي تجعلنا قادرين على ادِّعاء الفضيلة دون أن يمنعنا هذا الادعاء مِن ممارسة حرية اللا فضيلة؟

مِن المؤكد أن الفضيلة هي مجموعة مِن القيم الفطرية التي نشأتْ منذ هبوط آدم إلى الأرض؛ حيث بدأ تطورها داخل جينات البشرية بشكل مستقل تمامًا عن المسألة الإيمانية أو العقائدية، وهذا هو ما ضمن استمرار فكر وقيمة الفضيلة في الجنس البشري حتى في تلك الأزمنة والأمكنة التي لم تكن الأديان هي المسيطرة على العقيدة البشرية.

فالفضائل الإنسانية ثابتة مع اختلاف الأديان والعقائد، بل إنها ثابتة حتى في المجتمعات اللا دينية، وهو ما يثبته أن جميع الأديان والعقائد الإنسانية تدعو إلى الفضيلة، في حين أن الفضيلة... لا تتطلب ممَّن يتبعها أن يثبت إيمانه أو حتى أن يظهر عقيدته.

فالصدق فضيلة، والأمانة فضيلة، وإغاثة الملهوف فضيلة، والوفاء بالعهد فضيلة، واحترام الكلمة فضيلة، والحفاظ على الشرف فضيلة، وكل هذه الفضائل وأخر كثير كان يتبعها ويعليها الكفار كالمؤمنين؛ لأنها كانت قيمًا مجتمعية لم يفرضها دين، فلم تنتفِ حتى ولو لم يقِم المجتمع الدين، وهنا تكمن المعضلة الفلسفية في فكر الفضيلة!

هل الفضيلة في حقيقتها ليست إلا قفصًا يحدُّ مِن حريتنا، ويقيد أفعالنا وأفكارنا حتى تصبح حبيسة قضبانه ورهينة مساحة الفضاء بداخله؟ أم أن للفضيلة حدودًا نقوم نحن برسمها، وتحديد أبعادها بحيث لا نقع أبدًا في الخطيئة طالما كنا قادرين على إيجاد المبررات والمسببات التي تزيد وتمط في رحابة حدود الفضيلة بالطريقة التي تُرضِي متطلباتنا وتبررها لنا عقولنا؟

اجتهَدَ كثيرًا في البحث عن زوجة يستطيع أن يطمئن لقدرتها على أن تصون شرفه، وتحمي عرضه، وتحافظ على سمعته بعفتها، والتزامها برؤيته، وطاعتها لرأيه في أفعالها، وطريقة كلامها وتصرفاتها.

فالزوجة الصالحة – مِن وجهة نظره – هي تلك المرأة التي يجب أن تقبل آراء وقرارات زوجها مهما بدتْ لها غريبة أو مختلفة عمَّا تربَّتْ عليه قبل أن تعرفه، أو ما ألفتْه منه خلال فترة خطبتهم حين كان يتمتع بسماحة القبول.. انتظارًا لتحقق الممنوع.. المرغوب.

عاش حياته مع زوجته وقد اعتاد هو كما اعتادت هي على أنه يتدخل في كل شيء مهما كبر أو صغر مقامه، بصفته الرجل والسيد وصاحب الرأي الصحيح..

"إيه اللي إنتِ لابساه ده يا هانم؟ إنتِ مرات راجل محترم...! هو إحنا رايحين فرح ولا إيه؟ إيه المكياج ده كله؟ هي الهانم عندها تصوير النهاردة! صاحبتك دي حتخْرب عليكِ، وأنا مش بستريَّح لها، يستحسن تقطعي علاقتك بها.. ده مش صوت ضحكة واحدة محترمة، إبقي خُدِي بالك بعد كدة.. يعني إيه ابن خالتك ومتربي معاكي؟ ده كان خلاص حيبوسك! هو أنتِ متجوزة كيس جوافة يا هانم! سينما إيه اللي عايزانا نروحها؟ إنتِ مش حاسَّة باللي أنا فيه، أنا بأموِّت نفْسي في الشغل علشانكم ومحتاج أريَّح شوية.. يعني إيه مابخرجكيش؟ ما إحنا بنخرج كل يوم جمعة في الأجازة! وبعدين أنا مليش

دعوة بجوز أختك اللي بيخرَّجها كل يوم، ده راجل فاضي.. هو أنا مقرر عليَّ طول ما أنا قاعد معاكِ تحكيلي على السواق اللي مجابش معرفش إيه، والبواب اللي ماردّش عليكِ وخناقتك مع الجيران، أنا عندي مشاكل في حياتي قد كدة ومحتاج اللي يسمعني أنا كمان".

وبطبيعة الحال، فإنه مع دوام الحياة، وزيادة المسئوليات، ووصول الأولاد، وتعاظم المشكلات، وازدياد المشغوليات، فإنهما سَوِيًّا يبدأان في قبول الواقع الذي لم يتخيلا أنهما سيقبلانه يومًا، ويحاولان إيجاد الصيغة التي تساعدهما على القبول والاستمرار حتى لا يهدما البيت، وبطبيعة الحال فإن أفضل صيغة مقبولة لقبول اللا مقبول هو في فرض كل الممنوعات بِإسْم الفضيلة!

كانت معظم المشكلات – رغم تفاهتها – يحولها آدم إلى مسائل أخلاقية؛ حتى يكون الرفض قاطعًا عندما يكون السبب يمس قيمة أخلاقية تعجز معها حواء عن الاستمرار في النقاش أو الجدال مع آدم الذي لا يرفض بدافع الرفض، ولكنه يرفض دفاعًا عن الفضيلة التي يثبتها داخل حرم بيته.

اعتادتْ منه على تمسُّكِه بكل ما هو صحيح – مِن وجهة نظره – حيث الملبس محتشم إلى درجة كامل التستر، والصوت منخفض إلى درجة الهمس، والخروج بحساب لدرجة الحجب، والوقار سمة لدرجة الفريضة.

اعتادت على كل هذا بالرغم مِن شعورها الدائم بحجره على أنوثتها التي فقدتْها بعد أشهر قليلة جدًّا مِن الزواج، وبالرغم مِن حنينها الملتهب لتصرفاتها العفوية وقت كانت في بيت أبيها، وبالرغم مِن رغبتها الدائمة لأن تضحك، وترقص، وتخرج، وتجري، وتعيش الحياة التي رسمتْها في مخيلتها وقت توهمتْ أن السبيل الوحيد لأن تعيش حياة الحرية التي طالما حلمتْ

بها هو بالزواج، فإذا بها تصطدم بقضبان الفضيلة التي أقامها زوجها، وقد حجبتْ عنها أي شعاع ضوء لشمس الحرية التي كانت قد حلمتْ بها من قبل.

ولكن العجيب في هذا المشهد، هو كم التناقض الظاهر بوضوح جدًّا في شخصية آدم، وتعريفه للفضيلة التي يستطيع أن يضيق مِن حدودها بمنتهى الحزم في البيت، في حين يجد ألف سبب وسبب لزيادة رحابة حدود الفضيلة خارجه.

فمِن الواضح جدًّا والمؤكد كذلك جدًّا أن تعريف الفضيلة عند آدم يختلف باختلاف موقع حواء مِن البيت، فحواء داخل البيت تختلف كلية عن حواء التي هي خارجه، حيث يكون كل ما لا يقبله آدم مِن حواء داخل البيت مقبولًا، بل ومطلوبًا ومرغوبًا مِن حواء التي هي خارج البيت!

ولا يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة لحواء أيضًا، ولكن الاختلاف يكمن في مساحة الحرية التي يوفرها المجتمع، وتصيغها وتحدُّها وتراقبها القيم المجتمعية لكلٍّ مِن آدم وحواء، لأن المجتمع – للأسف – وفَّرَ لأدم ما لم يوفره لحواء مِن مساحة الحرية التي تجعل آدم لا يأبه بمجاهرته بكل ما يرفضه مِن حواء.

كانت حياته خارج البيت هي الدليل الحيّ على هذا التناقض في شخصيته الذي يفضح ادِّعاءَه بالتمسك بالفضيلة طالما كانت هذه الفضيلة بعيدة عن حدود متطلباته الغريزية ولا تقيِّد حريته خارج المنزل التي لم يتنازل عنها يومًا، بالرغم مِن تعارضها مع أبسط مبادئ الفضيلة التي كان يدَّعيها.

كانت جلساته مع أصدقائه أبعد ما تكون عن حدود الفضيلة التي كان يُصِرُّ عليها في بيته، حيث لغة الحوار عادة ما تكون متدنية، وتحوي الكثير مِن الشتائم على سبيل الهزار بطبيعة الحال، أمَّا إشاراتهم وتعليقاتهم ونظراتهم

للإناث اللاتي يجلسن حولهم، فإنها لم تكن تخلو أبدًا مِن إيماءات جنسية فاضحة عكس نظرتهم تمامًا لزوجاتهم في البيوت!

كانت حياته تحتوي على انفصام في القيم المجتمعية بشكل ملحوظ جدًّا لأي إنسان يجالسه لمدة يوم واحد، ولكنه – وكعادة كل المرضى – لم يكن ينتبه أبدًا لهذا الانفصام؛ حيث كان يرى أن دوره في بيته يتطلب منه الشدة، والحزم، والرقابة، والأمر، والإلزام، في حين أن حياته خارج البيت تحتاج إلى هذا التحرر والتباسط الذي يساعده على أن يتحمل متاعب الحياة، ومشقَّة مسئولياته العائلية، وكأن حياته المتحررة أخلاقيًّا خارج البيت هي المتنفس الذي يستطيع به أن يشحن بطاريات التزامه الأخلاقي داخل البيت.

واستمرَّتِ الحياة بينهما كما تستمر الحياة بين معظم أبناء آدم وحواء بين شدٍّ وجذب وإصرار على المتطلبات، واعتياد التنازلات، حتى كان هذا اليوم الذي يمر بمعظم الأوادم، فإذا به يقع في حب إمرأة أخرى، لم يشده إليها إلا أنها فقط تختلف كليةً عن زوجته!

فالكثير مِن البشر يتخذ الفضيلة كقضبان القطار الذي يسيرون عليها بقاطرة حياتهم، وهم يستحلُّون أن يفعلوا داخل قاطرتهم ما يحلو لهم في الخفاء، طالما كان كل مَن حولهم يرونهم وهم يلتزمون بالسير على قضبان الفضيلة.

تعرَّف على امرأته في إحدى الجلسات مع أصدقائه؛ حيث لفتتْ نظره إليها بجرأتها وتحررها الفكري، وقدرتها على مناقشته هو وأصدقائه بندية لم يعتد عليها مِن قبل مع زوجته التي كانت تؤثر السلامة على الاصطدام؛ حتى تستطيع أن تحافظ على بيتها وعائلتها.

بدأتِ القصة بالبداية الكلاسيكية لكل قصص المرأة الثانية أو الرجل الثاني، حيث بدأتْ بحوار وعرض آراء ونقاش تطوَّر إلى خلاف فكري، تمسكتْ هي فيه بصحة رأيها، وتراجع هو عنه كأي رجل متحضر (جنتلمان) حتى لا يحتدم الصراع معها، بالرغم مِن أنه لم يحاول أن يجرب هذا التراجع يومًا مع زوجته، وكأن مفهوم الرجولة وصفات الجنتلمانية تختلف داخل البيت عن خارجه!

وتكرَّر اللقاء، وتكرَّر الحوار، وتكرَّر الخلاف، ولكن في هذه المرة كانت هناك مساحة أكبر للاختلاف، فسمع كلٌّ منهما الآخر، وأعطى كلٌّ منهما الآخر المساحة اللازمة لتوضيح رأيه وفكره، فاكتشَفا أنهما متقاربَيْن فكريًّا بالرغم مِن أن امرأته الجديدة تختلف كليةً لدرجة التضاد مع زوجته التي كانت تمثل له – قبل أن يتزوجها – كل مقاييس المرأة الحلم التي سعى إليها كثيرًا ليصل إليها، ليتغير الأمر كليةً بعد الزواج، وبعد تمام عقد الملكية، وثبوت الحيازة الذكورية التي جعلتْه يعمل على إعادة تشكيل شخصيتها، وفرْض فكره وتفكيره عليها، وقولبتها في إطار الفضيلة التي مِن الواضح أنها لم تعد هي المقياس الآن في اختياره.

تحت اسم الفضيلة فرض على زوجته طريقة ملبسها، ونوعية صديقاتها، وأماكن خروجهما، ونبرة صوتها، وعلوّ ضحكتها، ومفردات كلامها، ولم يقبل منها أي نقاش فيما فرضه؛ لأن أي اعتراض يعني هدْم مبادئ الفضيلة التي لا تقبل النقاش.

ولكن عندما تحوَّل الأمر إلى هواه الشخصي وحياته السرية، فقد اختار أن يعيشها بحرية اللا فضيلة، فقبِل مِن امرأته الجديدة كل ما لم يكن يقبله مِن زوجته بِإسْم الفضيلة، سبحان الله!

لم يرَ في تدخينها للشيشة أي مشكلة، طالما استطاعت أن تحافظ على نفسها، وتصون كرامتها وهي تمنع الآخرين مِن معاملتها بالصورة التي تتكون في ذهن الرجال حول النساء المدخنات.

لم تتغير صورتها في نظره عندما وافقتْ على أن تخرج معه ليقضوا سهرتهم سوِيًّا، فرقصا حتى تورَّمتْ قدماهما، وضحكا حتى سمع صوت ضحكاتهما كل مَن حولهما، فلم يرَ في كل ذلك إلا أنه دليل توافقهما، وعلامة تقاربهما، ودليل تمكن الحب مِن قلبهما، في حين كان يرى أن مجرد طلب زوجته للخروج معه هو عدم تقدير لمشاغله ومتاعبه، وتفانيه مِن أجلها هي وأولادها.

بمجرد أن طغتْ متطلباته الذكورية على قيمه الإنسانية تبدَّلتْ لديه كل مفاهيم الفضيلة التي عاش بها سنوات طوال يفرضها على أهل بيته، وهو يقنع نفسه ويقنعهم أنها هي السبيل الوحيد كي يجتازوا سَوِيًّا مصاعب الحياة.

تبدلت كل قيمه، فلم يعد يضايقه صوت ضحكة امرأته العالية التي تلفت نظر كل الرجال مِن حوله!

لم يعد يضايقه رفْض امرأته لطلباته، وتمسُّكها، وفرْضها ما تريده عليه، بعد أن قبِل التحول مِن شخصية سي السيد مع زوجته إلى شخصية أمينة مع امرأته.

لم يعد يضايقه ملبسها المتحرر الذي كان يلفت نظر كل مَن يراها؛ حيث أصبحتْ نظرات مَن حوله لها تزيد مِن قناعته بأنه قد اختار الامرأة التي يحسده عليها الجميع.

كيف يمكن أن تتبدل القناعات، وتتغير القيم، وتتبدل تعريفات الفضيلة التي كنا ندافع عنها، وقد جعلناها قضبانًا لكل مَن نستطيع حبسهم خلفها ومنْعهم الحرية خارجها؟ فإذا بنا نكون أول مَن ينكرها عندما تسنح لنا الفرصة لكي نحيا خارج هذه القضبان بمنتهى الحرية التي لا تقيدها الفضيلة؟

هل تعريف الفضيلة وإلزام تقنينها ومسئولية تفعيلها هي حكر فقط على الرجل بعد الزواج؟ في حين تفقد الزوجة أي حق في فرض الفضيلة على رجلها طالما لا زالت على ذمته.

هل حقًّا لا تستطيع الزوجة تقويم زوجها إن هو خرج عن مفهوم الفضيلة الذي كرَّس حياته كلها لفرضه عليها؟ حيث يصبح كل ما يمكنها فعله هو فقط السعي وراء الطلاق؛ حتى تستطيع أن تفلت مِن قضبان الفضيلة التي تحيط بقفص الزوجية الذي نصَّب الزوج نفسه حارسًا له قائمًا على فرضه، في حين يتحرر منها هو تمامًا خارج هذا القفص؟

يبدو أنه لدينا مشكلة كبيرة جدًّا في تعريف الرجولة التي تجعل آدم لا يشعر برجولته إلا مِن خلال التحكُّم في حوائه، طالما ساعده على ذلك حزمة القيود المجتمعية التي فرضها آدم بنفسه لنفسه.

وكنتيجة حتمية لما يمرُّ به آدم مِن تناقض بين حياته الرجولية في المنزل، وحياته الذكورية خارجه، فقد تبدلتْ أحواله في المنزل كما تبدلتْ خارجه، فالإنسان الذي يعيش برد الفعل يكون مكشوفًا جدًّا لكل مَن حوله الذين يستطيعون تحريك انفعالاته بأقل مجهود.

ولكنه في المقابل لا يستطيع أن يعي شواهد تغيُّره، أو يدرك تبدُّل أحواله؛ لأنه لا يرى إلا انعكاس صورته التي رسمها بإتقان خلف جدار الفضيلة، في

حين يستطيع كل مَن حوله أن يرى حقيقته واضحة جلية مِن خلال القضبان.

انكشفت حقيقة آدم الذكورية أمام زوجته التي شعرتْ بتغيُّر أفعاله، وهدوء ردود أفعاله، في حين لم تستطع امرأته أن تكتشف حقيقته الرجولية؛ لأنها كانت لا تزال تحيا خارج القفص الذي يقبع آدم على بابه منتظرًا ومتأهبًا لحبْس عصفور جديد داخل قضبانه.

هل الشعور بالندم هو ما يدفع آدم إلى تغيير مواقفه وطباعه في بيته عندما يقع فريسة لمتطلباته الذكورية التي تدفعه إلى أن يبدِّل قيمه، ويغيِّر تعريفاته لمبادئ الفضيلة الأساسية التي طالما دافع عنها كرجل قبل أن تستعبده طبيعته الذكورية؟

فجأة أصبح آدم أكثر استئناسا في البيت، وأقل تصادمًا؛ حيث لم يعد يهتم كثيرًا لكل ما كان يثير حفيظته في بيته، فلم يعد ينزعج لطلبات زوجته التي كانت تثير غضبه، بعد أن أصبح أكثر قبولًا، وأكثر هدوءًا في ردة فعله، الأمر الذي جعل زوجته تنتبه إلى هذا التغير الذي كان مِن المفترض أن يُشعرها بالسعادة، ولكنه على العكس أصبح يثير لديها العديد مِن التساؤلات والتشكك والريبة في سبب هذا التغير كعادة أي حواء.

كيف أصبح آدم فجأة لا يهتم لطريقة ملبسها أو لخرجاتها المتكررة، أو لزياراتها لأقاربها، أو زيارة أقاربها لها، وهو الأمر الذي كان يثير حفيظته كثيرًا قبل ذلك، خاصةً ولو كان هؤلاء الأقارب مِن الرجال الذين كان يتشكك في نواياهم؟

تعمَّدتْ مرارًا أن تفعل كل النواهي التي فرضها عليها آدم الرجل لترى ردة فعله الذكورية وهي تضحك بالطريقة التي تثيره، أو تخبره عن خروجها مع

صديقتها التي طالما كرهها، وطلب منها أن تمتنع عن مقابلتها، بل إنها تعمَّدتْ أن تخبره عن أنها قد جربتْ شرب الشيشة مع صديقاتها مِن باب الفضول، ففاجأها بسؤاله أن كيف وجدتِها؟ فأخبرته أنها لم تستسِغْها، ولكن أعجبها هذا الإحساس بأنها تفعل مثلما يفعل الآخرون.

الغريب في الأمر أنه لم يغضب ولم يثُر، ولكنه ابتسم وهو يقول لها: معتقدش إن الشيشة حتليق عليكِ!

يبدو أنه كان لا يزال داخله بقايا رجل تتصارع مع الذكر الذي تملَّكه، وتحاول أن تستبقي أي دلائل رجولة في شخصيته حتى ولو كان عن طريق تغليب معايير اللا فضيلة التي يقبلها مِن امرأته في معاملته مع زوجته.

ولكن آدم الذكر المسكين يغفل حقيقة أن حواء يمكنها قبول كل اللا مقبول مِن آدم طالما شعرتْ أنه هو الرجل الذي تتمناه، لا الذكر الذي يلهث وراء أُنثاه.

فحواء بطبيعتها لديها قرون استشعار تجعلها تعرف كيف تفرق بمنتهى الدقة بين تغيُّر آدم المبرر بتغير قناعاته، وتغيرُّه الناتج عن تغيُّر أحواله وسيطرة طبيعته الذكورية عليه.

بدأتْ لأول مرة بمراجعة مواقفها وحياتها وأفعالها، وردود أفعالها، وتنازلاتها الكثيرة التي قدَّمتْها بمنتهى الرضا مِن أجل الحفاظ على أركان هذا البيت لسنين طوال وهي تقارن كل ما فعلتْه بموقف آدم الذي لم يهتم إلا بمتطلباته الذكورية حتى ولو كان الثمن... عمرًا!

استرجعت شريط حياتهما سَويًّا، حيث استوقفها كثيرًا كم الفضيلة التي فرضها عليها زوجها، ليمنعها مِن أن تعيش إلا بالصورة التي أراد أن يريها للناس لكي يثبت لهم رجولته في بيته.

لأول مرة تكتشف حقيقة حياتها التي غُصِبَتْ على أن تعيشها وفق الصورة التي شكَّلها المجتمع في عقل آدم حول معاني الفضيلة التي تثبت رجولته في بيته، في حين أن نفس هذا المجتمع الذكوري لم يمانع أبدًا في أن يحيا آدم حياة اللا فضيلة طالما كانت حواؤه هي امرأته، وليستْ زوجته!

اكتشفتْ أنها تحيا وحيدة على جزيرة تحيطها مياه ضحلة يمكنها عبورها بسهولة، ولكن انعكاس شمس الفضيلة المزعومة على هذه المياه جعلها تبدو وكأنها بحر هائج سيغرقها إن هي فكرتْ فقط في محاولة اجتيازه.

لم يتطلب الأمر منها إلا أن تشيح بصرها عن شمس الفضيلة المزعومة، لتكتشف أن حريتها في يديها، وأن مَن نصَّب نفسه كاهنًا في محراب الفضيلة هو في حقيقة الأمر أكبر منكر لحقيقتها.

أعطاها تبدل حال آدم الفرصة لكي تتعرف إلى نفسها، وتدرك حقيقتها، وتعرف مقدار قوتها، وقدرتها على أن تتعامل مع الحقيقة التي تحتوي على كثير مِن ألم المواجهة، ولكنها في ذات الوقت تحوي الكثير مِن الأمل في التحرر مِن قيود الفضيلة المزعومة.

فالفضيلة ثابت مِن الثوابت التي لا يمكن أبدًا أن تُفَرِق بين رجل وامرأة؛ لهذا كانت المرأة في داخلها تريد أن تمزق هذا القناع الزائف، وأن تعترف بقوتها وهي تحدق في وجه الحقيقة بلا خوف مِن المستقبل، وهي تصرح لكل مَن يعنيهم أمرها أن الفضيلة هي فيما نفعله عن قناعة، لا فيما ندَّعيه مِن قناعة!

صارحتْه.. واجهتْه.. جردتْه مِن ورقة التوت التي ظنَّ أنه سيستطيع أن يختبئ وراءها، فإذا بها تكشف له أن ورقة التوت لم تعد تواري ولو حتى سوءَته.

استمتعتْ كثيرًا بوقوفه أمامها عاجزًا عن الكلام كالطفل الصغير الذي لا يجد ما يقوله بعد أن رآه كل مَن حوله يكسر لعبة أخته الصغيرة التي كان مِن المفترض أن يكون هو مَن يحميها، فإذا به هو مَن يؤلمها، وعن قصْد.

لم يستطع أن يجد مِن الكلمات ما يبرر به فعلته، كما لم يعرف ماذا يمكنه أن يقول أو يطلب منها، وهو واقع في هذا الصراع بين رجولته المزعومة وذكوريته المشهودة.

لم تنتظر أن تسمع منه شرحًا أو مبررات، وكأنها قد علمتْ كل ما يدور داخل عقله مِن صراعات، فلم ترضَ أن تضع نفسها وعمرها وقدرها وكبرياءَها في كفة ميزان أمام متطلباته الذكورية؛ لأن الجروح مِن الممكن أن تلتئِم مع الوقت طالما لم تُصِب في مقتل، كان كل اهتمامها ألا يكون جرحها قاتلًا؛ حتى تستطيع أن تستكمل حياتها حتى مع جرحها.

طلبتْ منه بمنتهى الهدوء أن يعطيها فرصة لكي تفكر قبل أن تخبره بقرارها، فلقد علمتْ بحسِّ كبرياء المرأة – الذي أصبح هو الحاكم في تصرفاتها وقراراتها – أن أي كلام الآن لن يكون له معنًى، وأنه لن يصل بهما إلى أي التزام، حتى لو أخبرها أنه سيترك امرأته ويعود إليها، فليس المهم الآن أن يعود هو إليها؛ لأن المهم أصبح في قدرتها هي على أن تعود إليه.

فكرتْ كثيرًا أن تهاجمه وسط أصدقائه؛ لتفضح رجولته المزيفة، ولكنها تراجعتْ بعد أن فكرتْ قليلًا، فأصدقاؤه لن يختلفوا كثيرًا عنه، فماذا سَيَضير الذئب أن فضحتَ دناءَته أمام قطيع مِن الذئاب؟

فكرتْ في أن توجعه كما أوجعها، وأن تردَّ له الصاع صاعين، وتجعله يراها وهي تواعد ذكرًا مثله؛ حتى يذوق مرار ما فعله، ولكن ردَّها عن هذه الفكرة

الشيطانية احترامها لنفسها ولقيمها التي تربتْ عليها في بيت أبيها، لا هذه القيم الزائفة الشفافة التي كانت تستر عورًا قبيحًا.

فكَّرتْ في أن يكون الطلاق هو الحل؛ لكي تنتقم لشرفها الذي لم يستطع أن يحافظ عليه ويصونه، ولكنها فزعتْ مِن مجرد التفكير في أن تستسلم بهذه السهولة لأنثى جاءت بعد كل هذه السنين لتسلب منها هذا الرجل الذي شاركتْ هي في صناعته وتكوينه وتهيئته ليكون مطمعًا للإناث الجائعات اللاتي إن قابلنه منذ عشر سنوات لما لفت نظرهن ولا انتباههن لوجوده، ولا فكرنَ في الارتباط به.

أمضتْ أيامًا كثيرة وهي تعود بشخصها وهيئتها، بل وروحها إلى أيام ما قبل خطبتها منه، وكأنها قد وجدتْ آلة الزمن، فعادت بها ثلاثين عامًا، فغيرتْ تمامًا مِن هيئتها، وطريقة ملبسها، ومكياجها، وعطرها وإكسسواراتها، يبدو أنها قد قررتْ أن تصالح نفسها بالنيابة عنه.

تساءلتْ: كيف قبلتْ مِن رجلها بِإسْم الفضيلة أن تحبس نفسها داخل إطار اختاره هو، وحدَّد قياساته بالشكل الذي يرتضيه المجتمع الذكوري المتلون، وقد صبغه بألوان الفضيلة حتى يصبح خروجها مِن هذا الإطار ذنبًا، ورفْضها له إثمًا، وتمرُّدها عليه معصية؟

تركتْه أيامًا طويلة دون اتصال، أو رد اتصال، أو حتى معرفة أخبار، حتى كان هذا اليوم الذي قررتْ فيه أن حياتها الجديدة ستبدأ اليوم.

تزينتْ، وتعطرتْ، وارتدت ملابسها الجديدة، وكأنها عروس تتزين لملاقاة عريسها، ثم اتَّصلت به تدعوه لأن يلاقيها في المطعم الذي شهد أول لقاءاتهما بعد خطبتهما، وكأنها تحاول أن تعيد تصوير نفس المشهد الذي مرَّتْ عليه سنوات طويلة مِن جديد.

لم يصدق أنها هي مَن تتصل به، وأصابه خرس وقتي وهو يسمع دعوتها للقاء، وتلعثم وهو يرد عليها، حتى إن كلماته لم تكن مفهومة له هو، ولكنها لم تهتم بكل هذا وهي تخبره بأنها في طريقها الآن، وأنه إن لم يرِدِ الحضور فلا داعي لأن يعتذر، لأنها ذاهبة ذاهبة.

دخل مِن باب المكان، ونظر حوله باحثًا عن زوجته التي يعرفها، فلم يجدها.. جلس على مائدة في طرف المكان، وأخرج تليفونه، وقام بالاتصال بها ليخبرها أنه موجود في انتظارها، فعقد لسانه عندما أخبرتْه أنها هي المرأة التي تجلس أمامه على نفس الطاولة التي جلسا عليها في أول لقاء لهما في هذا المكان.

ذهب إليها، وظلَّ ينظر إليها وكأنه يراها لأول مرة، أو كأنه قد نسي الكلام!

- أنا.. أناااا
- متقولش حاجة؛ لأن أي كلام حتقوله دلوقتي حيبقى غلط.
- أنا فعلًا مش عارف أقول إيه! إنتِ مين؟! إنتِ إزاي؟!
- أنا الإنسانة اللي خطفْت قلبها مِن أكتر مِن عشرين سنة وإنت ولا حاجة، مش الإنسانة اللي خطفتْ قلبك بعد ما بقيت حاجة.
- أنا.. أناااا.
- إنتَ غلطت، وأنا عارفة زي ما إنت عارف إنك غلطت، بس المشكلة إنك مش عارف غلطك كان إيه.
- أنا عارف، أنا فعلًا غلطت، بس أي راجل بيقع في النزوة دي.
- شفت، مش قلت لك إنك مش عارف غلطك.
- تقصدي إيه؟
- إنت فاهم إن غلطك إنك عرفت واحدة تانية؟
- أُمَّال إيه؟

- غلطك إنك معرفتِش تحافظ على الأولانية بالشكل اللي يخليك متعرفش التانية.
- (أطرق صامتًا).
- غلطك إنك حبسْتني في برواز فضيلة كان ضيَّق عليك قبل ما يبقى ضيَّق عليّ، أنا عرفت أتكيف مع برواز الفضيلة اللي حبستني فيه علشان كنت بحبَّك، لكن للأسف إنت نفسَك معرفتش تتكيِّف معاه!
- أنا... أناااااا.
- إنت مقدرتِش تفهم إن القيود اللي بتحطها على نفسك وعلى اللي حواليك وإنت صغير لا يمكن حتقدر تستحملها لما تكبر، وظروف حياتك تتغير، ومتطلباتك تزيد قوي عن احتياجاتك.. مقدرتِش تفهم إن كل حاجة ليها تَمن بندفعه.. حتى أفكارنا.
- عندك حق.. عندك حق.
- سنين طويلة قوي عدِّت عليَّ وأنا مستنِّيَّة الموقف ده، أصلي علشان أنا عارفاك كويس قوي، فكنت متأكدة أن قايمة الممنوعات اللي كنت فارضها علينا دي لا يمكن إنت نفسك حتقدر تلتزم بها.
- طيب ليه مانبهتنيش؟
- لأنك ماكنتش بتسمعلي خالص، لكن كنت بتسمع كويس قوي للي حواليك، أنا كنت عارفة إنك عايش معايا بشخصية مش شخصيتك، وكنت مستنِّيَّة أشوف الشخصية التانية دي حتوصَّلك لِفِين.
- أنا... أناااااا.
- عمومًا، الست اللي إنت عايز تعيش معاها دلوقتي موجودة قدامك، وتقدر تعيش معاها نفس الحياة اللي إنت عايشها في الخفا، بس القرار قرارك إنت.
- تقصدي إيه؟

- يعني إنت اللي محتاج تقرر، حتقدر تواجه المجتمع اللي فرض عليك قبل كدة تعريفات زائفة للفضيلة خلِّتَك حبسْت الأنثى جوايا، ورحت دوَّرت عليها مع واحدة تانية. لازم إنت اللي تقرر إذا كنت حتقدر تطلع الأنثى اللي جوايا ونواجه أنا وإنت المجتمع مع بعض بدال ما إنت عايش في الخفا وإنت بتنكر الفضيلة اللي فرضتَّها علينا؟
- تقصدي...!
- أيوة، أقصد إنك تقْبلني زي يوم ما عرفتني مش زي ما عملتِني..
- يعني سامحتيني؟
- يااااه.. بالبساطة دي؟ هاهاها، إنت قدامك مشوار طويل قوي علشان أسامحك، وتَمن لازم تدفعه، بس المهم تفضل فاكر إن مفيش ذَكَر مهما كان جبروته يقدر يهزم الأنثى جوة أي ست، لكن الرجل بس هو اللي يقدر يخلِّي الست تتنازل عن كل حاجة بمزاجها حتى عن أنوثتها يوم ما تتأكد بس إنه راجل، مِن النهاردة.. أنا اللي حسوق.

نبذة عن الكاتب

- كاتب وباحث في أغوار النفس البشرية، له عديد مِن المؤلفات تناقش العديد مِن القضايا الدينية والفلسفية والتاريخية مثل:
  - كتاب "بلطجة" الذي صدر في عام 2011، ويتحدث عن ثقافة الاستحلال التي أصبحتْ تسود المجتمع المصري.
  - كتاب "جمهورية الخرفان"، وهو كتاب تأريخي يناقش نشأة المذاهب والطوائف العقائدية في صوره المختلفة، وقد صدر هذا الكتاب في عام 2014.
  - كتاب خواطر " تجليات ربانية في الآيات القرآنية"، وهو عبارة عن منظور فلسفي في قراءة بعض الآيات القرآنية بما قد يعيد رؤيتنا وتفسيرنا لهذه الآيات، وقد صدر هذا الكتاب في عام 2016.
  - كتاب "أوضة وصالة" والذي يمْكن اعتباره مِن أدب الرحلات؛ حيث طرح فيه الكاتب أحداث حقيقية مِن أسفاره برؤية فلسفية بسيطة ذات مضمون مباشر، وقد صدر هذا الكتاب في عام 2017.
  - وفي عام 2018 تمَّ إصدار كتاب "مبارك فوبيا" والذي قام فيه الكاتب برصْد أحداث ثورة 25 يناير، وسرْد ما تمَّ ذِكْره، سواء في الجرائد، أو المدونات الإلكترونية، أو إصدارات هيئة الاستعلامات للوقوف على أسباب ونتائج هذه الثورة.

الفـــــهرس

الإهـــــــداء..... 3
تقديم..... 5
الحـــــوار..... 7
التفاحة 21
الاختلاف! 29
القدَر..... 38
ليلة الميلاد 38
يوم الميلاد 44
العهد..... 47
التغيير..... 56
الفراق 66
الخيانة..... 71
النكد 80
الثَّمن 90
قصة قصيرة جدًّا..... 105
المجتمع الذكوري..... 108
حكاوي القهاوي..... 108
الخيانة.. خيانة..... 114
كهن النسوان..... 121
مثنى وثلاث ورباع..... 126

المنظور العكسي..... 134
اللقاء بعد الفراق..... 134
اطبخي يا خايبة للغايبة..... 139
حقها ولا مش حقها..... 145
جوزك على ما تعوّديه..... 150
القسمة والنصيب..... 156
حُبُّ الدجاج 162
مَن يدفع الثمن؟..... 168
بعد سنوات الغربة..... 168
الاستسلام..... 173
الصدفة..... 176
المفاجأة..... 181
قضبان الفضيلة..... 187
نبذة عن الكاتب..... 204

قضبان الفضيلة

تأليف: د.م. محمد وجدي شاهين

تنسيق: إيمان محمود

الغلاف: روان محمد شاهين

رقم الإيداع: 2023/5241

الترقيم الدولي: 978-977-86585-7-1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية

والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لاغير

ahmedragbmait@gmail com

012221235833

الطبعة الثانية 2023

قضبان الفضيلة

هي مجموعة قصصية تحكي عن العلاقة بين أدم وحواء، ولكنها أبداً لا تفسرها!

إن هـذا الكتـاب يـسرد بعـض الحكايـات والمواقـف الـتي تحـدث يوميـاً في مجتمعاتنـا الشرقيـة بـين أدم وحـواء، أو بـين حـواء وأدم - بشـكل متكـرر، يثـير التعجـب مـن إصرارنـا عـلي عـدم التعلـم مـن تجاربنـا ومـن تجـارب مـن حولنـا. يبـدو أن البشريـة قـد عجـزت عـن إيجـاد المعادلـة أو المنظومـة الـتي تحكـم العلاقـة بـين أدم وحـواء، ليـس لنـدرة المواقـف أو لضعـف قدرتنـا التحليليـة، ولكـن لأن المـولى هكـذا قـضى؛ أن تظـل أساسـيات هـذه العلاقـة الأبديـة في حكـم المجهـول، حـتى يجتهـد كل منهمـا في الوصـول إلي سر تركيبة الآخر، فتستمر الحياة بين صراع أدم وحواء من أجل كشف المستور.

لا تهـدروا طاقاتكـم في محاولـة كشـف المسـتور، ولكـن اجتهـدوا في معرفـة كيفيـة التعامـل مـع مـا خفـي عنكـم مـن أسرار النفـس البشريـة، فـأدم لـن يعـرف أبـدا مـاذا تريـد حـواء لأنهـا هـي ذاتهـا لا تعلـم مـا تريـد! كمـا أن حـواء لـن تسـتطيع أن تجعـل مـن أدم نسـخة متطابقة من حواء؛ لأن تركيبة أدم أبسط بكثير من تركيبة حواء!